كتاب الأهالي رقم ٢٨

د. رفعت السعيد

حسن البنا

متى... كيف... ولماذا؟



كتاب الأهالى

رقم ٢٨/أكتوبر ١٩٩٠

الادارة والتحرير : ٢٣ شارع عبد الخالق ثروت شقة ١٨ القاهرة ج . م . ع
ترسل جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
الاعلانات : يتفق بشـأنها مع الادارة
الاعداد السابقة : توجد نسخ محدودة من الاعداد السابقة من السلسله ترسل لمن يطلبها خارج القاهرة او خارج جمهورية مصر العربية بالبريد المسجل ويحسب سعر الكتاب على اساس ان الجنيه يعادل (دولار) امريكى ويضاف جنيه مصرى داخل مصر على ثمن الكتاب نفقات البريد كما يضاف « دولار » واحد خارجها الى الثمن وتحول اثمان الكتاب بحوالة بريدية باسم الاهالى .

كتاب الاهالى سلسلة كتب شهرية تصدرها جريدة الاهالى ـ حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى ـ مصر

اما وقد صمتت مدافع الامة عن الدفاع . وحول العدو نيران مدافعه الى جبهة الوعى والانتماء فقد كان لابد وان يصدر كتاب الاهالى ليكون بعض جهدنا المتواضع فى المعركة التى تدور على جبهة العقل ليساهم فى اعادة بناء الجسور المنهارة بين الطليعة والشعب وبين المواطن والوطن وبين الوطن والامة وبين هؤلاء جميعا والكون الذى نعيش فيه .

ولاننا نعيش فى عصر ثورة الاتصالات الذى يؤدى تدفق معلوماته الى تشوش فى اليقين فان حاجتنا الى العودة للتبشير بالبديهيات واعادة احياء الذاكرة الوطنية لاتقل عن حاجتنا الى التعمق الذى يحيى اليقين لا الذى يشوش عليه .

واذا كان منطق الحركة السياسية اليومية يحتمل المناورة والوسطية فان جوهر دور اليسار على صعيد الوعى والانتماء هو الهدم والبناء ذلك ان الامر هنا امر تكوين وتاسيس يتجاوز ضرورات الحاضر وقيوده الى افاق المستقبل واحلامه .

كتاب الأهالى

ثقافة الهدم والبناء



يقبل كتاب الاهالى نشر جميع الكتب المؤلفة والمترجمة التى يرغب اصحابها فى نشرها طالما تخـدم الهدف من أصداره ويقبل التبرعات والهبات التى يقدمها إليه المهتمون بنشر الثقافة والراغبون فى تحمل جزء من نفقات اصداره بهدف تخفيض سعر بيعه للجماهير ويشير الى ذلك اذا طلب صاحب الشأن



د. رفعت السعيد

- «دكتوراه الفلسفة» فى التاريخ الحديث عن موضوع «تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ - ١٩٢٥»

- «دكتوراه العلوم» فى التاريخ الحديث عن موضوع «الحركة الشيوعية المصرية عبر القرن العشرين، كيف أثرت فى مصر وكيف تأثرت بها».

أصدر العديد من المؤلفات عن تاريخ الحركة الشيوعية المصرية .. اعيد طبعها فى خمس مجلدات، وعن قادة العمل السياسى فى مصر، وعن تاريخ الفكر الاشتراكى فى مصر.

اسهم مؤخرا بالعديد من الكتابات عن جماعات الاسلام السياسى ..

الأهالى

د. رفعت السعيد

حسن البنا

متى؟ وكيف؟ ولماذا؟

- الإخوان المسلمون والعمال
- الاسلام السياسى من التطرف الى المزيد من التطرف

الطبعة التاسعة

الإهــداء



..إلى كل من يعمل من أجل عصر تنوير جديد لمصر،
ويصد عنها غارات التتار الجدد،

الطبعة الأولى- مكتبة مدبولى- القاهرة- ١٩٧٧
الطبعة الثانية- دار الطليعة- بيروت- ١٩٧٩
الطبعة الثالثة- دار الطليعة- بيروت- ١٩٨٠
الطبعة الرابعة- دار الهمدانى- عدن- ١٩٨٣
الطبعة الخامسة- دار الثقافة الجديدة- القاهرة- ١٩٨٤
الطبعة السادسة- دار حامد- صفاقس (تونس)- ١٩٨٥
الطبعة السابعة- دار الطليعة (بيروت) ودار الريعان (الكويت- ١٩٨٦
الطبعة الثامنة- دار حامد- صفاقس (تونس)- ١٩٨٩

مقدمة الطبعة التاسعة

.. وتمضى الأيام لتؤكد الحاجة إلى التعرف، والمزيد من التعرف على "التطرف الدينى"، منابعه، مصادره، أصوله الفكرية، مناهجه فى السياسة، أساليبه فى العمل.

تمضى الأيام لتؤكد الحكمة الفرعونية القديمة، بقدر ما هى حكيمة "ويل لمن لا يعرف قلعة خصمه جيدا من الداخل" وبرغم هدوء عواصف "الإسلام السياسى" أو انفعالها، برغم ادعائها التعقل والانصياع أو إعلانها التمرد و "الجهاد" برغم هذا وذاك يبقى التطرف الدينى ظاهرة خطرة، وتستحق التعامل معها دونما أدنى قدر من التجاهل.

وما من تعامل مجد دون أن نتعرف على المنبع والفكرة والأسلوب والمنهج. ..

ولكن، كيف بدأت علاقتى بهذا الأمر.

فى يناير ١٩٧٧، وفى أعقاب أحداثه الصاخبة بدأت زيارتى الأولى لسجن القلعة، كان آخر ما تبقى من السجون المحيطة بالقاهرة التى لم أزرها، ولعله كان ضروريا أن تكتمل الدائرة بلا نقصان.

وعندما أغلقت الزنزانة وجدت نفسى أمام لوحة جدارية مبهرة، عشرات بل مئات من الرسائل المحفورة على جدار الزنزانة.

عديدون مروا واستندوا إلى هذا الحائط.

عديدون قطعوا ساعات الملل بالتأمل، ثم حسموا أمرهم وقرروا الإسهام فى تزيين هذه اللوحة الجدارية، فالتقطوا "الملعقة" الشيء الصلد الوحيد المسموح به، وحفروا على الجدار رسالة للآتى من بعدهم.

لعلهم كانوا يعبرون عن صمودهم، أو يشجعون أنفسهم أو الآتى من بعدهم.. وعلى الجدار تزاحمت مقولات ورسائل شتى، شيوعيون، ناصريون، تجمعيون، عمال النقل العام، الشيخ إمام، لكن العين عادت وأكثر من مرة لتتوقف أمام مزاحمة جديدة "كل هم يزول "أبو الهيثم" دولة الظلم الساعة ودولة الحق حتى قيام الساعة "أبو القعقاع، "إنّا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " أبو الضرغام.

كل الآخرين أعرفهم، وأكاد أميز عباراتهم وخطوطهم.. إلا أبو الهيثم وأبو القعقاع وأبو الضرعام وإخوانهم..

فى سجون أخرى تعرفت على الإخوان المسلمين، تعايشنا، تعاركنا، غرس كل منا نظراته فى عمق الآخر، لكنهم صنف آخر ليس كأبو الضرغام وأبو القعقاع.. وأن كانت خطوط التماس واضحة، وعلامات الامتداد صريحة..

وهكذا تكشفت أمامى لحظات مواجهة بمجهول جديد، أحداثها السابقة مرت صاعقة ومتفجرة وقادرة على إيقاظ حتى غير اليقظين، أحداث الفنية العسكرية، اختطاف الشيخ الذهبى، جماعة التكفير والهجرة، لكنها للأسف مرت دون أن تستثير انتباهنا، ولا أن تكسبنا ضرورة التفكير فيها ودراستها.

.. وتغزو فكرة التأمل فى هذه الظاهرة الجديدة عقلى، وأشغل نفسى بها محاولا إنتزاع نفسى من خمول تفرضه عليها زنزانة جرداء من كل شيء أومغلقة طوال الوقت، وأتخذ أكثر من قرار لدراستها.

وبعد أشهر تفتح الزنزانة قليلا، ليس لأغادر السجن، وانما فقط كى

يصبح ممكنا أن أتلقى كتبا وصحفا وأوراقا، واختار كل ما له علاقة بهذا الموضوع.. الجديد على تماما.

.. وبعد تأمل ليس بالقصير، أجد أنه من الضرورى أن أبدأ من البداية الحقيقية، المنبع الآساسى للتطرف الدينى وللاسلام السياسى معا.

فكيف يمكن أن أدرس النتيجة دون الرجوع إلى الأصل.

كيف أتابع مسيرة المريدين التابعين وإن تمردوا وشقوا عصا الطاعة دون أن أبدأ بدراسة الشيخ..

وهكذا بدأت بحسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين.

واستغرق كل ما تبقى من زمن السجن فى إعداد مواد هذا الكتاب، وأخرج لأغرق فيه تماما، وفى الأيام الأخيرة من عام ١٩٧٧ تسرع الطبعة الأولى بالصدور..

وأدهش لما أثار الكتاب من ضجيج، ربما لأن مثلى قد تجاسر وفعلها، اقتحم قلعة الخصم الذى كان البعض يتصور أنها منيعة ومستعصية، وربما لأننى حاولت جهدى أن أتمسك بموضوعية البحث الأكاديمى، فلم أقل إلا ما أمتلك دليلا عليه، بحيث وقف غلاة الإخوان أمام الكتاب ساخطين غاضبين بل و"مكفرين" دون أن يمتلكوا جرأة المحاجة أو النقاش..

ثم.. تسع طبعات. وهو أمر لم أكن أحلم به.. ولا أتخيله.

ولعلها وحدها تكفى وتزيد.. دونما حاجة إلى تعليق.

وتمضى الأحداث لتزيد من الحاجة إلى استمرار البحث فى قلعة التطرف الدينى، روافد المنبع إلى أين تتجه، وكيف تمتلك قدرة على استمرارية متمردة، على تواصل متميز ورافض للأصل، وكيف تستمد الروافد من مقولات "جماعة الإخوان، بجاهلية المجتمع أداة للهجوم على الجماعة ذاتها لأنها تتعايش مع "الطاغوت" وتتعامل معه.

ومع تفجر عوامل ونوازع التطرف الدينى أكتب من جديد، وأختار من بين ما كتبت موضوعين لاضيفهما لهذا الكتاب كاستكمال ضرورى له. "الإسلام السياسى من التطرف إلى المزيد من التطرف" و"الإخوان المسلمون والعمال".

أضيفهما ليس فقط لأوضح الفارق بين المنبع وبين ما انتهى اليه روافدها، وبين الرائد "حسن البنا" والتابعين المتمردين شكرى مصطفى وعمر عبد الرحمن وغيرهما..، وإنما كي أثبت- ما أعتقد بصحته من أن "هذا من ذاك" أى أن "الجماعات الإسلامية بتطرفها الذى يبدو مثيرا للحيرة والاضطراب، والذى يحاول "الإخوان" التملص منه والتنكر له، أن هذه "الجماعات" ليست سوى امتداد للخط الذى رسمه البنا، وليسوا سوى امتداداً طبيعيا، ونتاجا منطقيا لأفكاره ومقولاته.

ويكمن الفارق فقط.. فى التكتيك، واختيار الوقت، والقدرة على المداراة.

ولقد يتفق البعض معى أو يختلف، لكن اليقين، أنه يستحيل تأمل الصورة الحالية بكل ما فيها من تطرف غير منطقى دون الرجوع إلى المنبع.. وإلى صاحب الدعوة الأولى "حسن البنا" وهكذا.. وفى هذا الوقت بالذات يبدو صدور هذا الكتاب ضروريا أكثر من أى وقت مضى..

فنحن إذ نواجه مخاطر "الفتنة الطائفية" وتمزيق وحدة الوطن والمواطنين، لا نمتلك ترف تجاهل دراسة كل ما يجرى، والإمساك بتلابيبه..

لا نمتلك تجاهل الحكمة الحكيمة "ويل لمن لا يعرف قلعة خصمه جيدا من الداخل"

فلنحاول..

د. رفعت السعيد

القاهرة- يونيو ١٩٩٠

توطئة

متى . . كيف . . ولماذا؟

متى..؟

متى يمكن للكاتب أو للمؤرخ أن يجد الجرأة كى يتلمس طريقه نحو تفهم أو دراسة حدث تاريخى ما، أو شخصية تاريخية ما؟

ذلك هو السؤال المحير بالنسبة للكثيرين.

فكثيرا ما يلمع بريق الحدث، فى وهلة تاريخية معينة بصورة قد تغرى الكثيرين بالإسراع بالكتابة، وكثيرا ما تختلط الرؤية السياسية أو الإعلامية بتقديرات دارس التاريخ فتؤثر على تصوره لمدى نضج الموضوع التاريخى، واستعداده- كموضوع- كى يصبح مادة للدراسة التاريخية.

وكثيرا ما يطوى حدث ما، ينضج ويصبح موضوعيا قابلا لأن يكون محل دراسة، لكنه لا يحظى بذلك بسبب افتقاده للبريق الإعلامى أو اللمعان السياسى الذى يحفز الكثيرين على الاهتمام به.

والحدث التاريخى- فى تصورى- كائن حى، له دورة حياة كاملة، ومن ثم فإن محاولة الاقتراب منه أو تناوله بالدراسة تصبح خطرا على الحقيقة، بل واجتراء عليها ما لم يكن قد أكمل دورة حياته وانتصب أمام التاريخ كائنا كامل النمو.

ولقد يبدو مؤلما بالنسبة للبحث الأكاديمى أن يختلط البحث السياسى بالكتابة الإعلامية بالدراسة التاريخية فى كتابات تتناول أحداثا وموضوعات تاريخية لم يكتمل نضجها بعد، ومن ثم فإنها لم تصبح بعد قابلة لأن تكون

محل دراسة تاريخية جادة.

واستجابة لهذا المنطق يثور السؤال.. متى يمكن للباحث أن يقترب من دراسة حياة زعيم سياسى مثل حسن البنا؟ وهل آن الآوان لإخضاع هذه الشخصية الفذة لدراسة متأنية ذات بعد أكاديمى؟

والحقيقة أن الحدث التاريخى يبدو الآن فى شخص حسن البنا وهو فى قمة اكتماله ونموه، ويقف "الإمام الشهيد" فى هذه الآونة بالذات أمام محكمة التاريخ بكل ما له وما عليه.

الرجل الذى استمتع بأكبر قدر من الإجلال وربما التقديس من مئات الآلاف من الأتباع والمريدين، والذى استطاع ببساطته وحلو حديثه وقدرته على تناول الأشياء- كل الأشياء- تناولا وجدانيا صرفا، أن يأسر هذه الألوف وأن يستجمع بين يديه زمامها.. لا يرضى منها ولا تبخل عليه بأقل من الولاء المطلق والطاعة الكاملة فى المنشط والمكرة.

المدرس البسيط، الذى قفز يوما ما على مسرح الأحداث السياسية فى مصر ليلعب- وبشكل مفاجىء- واحدا من أبرز وأغرب الأدوار، وليتلاعب- أو هكذا خيل إليه- بالكثير من القادة والزعماء والقوى- محاولا إيهام الجميع وربما إيهام نفسه بأنه أصبح ممسكا أيضا بزمام هؤلاء قادرا على اللعب معهم والتلاعب بهم باقتدار ودهاء.

الشيخ.. الذى حظى بكل الحب من أتباعه ومريديه، نال الكثير، الكثير من الهجوم من خصومه السياسيين والفكريين.

وشتان ما بين "الإمام" "المرشد" "الرجل القرآنى" "الرجل الربانى" وغيرها من عبارات التبجيل والتقديس وبين "حسن راسبوتين" و"الشيخ الدجال" وغيرها من عبارات التهجم السياسى التى ربما جاوزت الحد حتى بمعايير صحافة وتقاليد العمل السياسى فى الاربعينيات.

الآن..- وليس قبل ذلك- تكتمل دورة الحدث التاريخى، ينضج، يعطى ثمارا، يسترخى فى رحم الحقيقة، مكتسبا عمقه التاريخى، ويصبح بإمكان الباحث أن يقترب منه، وأن يحاول أن يدرسه أو علي الأقل أن يتفهمه.

وبالأمس- ربما منذ بضع سنوات- كان الأمر صعبا، كان من الضرورى للبحث مهما كان أكاديميا أن يختلط بوابل الانتقاد السياسى واللغو الإعلامى، ولعله كان مهددا أيضا بافتقاده لعمقه التاريخى ولامتداده المستقبلى، ولربما تهدده خطر تصور أن دعوة "الشيخ البنا" قد توارت تحت وطأة الضغط السياسي والبوليسى إلى غير رجعة، ولربما وقع الباحث فى مخاطر استصدار أحكام عديدة مبنية على هذا الوهم.

الحدث التاريخى يكتمل، ينشأ، ينمو، يقهر، يخضع، يخطىء، يعود من جديد، وهكذا يمكن للباحث أن يجد سبيله للبحث عن الحقيقة عبر كل هذه المنحنيات، فبغير الغوص فى المنحنيات المتعرجة صعودا وهبوطا، وبغير البحث عن المتناقضات والسير بها ومعها عبر مسارات الصراع والصدام نشاطا وخمودا، بغير هذا تبدو الحقائق مسطحة، وما من حقائق مسطحة، فالحقيقة- خاصة إذا ما كانت متعلقة بعمل سياسى فاعل- لا يمكنها مطلقا أن تكون بغير عمق.. ولا يمكن التوصل إليها عبر خط مباشر يصل بين نقطتين.

والآن.. وجماعة الإخوان المسلمين تعاود نشاطها وتصدر أدبياتها وترفع أعلامها من جديد، تبدو صورة "الإمام المرشد" مكتملة الأبعاد التاريخية. وتبدو مغرية تماما للباحث الأكاديمى كى يحاول الاقتراب منها والتعرف عليها.

كيف؟

ذلك هو السؤال الآخر!

فكيف لمثلى أن يقترب من هذا الموضوع الشائك، فشبهة الخصومة السياسية واردة لا محالة، بل لعلى لا أخفيها.

ولقد يتصور البعض أن واحدا من كتاب اليسار قد قرر أن ينصب مشنقة جديدة للإمام الشهيد، ولقد دفعنى خوفى من مثل هذا التصور الخاطىء إلى التردد فى تناول هذا الموضوع. ولعله دفعنى إلى تأجيل الخوض فيه مرة ومرات. فعندما قررت إصدار سلسلة "قادة العمل السياسى فى مصر" كانت الصورة المكتملة للشيخ البنا كموضوع تاريخى تلمع فى مخيلتى، لكن شبهة التحيز أبعدتنى لبعض الوقت.

وتمضى الأيام... وتحمل معها جديدا فى كل يوم يحفزنى إلى التفكير فى هذا الموضوع.

على الأقل كان يتعين علىّ، وعلى كل مشتغل بالسياسة أو بالفكر أو بالتاريخ، أو كل من يشغل باله وفكره مستقبل مصر وقدرتها على خلق فكر حضارى متطور يليق بنا كآدميين يعيشون الثلث الأخير من القرن العشرين، أقول كان يتعين علىّ أن أمعن فكرى فى ظاهرة "الإخوان المسلمين" وما انبتته فى مصر من تيارات قد تكون امتدادا لها أو تمردا عليها، وفى ظاهرة "التعصب الدينى" الآخذة فى النمو المطرد خلافا لكل قوانين العصر، ولكل منطق متعقل أو عاقل.

على الأقل، كانت تشدنى إلى هذا الموضوع تلك الاتجاهات الجديدة بين الشباب، وجماعات التكفير والهجرة وغيرها، وعلاقة ذلك كله بالدعوة التى وهب الشيخ البنا حياته من أجلها.

من هو؟ وما هى حقيقة أهدافه؟ وما هى مسؤوليته عن كل ما حدث، وعن كل ما يحدث، وعن كل ما سيحدث؟

مرة أخرى كيف؟

كيف يمكن لمثلى أن يقتحم هذا الميدان الصعب، وكل تناول إيجابى سيعد تنازلا فكريا تجاه خصم سياسى وفكرى عنيد، وكل تناول سلبى سيعد قصاصا من خصم فكرى وسياسى أو تحاملا عليه.

ولست أسوق ذلك كله كى أخلى مسؤوليتى تجاه موضوع هو بذاته بالغ التعقيد، فقط أريد للقارىء أن يثق بأننى سأبذل كل جهدى محاولا أن أتلمس طريقى نحو دراسة موضوعية تماما، فأنا نفسى فى أشد الحاجة إلى هذه الموضوعية فى التنقيب والبحث والتقصى، آملا أن أعثر على خيوط تقودنى نحو فهم سليم لهذه الظاهرة.. فهم أنا بحاجة إليه وبحاجة أكثر إلى أن يكون صحيحا ودقيقا وموضوعيا، وإلا اختلت موازين كثيرة فى مواقفى تجاه تيار أعتقد بأهميته، بقدر ما أعتقد بخطورته.

لماذا؟

لماذا إذن يبدو هذا الموضوع ملحاً الآن؟.

قلت أن الموضوع التاريخي كائن حى- أو هكذا أعتقد- فامتدادات الفكر الذى اجتهد الشيخ البنا فى غرسه، تتجدد الآن بصورة ملحة، ولعلها أيضا تتشعب بصورة تقلق أصدقاء الدعوة وأعدائها معا، فهى مع تشعبها تتخذ مسارات متطرفة بل وهوجاء فى أحيان كثيرة، ومن ثم فإن أية محاولة جادة لتفهم الامتدادات الحالية بتشعباتها وشظاياها تصبح مستحيلة بغير إلقاء نظرة فاحصة إلى عمق البئر الذى انزاحت من مياهه كل هذه الموجات جميعا.

وثمة لماذا آخرى تلح كى تفرض نفسها.

لماذا حسن البنا بالذات...؟

لماذا الشخص وليس الجماعة؟

ولست أريد أن أهرب إلى الإجابة السهلة متعللا بأن الكتاب هو مجرد حلقة فى سلسلة من كتب عن قادة العمل السياسى وليس عن الجماعات والأحزاب السياسية.

فالإجابة الحقيقية هى أن حسن البنا لم يكن مجرد منشىء أو مؤسس لجماعة، ولم يكن مجرد قائد لها، وواضع لكل لبناتها، ومحدد لأدق معالم طريقها.. بل كان أكثر من ذلك بكثير بالنسبة للجماعة ولكل فرد من أفرادها.

والأمر يصعب تصويره، فالولاء الصوفى للإمام أو الشيخ يصعب تحديد حجمه ومغزاه كتابة، مهما استطالت الأسطر ومهما استعارت كل المترادفات البلاغية، ويصبح الأمر أكثر تعقيدا عندما يختلط خضوع المريد لشيخه، والتزامه بقسم البيعة، بالطاعة الصماء، التى تهدد الناكص عنها بالخروج- ليس فقط من ثياب عضو الجماعة أو المريد- بل ومن ثياب المسلم أيضا.. عندما يتجمع الوجد والحب والخضوع المطلق والثقة الكاملة ليختلط بالعمل السياسى الملىء بالمناورات والتقلبات.

هنا ترتبك المقاييس ويصبح الريان الدينى- السياسى شخصية فريدة ويصبح اقتلاع ما هو شخصى مما هو جماعى أمرا مستحيلا.

والغريب أن دراسة الجماعة وتاريخها إذا ما انحصرت فى إطار بعيد عن الشيخ تصبح قاصرة وعاجزة عن الوفاء بفهم قد يكون أكثر تكاملا لو أن الأضواء ركزت على الشيخ الذى استجمع بين أنامله كل خيوط الجماعة، واستطاع أن يحركها ويحرك معها قلوب مريديه باقتدار وبراعة.

والرحلة كلها ثلاث وأربعون عاما لا تزيد (١٩٠٦- ١٩٤٩) صعد فيها الشيخ الجبل.. واحتطب لنفسه ولجماعته كل ما تصور أنها، وأنه، بحاجة إليه من زاد، لرحلة تخيل أنها قادرة على تحقيق طموحه، ذلك الطموح الذى لم يكن قاصرا على شخصيته أو جماعته أو حتى وطنه بل امتد ليشمل كل مسلم فى هذا العالم.. فالإسلام عند الشيخ وطن بل لعله الوطن الوحيد.

واحتطب الشيخ كثيرا من النجاحات والنفوذ، وبدأ كأن التيار يسايره ويسير وفق هواه، لكنه احتطب شوكا كثيرا.. وكانت النهاية على يد قوى غامر معها، ولمصلحتها، متصورا أنه يروضها لمصلحة الدعوة، فإذا بها تستخدمه أمدا، وما أن بدت منه بوادر التمرد حتى انهالت عليه بالمطارق.. ثم اغتالته.

الرحلة جد قصيرة، ثلاث وأربعون عاما، لكنها حافلة، وغنية، وتستحق كل لحظاتها أن تدرس بعناية وتأمل.

* * *

وتبقى أدوات الاستفهام تلح على الكاتب.

تبقى متى؟ وكيف؟ ولماذا؟ تثير العديد من موضوعات البحث. الشيخ والجماعة متى نهضا.. كيف حققا كل هذا النجاح؟ ولماذا حققاه ولماذا كان الصعود والهبوط؟

أدوات الاستفهام هذه، هى عذاب الباحث، تحيط به، تمسك بتلابيبه، ترغمه على محاولة الإحاطة بموضوع دراسته، تجنبه التسطيح، تدعوه إلى المزيد من التردد قبل إصدار حكم ما.

ولا حيلة أمام الباحث فأدوات الاستفهام هى سبيله نحو الفهم الصحيح.. وطريقه إلى البحث الجاد، وكلما أشعرته بالضيق من الحاحها كلما قادته للاقتراب من الحقيقة.

ولعلها أرقتنى كثيرا فى هذا الموضوع بالذات. ولعلى أكون قد أشبعت فضولها.

الفصل الأول

الصبى ... شيخاً

فى السنوات الأولى من القرن العشرين، كانت مصر تتثاءب، وتوشك أن تتنفس بعد مأساة هزيمة العرابيين، وباختصار.. كانت مصر تجد نفسها، تحقق ذاتها، أو على الأقل تجد القدرة لكى تقرر ذلك.

وهكذا شهد مطلع القرن العشرين تحركا حضاريا عارما، حاول أصحابه- كل فى مجاله- أن يوقظ قطعة من الأمل فى وجدان هذا الشعب.

فالأحزاب السياسية- بمختلف اتجاهاتها- تتوالد سريعا، وبكثرة: حزب الأمة، حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية، الحزب الوطنى، الحزب الوطنى الحر، حزب المقاصد المشتركة.. الخ.

والصحافة تكاثرت وتنوعت، والمسرح شهد هو الآخر ازدهارا، والتعليم ارتبط فى وجدان مصر بطموحها نحو الاستقلال، فنهضت القوى الوطنية بحركة تأسيس "الجامعة الأهلية" وبحركة التعليم الليلى والحرفى.

والتنوير كمعركة، وكطموح.. كان هو أيضا سبيلا أساسيا من سبل إيقاظ

مصر، وبدأت عبارات مثل: حرية الفكر، حرية التعبير والاعتقاد، ترد على اللسان المصرى، ربما فى تردد لكنها كانت ترد على أية حال.. ولعل شبلى شميل، وهو واحد من رواد معركة التنوير- قد لخص طبيعة هذه المعركة فى عبارة واحدة، موجزة قاطعة.. "الحقيقة أن تقال، لا أن تُعلم".

فالكثيرون يعرفون كيف يتلمسون طريقهم نحو الحقيقة لكنهم لا يعرفون كيف يفتحون فمهم بها، خشية المجابهة مع القوى الرجعية، وهى كثيرة وذات نفوذ.

وكانت مصر بحاجة إلى "هزة" عنيفة كى تستيقظ، وتخلع عن عينيها غشاوة الهزيمة والاستسلام اليائس، ثم تنهض وتمضى من جديد.

وتقدم الكثيرون من المفكرين يحاولون الإسهام فى إحداث "الهزة" فى الوجدان المصرى. يقول شبلى شميل تعقيبا على الضوضاء الفكرية التى تلت صدور كتابه "فلسفة النشوء والارتقاء": "فهذه الرجة التى حصلت اليوم هى المقصودة منى فى ذلك الحين، لإيقاظ الأفكار من نومها العميق، والحركة مهما كانت خير من السكون"(١).

ولم يكن ذلك الرعيل من رواد حركة التنوير بواهم أو بمبالغ فى قدراته أو فى قدرات مصر ذلك الحين، لكن هذه "الرجة" فى الأفكار كانت ضرورية، هكذا يؤكد شبلى شميل "فما كنت أطمع بأن أرد الناس إلىّ فى هذا الزمن القصير، وأنا لا أجهل ما يحول دون ذلك من الصعوبات، بل أنى قصدت مباغتة الأفكار للفتها إلى غير مألوفها. وإن كنت لا أجهل أن إلقاء حجر فى المستنقعات الراكدة لا يقلق الضفادع المطمئنة.. إلا أنى لا أجهل أيضا فعل العجين المخمر، فإن أقل ما يعلق بالعقول حينئذ من أثر الأفكار المخالفة ينمو فيها غالبا بسرعة الاختمار نفسه خصوصا إذا صادف استعدادا فى النفوس كامنا فيها لكثرة البواعث الضاغطة عليه" (٢).

... وهكذا كان.

وإذ كان الحوار الفكري بين المتعلمين أو مدعى العلم لا يزال منحصرا تماما في مجادلات سفسطائية تجاوزها الزمن من نوع "هل الأرض كروية؟... وهل تدور؟" يكتب يعقوب صروف فى المقتطف قائلا: "أن موضع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس صار أشهر من نار على علم وأوضح من الصبح لذى عينين، وتحققت صحته لكل ذى عقل سليم يطالع ويفهم" (٣). لكن الدنيا تقوم لهذه الكلمات ولا تقعد.. فقد تصدى له رجال الدين معلنين تكفيره ومروقه، وخاضوا ضده معارك قلمية وخطابية، وجذبت هذه المعركة الكثير من الأطراف، حاول بعضها دحض العلوم الحديثة أصلا باعتبارها "كفر وبهتان"، وتبلور فى المقابل تيار من المتعلمين أمثال عبد الله باشا فكرى ومصطفى باشا رياض وعبدالله أبو السعود يحاول أن يدفع هذه الهجمة عن العلوم الحديثة، ووجدوا أن السبيل الوحيد، لذلك- كما يقول الأستاذ محمد عبد الغنى حسن- هو "إحكام المناورة لتأييد قضية الموافقة بين العلم والدين حتى لا يتعطل- بحركة المحافظين- سير العلم الطبيعى وتقدمه فى البلاد العربية التى كانت ولا تزال فى أشد الحاجة إليه" (٤).

.. وبينما "المحافظون" يشددون النكير على العلم الحديث وعلى حركة التنوير، و"المعتدلون" يلجأون إلى المناورة، إذا بفارس يقتحم الميدان شاهرا سيفه، ليقلب المائدة على الجميع.. طارحا للنقاش موضوعا جديدا تماما لعل مجرد ذكره كان كافيا لأن يثير القشعريرة فى أبدان المتزمتين والمعتدلين على السواء: "نظرية النشوء والارتقاء".

وربما كان شبلى محقا عندما أكد أن الأمر يحتاج إلى "رجة" فى الأذهان والعقول، لكن الشجاعة الحقيقية تكمن فى أن يتصدى هو لتحقيق هذه "الرجة" مقدما نفسه للقارىء قائلا "إليك أكتب أيها القارىء العاقل، العاقل

المتأمل، وما أطلب منك علما واسعا وفلسفة بديعة وحكمة عميقة، بل أطلب منك عقلا حلت قيوده، وتفتحت منافذه وأقام التفكير مقام الاعتقاد، والبحث مقام المقرر، يقدر مستنتجات العلم قدرها، ولا يبخس مستنبطات العقل حقها" (٥).

وعندما يصدر شميل كتابه "نظرية النشوء والارتقاء" يشهق الجميع فزعا من كتاب طبع منه خمسمائة نسخة فقط.. وتتركز هجمات الجميع، المحافظون والمعتدلون معا، ضد المؤلف الذى استمر مصمما على مواصلة إقلاق ساكنى مياه المستنقعات الراكدة، لكن شميل يرد عليهم فى هدوء "لست أخشى تخطئة الناس لى إذا كنت أعرفنى مصيبا: ولا يسرنى تصويبهم لى إذا كنت أعرفنى مخطئا" بل هو يواصل تحديه مؤكدا أن الأمر ليس مجرد طرح نظرية عن التطور ولكن "القول بمذهب النشوء يستلزم بالضرورة القول بمادية الكون" (٦).

... ومرة ثانية يشهق المحافظون والمعتدلون فزعا.

وتحدث "الرجة" المطلوبة، ويواكبها مفكرون كثيرون: فرح أنطون فى مجلة "الجامعة"، سلامة موسى بجهوده المتعددة الجوانب، مصطفى حسنين المنصورى بكتاباته المستنيرة عن الاشتراكية.. وغيرهم.

والهدف واضح.. أن يشرق على مصر مطلع القرن العشرين عصر تنوير جديد. أن تقال "الحقيقة"، أن يقف المفكر والعالم والمثقف والكاتب من الحضارة والمجتمع والفلسفات والتقاليد موقفا انتقاديا دون أن يتحسس رقبته مع كل كلمة يقولها.

ويتصدى البعض من رجال الدين لحركة التنوير هذه.. وتشهد مصر حركة إرهاب فكرى مخيفة، تناثرت فيها الاتهامات بالكفر والإلحاد، وأصبح التكفير هو السلاح الأساسى لإرهاب كل من يفتح فمه بكلمة جديدة، أو

يحاول ذلك، ثم تتصاعد الحملة الشرسة لتصل إلى أسوأ مراحلها عندما تنتهز فرصة أن بعض دعاة حركة التنوير كانوا أقباطا (سلامة موسى) أو مسيحيين شواما (شبلى شميل- فرح أنطون- نقولا الحداد) لتلجأ- وبإيعاز من الحاكم الماكر كرومر- إلى شعارات الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط من ناحية وبين المسلمين والمسيحيين الشوام من ناحية أخرى.

وتعود مصر لتسمع أصواتا خانقة تتبادل الهجوم على الأديان، والطعن على معتنقيها.

وتوشك إرهاصة التنوير أن تختنق، وأن تقع فريسة للمخطط الاحتلالى الرجعى، عندما تتصاعد حملات الهجوم الدينى المتبادل إثر اغتيال الوردانى لبطرس غالى باشا، ويحاول المتعصبون تحويل الأمر من مجرد قيام وطنى يسلك مسلك الإرهاب باغتيال رئيس للوزراء يسلك مسلك الخيانة، إلى قيام مسلم بقتل قبطى.

وينفخ بعض رجال الدين من المسلمين والأقباط معا فى نيران الفتنة، فهم المستفيدون أولا وأخيرا، والضحية أولا وأخيرا هى معركة "التنوير" التى كانوا يخشونها خشية الموت. وفى مجابهة الخطر يتقدم دعاة التنوير خطوة فى الهجوم، وكتب شميل "فنرى مما تقدم أن الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية فى سبيل العمران، بل رجال الدين أنفسهم" (٧). ويمضى شميل فى هجومه عنيفا "ولكن الأديان تتحول من النفع العام حتى تصير وسائل للكسب فى يد أولئك الذين اتخذوها تجارة لجذب الدنيا ولو بالقضاء على الإنسان"، ويركز عنفه ضد "رؤساء الأديان من كل دين وملة، الذين علموا الناس حتى اليوم غير ما تأمرهم به الأديان وكم قاموا يبيعون دينهم بدانق وفرطوا بمال الأيتام، وكم خدموا به أغراض عتاة حكامهم ليقتسموا معهم، ولو داسوا الدين بالأقدام". والإدانة من جانب شميل موجهة لدعاة الفتنة الطائفية من الجانبين

"يا مقلنسي الجهل ومعممي الضلال أين رأيتم في أديانكم ما يسمح لكم بأن تزرعوا رؤوس أتباعكم الجاهلين ببذور التفريق بين الناس إلى حد التباغض"، بل هو يمضي في هجومه إلى ما هو أشد "فلو قامت الإنسانية في كل الدنيا ونسرت لحم رؤساء الأديان- الذين هم وحدهم المسؤولون عن كل الفظائع التي ارتكبت ولا تزال ترتكب باسم الدين- نسرة نسرة لما وفت حق الانتقام لما جنوه اليوم على الإنسان" (٨).

ولم تكن المعركة معركة شميل وحده، بل معركة تيار متكامل يدعو للتنوير وللعقل.

فهناك كتابات ولي الدين يكن التي سارت على نفس النهج، والتي حظيت بنفس القدر من الهجوم العنيف من رجال الدين.. يقول ولي الدين يكن "أن العامة تحب الشيء إذا حببه إليها زعماؤها، وتبغضه إذا بغضه إليها زعماؤها.. وزعماء العامة عندنا رجال الدين، وهؤلاء لا يرغبهم في الشورى شيء مما هم منقطعون إليه.. فهم يحبون أن يظلوا محتكمين على الرقاب، وأن يبقوا عيالا على الأمة، وأن يلثم الناس أيديهم ويملأوا أكياسهم" (٩).

وعندما يتعرض الشيخ جميل الزهاوي لاضطهاد حاكم العراق لأنه دعا إلى تحرير المرأة ونزع حجابها، يكتب ولي الدين يكن.. "وبعد فيا أيها المسلمون.. أنا مسلم مثلكم.. يحزنني خسرانكم، ويشركني معكم مصرعكم أن هؤلاء الرجال الذين أثقلت هاماتهم العمائم أكثرهم لا يعقلون.. كان السلطان عبد الحميد يقتل الناس وينفيهم وينهب الخزائن.. وكل هذا حرام في دينكم فما قام في وجهه واحد منهم ناصحا أو رادعا.. ولكنهم اليوم وقد وسعتهم بلاد الحرية يكرهون أن يروا حرا يتكلم، فهم يهاجمون كل من لا يكون من فريقهم.. يملأون الدنيا صخبا وضجة.. يكفرون الساعل والماحط والآكل والشارب، حتى لقد زهدونا بالحياة وهم أشد الناس بها تعلقا، فلا

تجعلوا لهم سلطانا عليكم فيكسبوا من خسرانكم ويسعدوا بشقائكم وأنتم لا تعلمون" (١٠).

ولعل هذه النماذج تكفى لتبين شراسة المعركة وعنفها، ولعلنا لسنا بحاجة إلى أن نوضح أن رجال الدين من الطرفين المسلم والمسيحي قد جاوبوا هذا الهجوم بما هو أعنف وأشد، ولعل الخاسر فى هذه المعركة الضارية كانت حركة التنوير.. ومصر، ولعل الخسارة قد لامست الدين ذاته حيث صمم البعض من رجاله أن يضعوه- اعتسافا- فى مواجهة كل جديد، وكل عقلانى، وكل علمى.

والمشكلة الحقيقية أن دعاة التنوير كانوا يجابهون وهم يخوضون معركتهم هذه سيلا متراكما من الكتابات "السلفية" التى تحيل الدين إلى أساطير تسحق كل ما فى العقل من قدرة على الفهم، وتحبط كل ما فيه من وعى أو علم.

الشيخ محمود الشرقاوى يكتب مستجيرا (١١).. "أى شقاء فكرى وروحى يجده دعاة التقدمية الفكرية فى عالمنا العربى عندما يرون فى بعض الكتب التى يطالعها الناس ويتناقلون ما فيها.. أن "نوحا" بنى سفينة من عظام حيوان يبلغ طوله مسافة ما بين السماء والأرض ويبلغ عرضه مسيرة عام كامل؟ وأى شقاء للروح والعقل أكثر من أن يقرأ دعاة التقدمية فى الفكر الدينى ما يقرؤه الناس فى عالمنا العربى كله، فيجدون فى كتاب من كتب التفسير للقرآن الكريم "حديثا" منسوبا لحذيفة، ومرفوعا للنبى عليه الصلاة والسلام يقول: "إن يأجوج ومأجوج أمة ، وكل أمة أربعمائة أمة ، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف رجل ذكر من صلبة كلهم قد حمل السلاح ، وهم من ولد آدم يسيرون فى خراب الأرض.. وهم ثلاثه أصناف : صنف مثل شجره الأرز ، وصنف طوله وعرضه سواء عشرون ومائة ، وهؤلاء

لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد ، وصنف منهم يفرش إحدى أذنيه ويلتحف بالاخري ، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ، ومن مات منهم أكلوه ، مقدمتهم بالشام وساقتهم فى خراسان يشربون آبار الأرض وبحيرة طبريا ، ومنهم من تنبت له مخالب فى أظفارهم ، وأضراسهم كأضراس السباع » (١٢).

ولكنه دين قد أردت صلاحه.. أحاذر أن تقضى عليه العمائم.

وهكذا تخطى ألامر دعاة أحداث «الرجة» فى وجدان ألامة وامتد حتى إلى الشعراء الوادعين المعتدلين .

وعلى أية حال ، فلم تمض سوى سنوات قلائل حتى توجه سهام الرجعيين إلى صدور أزهريين أصلاء يتهمون لمجرد دعوتهم للتجديد والتنوير وإعمال العقل بالالحاد والمروق.. الشيخ على عبد الرازق بسبب كتابه«الإسلام وأصول الحكم» ، والشيخ طه حسين لأنه عنى «بتطبيق منهج الشك الديكارتى على دراستة للادب العربى ، ولم يتردد فى أن يتشكك فى أصالة الشعر الجاهلى ، بل وفى أن ينشر الشكوك حول بعض المسلمات الدينية وذلك فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » الذى أصدره عام ١٩٢٦ » (١٣) . وخرجت مظاهرات الأزهريين الغاضبة تطالب برأس الشيخ و بحرق كتابه، ولعل المظاهرات كانت من العنف بحيث أضطر زعيم مستنير كسعد زغلول أن يتراجع أمامها فيقول فى محاولة لتهدئتها «هبوا أن رجلا مجنونا يهذى فى الطريق فهل يضير العقلاء شىء من ذلك» (١٤).

ولكم كان الأمر قاسيا على طه حسين أن لا يجد الزعيم سبيلا لإنقاذ رأسه من مقصلة المتعصبين إلا الدفع بجنونه.

وهكذا تقف الحركتان وجها لوجه .

وذلك رغم أنه قد ظهر فى الميدان فارس جديد.. يفهم الدين فهما

صحيحا وعميقا ، ويقدر للتنوير أهميته وضرورته، ويحاول أن يمزج بين الإثنين مقدما لمصر صيغه جديدة للانطلاق، ذلك الفارس هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، الذى كان «أبدا داع ألى أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين، فالدين عرف بالعقل ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين وعلى العقل معا حتى يستطيع المسلمون أن يواجهوا الأوضاع الجديدة فى المدينه الحديثة مقتبسين منها مايفيد وينفع، وإذا كان المسلمون لايستطيعون أن يعيشوا فى عزلة فلا بد لهم أن يتسلحوا بما يتسلح به غيرهم وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم» (١٥) .

..وما يهمنا من ذلك كله هو محاولة تقديم جانب من صورة المناخ الفكرى والعقلى الذى نشأ فيه الفتى حسن أحمد عبد الرحمن البنا «الساعاتى» .

وبينما كانت مصر تحاول أن تجد ذاتها.. وإذ ترتفع صيحة «تحيا مصر» وشعار «مصر للمصريين» يكون من الغريب أن يستقبل بعض المتدينين ورجال الدين هذه الصيحة بالنفور والغضب. أذ اعتقدوا أن «المصرية» هى نقيض «الإسلامية»، وأن استقلال مصر هو مجرد مؤامرة ملحدة ضد الباب العالى العثمانى حامى حمى الإسلام والمسلمين.

وحتى فى صفوف الحزب الوطنى أكثر التجمعات المصرية راديكالية كانت مسألة «الخلافة الإسلامية» وتناقضها مع «المصرية» مسألة ملحة.. وفاعلة بل وتوشك أن تقسم الحزب ذاته.

وفى البداية كان مصطفى كامل يؤمل فى المناورة بين السلطان العثمانى والإنجليز محاولا أن يكسب شيئا لوطنه.. وكان يؤكد أنه «ما دامت الدولة العلية قوية سليمة دام أمل المصريين فى الخلاص كبيرا عظيما»(١٦).

لكنه ما لبث أن أدرك وبوضوح أن استقلال مصر يعنى انتزاع حريتها ومقدراتها من الخليفة العثمانى ومن الإنجليز معا، فصاح بأعلى صوته«رمانا

الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا، وما هذه التهمة إلا تصريح بأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيدا أرقاء، فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها»(١٧).

لكن الشيخ عبد العزيز جاويش أحد أقطاب الحزب، ورئيس تحرير مجلته لفترة طويلة، كان يرى رأيا آخر إذ كان يؤكد فى حسم أنه «لا وطنية فى الإسلام» ويتمسك بشعار «الجامعة الإسلامية» وهو اتجاه ينادى بحق الأمة المصرية فى الحرية والدستور والجلاء فى ظل وحدة العالم الإسلامى ممثل فى الدولة العثمانية التى يتعين الحفاظ على وحدتها ومقاومة تمزيقها، فإن فى تمزيقها ضياع الوطن كله»(١٨).

وكان الحزب الوطنى يعانى كثيرا من هذا التمزق.. بل كانت دعوة الشيخ جاويش هذه خليقة بأن تفقد الحزب تأييد عناصر كثيرة(١٩). وكان محمد فريد خليفة مصطفى كامل يقاوم هذه الدعوة وينقدها نقدا شديدا، وهو يشير فى مذكراته الى الشيخ جاويش قائلا: «إن حبه للدولة العثمانية أدى به إلى نسيان مصر ومصالحها، فأصبح يقول أن مصر للمسلمين لا للمصريين وقد وصلت الحالة بالشيخ جاويش الى أن ينصحنى بعدم حمل الدبوس الذى عملناه فى جنيف والمكتوب عليه مصر للمصريين والذى قررنا أن يكون شعار المصريين المخلصين، وقال أن منظره فى صدرى وصدر إخوانى يغيظ العثمانيين، كما تغيظهم محافظتى على قومية مصر»(٢٠)

وفى موضع آخر من مذكراته يقول محمد فريد: «أن جاويش لم يزل يحارب فكرة الوطنية فى الإسلام، وقد قال أخيرا فى برلين لأحمد بك أن يقلع عن فكرة الوطنية أو الجنسية المصرية قائلا أنه لا وطنية فى الإسلام" (٢١)

ولا تبدو أفكار الشيخ جاويش بعيدة عن كلمات كتبها الشيخ حسن البنا بعد قرابة الربع قرن.. "أن كل قطعة أرض ارتفعت فيها راية الإسلام هى وطن لكل مسلم يحتفظ به، ويعمل له، ويجاهد فى سبيله" (٢٢).

وعندما قام كمال أتاتورك بثورته، فإنه لم يهز عرش السلطان الفاسد فحسب، بل هز وجدان الكثيرين ممن تعلقت أبصارهم وآمالهم بالخلافة العثمانية كحصن أول وأخير للمسلمين.

وإذا كان بعض الكتاب قد ألمح إلى أن أنهاء الخلافة العثمانية قد مكن الكثيرين من دعاة التجديد والإصلاح من محاولة تقديم فهم إسلامى إصلاحى، ومكن بعض رجال الدين من مزج "العقيدة الدينية بالفكرة الوطنية، ومن أن يعبروا عن دعوتهم إلى الإصلاح بعبارات أكثر وضوحا وصراحة عن ذى قبل" (٢٣)، وألمح آخر إلى أن أنهيار الخلافة العثمانية "قد دمر الأسس الواقعية والجغرافية للجامعة الإسلامية وشجع النزعات الوطنية والقومية" (٢٤) بل وشجع إلى حد ما ولمرحلة معينة النزعات العلمانية ودفعها إلى السطح (٢٥). فإن انهيار الخلافة قد أوجد لدى البعض نزوعا للعمل الدائب دعوة لها والأمل الذى لا يخبو فى استعادتها.

وقد أحاطت بالدعوة إلى الخلافة شبهات موضوعية تتعلق بطموح الملك فؤاد وحاشيته من شيوخ الأزهر... الأمر الذى دفع أحد كبار شيوخ الأزهر وهو الشيخ الأحمدى الظواهرى إلى أن يقول "لم يكن التمهيد لانعقاد مؤتمر الخلافة بالقاهرة يحضره مندوبون من جميع الأمم الإسلامية أمرا بسيطا هينا كما ظن علماء الأزهر فى بادىء الأمر. فقد امتد زمن الدعوة إليه من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٦.. أما سبب التأخير فيرجع إلى أنه قد دخلت نفوس بعض كبار المسلمين وأمرائهم فى الأمم الإسلامية الآخرى شكوك من جهة مصر، فقد ظنوا أن علماء الأزهر إنما يقصدون من مؤتمر القاهرة الذى يدعون

إليه أمرا آخر له باطن غير ظاهره، وأنهم إنما يثيرون مسألة حماية الخلافة لا خوفا على الخلافة وإشفاقا على كلمة الإسلام كما يدعون بل لغرض آخر فى فؤاد أم موسى هو نقل الخلافة من شاطىء البوسفور إلى شاطىء النيل وضم أريكة الخلافة إلى أريكة الملك فى عابدين" (٢٦).

ويمضى الشيخ الظواهرى "ومن أجل ذلك كانت إجابات دول الإسلام على دعوة علماء الأزهر لعقد مؤتمر فى القاهرة إجابات فاترة، وكان معظمها استفسارا عن مرامى المؤتمر وغاياته، ومن الذى يراد تنصيبه خليفة بدلا من الخليفة المعزول" (٢٧) وينعقد مؤتمر الخلافة ليفشل.. وليقرر المجتمعون أنه ليس بإمكانهم "وهم أقلية بين شعوب الإسلام أن يتخذوا قرارا فى شأن يهم المسلمين جميعا"(٢٨).

وتكون قصة الخلافة سببا فى معركة ضارية خاضها شيوخ أزهريون ضد شيخ أزهرى. ففى إبريل ١٩٢٥ أصدر الشيخ على عبد الرازق القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة كتابه الشهير "الإسلام وأصول الحكم" مؤكدا أن مبدأ فصل الدين عن الدولة يتطابق مع تعاليم القرآن والسنّة، وأن الدين هو فى جوهره روحى خالص ليست له أية علاقة بالسلطة السياسية، كما أنه مجرد من السلطة التنفيذية الزمنية، ويرى أن مبدأ الخلافة لا يرتكز لاعلى .القرآن الذى لم يشر إليه على الأطلاق ولا على إجماع صحابة الرسول، فقد كانت رسالة محمد دينية قبل كل شىء، وظلت بعيدة عن أى شكل من أشكال الحكم وعن أية سلطة تنفيذية (٢٩).

وكان نصيب الشيخ ردا على كتابه هو ما نعرف من كل الاتهامات المقررة على كل داع للتجديد، وهى اتهامات أقلها المروق والكفر والإلحاد.. وقرار من هيئة كبار العلماء "حكمنا نحن شيخ الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالما معنا من هيئة العلماء بإخراج الشيخ على عبد الرازق أحد علماء الأزهر

والقاضى الشرعي.. ومؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم من زمرة العلماء. تعلن الأسباب بعد إعدادها فيما بعد" (٣٠).

.. وتظل فكرة الخلافة حلما يداعب خيالات الكثيرين، ليس فقط ذلك الملك الساذج القابع فى قصر عابدين تحت رعاية المحتلين، ولا من تبعه من شيوخ الأزهر الذين غذوا أحلامه بأن يرث عرش الخلافة المنيع، وإنما أيضا بعض الدعاة المخلصين للإسلامية، والذين تعلقت أبصارهم بفكرة "الخلافة" و"الجامعة الإسلامية" مؤمنين بأن الإسلام بذاته وطن، وأنه لا نجاة للمسلمين بغير خليفة لهم جميعا.

ذلك أن الإسلام كعقيدة هو فى نظر البعض "محتوى سياسى" و"المجتمع الإسلامى هو ذاته الكومنولث الإسلامى (أى مجموعة الشعوب المسلمة)، والأمة الإسلامية هى أيضا تكوين سياسى متكامل" (٣١).

.. وتكون هذه الصراعات- بالضرورة- واحدة من مكونات المناخ الفكرى الذى عاشه الفتى حسن البنا.

* * *

.. وكان هناك أيضا "التبشير" وجماعاته التى تناثرت فى أماكن عديدة من مصر..

.. ولقد قيل عن هذا الموضوع كلام كثير لعل أكثره صحة هو أن التبشير لم يكن أكثر من لعبة استعمارية تستهدف استفزاز المشاعر الإسلامية وحرفها عن مسارات الكفاح الطبيعى لتحرير الوطن، إلى مسارات تستهلك قواها فى صراعات داخلية تبعد القتال عن مساره الطبيعى ضد الاستعمار.

وعلى أية حال فقد حدث "فى نهاية العشرينيات أن استفز النشاط التبشيرى مشاعر المسلمين فى مصر وكان لحوادث الغواية عن الدين ولحوادث نقد الإسلام فى محاضرات بعض المبشرين وكتبهم وقع عنيف" (٣٢).

كذلك فقد تواترت محاولات بعثات التبشير فى "خلق أقليات دينية مصنوعة، واستهدف الاستعمار بذلك أن يحيل الأقلية الدينية إلى رأس رمح يوجه إلى الحركة الشعبية، وأن يثير لدى الأغلبية رد فعل دينيا متطرفا يرتد بها إلى مواقف الرجعية، ويرد الحركة الوطنية ضد الاستعمار إلى حركات طائفية ومتعصبة" (٣٣).

وقد كان..

إذ تتالت ردود الفعل باتجاه طائفى ومتعصب وتوترت مشاعر الكثيرين وضخمت نتائج عمليات التبشير بصورة مبالغ فيها، الأمر الذى يعنى أن الهدف الحقيقى من التبشير قد تحقق، فلسنا نظن أن أحدا من السذاجة بحيث تصور أن التبشير كان خطة عملية أو منطقية تستهدف استقطاب أفراد من المسلمين باتجاه الديانة المسيحية.

فلا التجربة العملية، ولا الواقع الموضوعى، ولا الأرقام الفعلية، لا شىء من ذلك كله يشير مجرد إشارة لأي احتمال لنجاح حملات التبشير من هذه الزاوية.

ولعله من الضرورى أن نؤكد هنا أن غالبية عمليات التبشير كانت بعيدة تماما عن الكنيسة المصرية، وإنما ارتبطت أساسا بجماعات من البروتستانت ذوى العلاقات المشبوهة بالقوى الأجنبية.

وعلى أية حال فقد كانت حملات التبشير وردود فعلها بما يمكن أن يسمى التبشير المضاد من سمات هذه الفترة، ومكونا من فكر قطاعات من المسلمين المتشددين، وإذا كان البعض مثل حزب الوفد وغيره قد فهم أبعاد اللعبة وردها إلى صاحبها الطبيعى وهو الاستعمار ولجأ إلى مقاومتها "وبكفاءة عالية بالدعوة إلى وحدة عنصرى الأمة" (٣٤) فإن البعض الآخر قد اتخذ منها ذريعة للهجوم على المسيحية بما يعمق الخلاف ويوسع الهوة ويخلق المناخ

اللازم للتعصب الدينى.. وهكذا فإن هذا البعض الذى وقع فى وهدة التبشير المضاد، يكون قد حقق- أيا كانت نواياه- مطامح الاستعمار.

* * *

وفى خضم ذلك كله كانت تنمو فكرة التناقض بين الحضارتين الشرقية والغربية، وكان البعض يثير هذا التناقض من منطلق وطنى، والبعض يثيره من منطلق إسلامى.

هكذا "الميكادو" قد علمنا.

أن نجعل الأوطان أما وأبا.

.. أنه فهم التيار الوطنى الذى يرفض "الغرب" ويتطلع شرقا نحو حضارة تحقق الطموح الوطنى من خلال معطيات شرقية، كذلك كانت حركة "مصر الفتاة" تستلهم فى مطلع الثلاثينيات نهضة اليابان كنموذج للنهضة الشرقية المرجوة ومن منطلق معاد للاستعمار عموما.

اما التيارات الإسلامية فقد كانت ترى "الشرقية" كدعوة ذات طابع ومنطلق دينى، يستهدف حشد جهود مسلمى الشرق ضد الدعاوى الغربية ومظاهر الحضارة الغربية.. "كانت الإسلامية بالنسبة للشيخ حسن البنا طريقا للوصول إلى الأمم الآسيوية المسلمة، وكانت تتمثل قول كبلنج "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا" (٣٥).

وكانت "الشرقية" بالنسبة للتيارات الإسلامية مدخلا أو مخرجا يتيح الهجوم على الغرب، وعلى كل ما هو غربى سواء فى ميادين الفكر أو الحضارة أو الثقافة أو غيرها.

وكانت هذه التيارات ترى "أنه لا خلاص للعرب والمسلمين، ولا فرصة أمام الشرق كى يحترم نفسه ما لم يتخلص من كل معطيات الحضارة الغربية، وأن يعتمد على نفسه وعلى رحمة الله الواسعة، وبذلك يمكن للمسلمين أن

يقاوموا الأفكار الغربية لأنهم ليسوا فى حاجة إليها" (٣٦).

ويواكب حسن البنا هذا التيار فيقول: "أن المدنية الغربية التى تتباهى بعلومها والتى استطاعت أن تسيطر على العالم، تعانى الآن من الإفلاس والانهيار ذلك أن أسسها السياسية قد انهارت تحت وطأة الديكتاتورية، وأنظمتها الاقتصادية تتداعى بفعل الأزمة، وكيانها الاجتماعى يتآكل، والناس هناك يسيطر عليهم الطمع والقهر".. ويؤكد حسن البنا "لقد بدأت قيادة العالم شرقية، ثم أصبحت غربية، وها قد حان الحين لينهض الشرق من جديد" (٣٧).

وهكذا تختلط- وربما عن عمد- فكرة (الشرقية) بالإسلامية، كسبيل للهجوم على الغرب من منطلق غير صحى وغير صحيح.. فهو هجوم لا ينبعث من فهم واضح لمعنى الاستعمار، ولا يقود إلى اسلوب محدد لمجابهته.. فالاستعمار هو مجرد "صليبية- أوربية" (٣٨) و"استعمار مسيحى" بل أن كاتبا إسلاميا شهيرا يؤكد أن جوهر الصراع مع الاستعمار هو صراع "صليبى وليس اقتصادى أو مالى أو سياسى" (٣٩).

ومن ثم فإن الهجوم على الغرب قد اتخذ إتجاها غريبا إذ تحول إلى الهجوم على كل من ينهل من ثقافة الغرب وعلومه أو يدعو للتنوير مستفيدا من معطيات حركة التنوير الغربية. وتوجه السهام الحادة إلى شخصيات إسلامية مثل طه حسين والشيخ على عبد الرازق والشيخ خالد محمد خالد متهمة إياهم بأنهم "خضعوا بوعى أو بغير وعى لغواية الثقافة الغربية الاستعمارية" (٤٠).

وهكذا فهمت "الشرقية" على وجهين، واستخدمت كسلاح ذى حدين لكنها كانت وفى ذلك الحين عنصرا فاعلا فى تكوين المناخ الفكرى العام، إلى درجة تمكنها من أن تؤثر بلا شك فى وجدان ومشاعر ومنطلقات شاب سياسى

ومتدين مثل حسن البنا.

* * *

وللسلفية والتجديد قصة تستحق وقفة هى الآخرى.. قصة تركزت حول موضوع الدين وتحديات العصر.

وكانت هذه القضية هى الشغل الشاغل لمصر.. لمجدديها وسلفييها، ثوارها ومعتدليها ورجعييها، وعلمائها ومفكريها ورجال الدين فيها، وذلك طوال الفترة من نهايات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وكانت العلاقة الشائكة والحتمية بين الدين وتحديات العصر تتبلور- فى كثير من الأحيان- فى موضعين.. العدالة الاجتماعية والموقف من العقل ومنجزات العلم الحديث.

والحقيقة أن الإسلام بطبيعته، وبطبيعة الوضع الطبقى لشيوخه قد استطاع أن يجد حلا لمسألة العلاقة بين الدين والعدل الاجتماعى.

كان رفاعة الطهطاوى والأفغانى والكواكبى رواد هذه المعركة على أرض مصر.

الطهطاوى فى كتابه الرائع "مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية" كان يصيح بأعلى صوته "الأرض للزراعيين" ويقول "أن الفضائل جميعا تعود إلى أصل واحد هو العدل العمومى والإنصاف المشترك" (٤١) وهو ينتقد الملاك لأنهم يتمتعون "فى العادة بالمتحصل من العمل، ولا يدفعون نظير العمل الجسيم إلا المقدار اليسير الذى لا يكافىء العمل" (٤٢).

ويأتى بعده الافغانى لترتفع صيحته أكثر فأكثر ولتتخذ ثوبا واضحا تماما "أما الاشتراكية فى الإسلام فهى ملتحمة مع الدين الإسلامى" و"أول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالاسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة"، وهو

يقدم تعريفا شاملا وتقدميا للاشتراكية "فالاشتراكية هي التى ستؤدى حقا مهضوما لأكثرية من الشعب العامل".

وتكون صيحة الشيخ الكواكبى، أعلى هى الآخرى.. "أن النظام الطبيعى فى كل الحيوانات أن النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضا والإنسان يأكل الإنسان، ومن غريزتها أن تلتمس الرزق من الله أى مورده الطبيعى والإنسان حريص على التماسه من أخيه" (٤٣).

ثم أن الكواكبى يمجد العلم والعلوم العقلية "فالمستبد لا يخاف من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وإنما يتلهى بها المتهوسون.. لكن ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم أو سياسة المدنية.. وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم، المبسقة للشموس، المحرقة للرؤوس" (٤٤).

وهو يهاجم الاغنياء فهم "ربائط المستبد يذلهم فيئنون، ويستدرهم فينحنون، ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر أغنياؤها. أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة الذئاب" (٤٥)، وهو يدعو صراحة إلى الاشتراكية باعتبارها "السر كل السر فى نجاح الأمم المتمدنة" (٤٦). ويقول الكواكبى أيضا "أن الداء العام هو الفقر. ومن أعظم أسباب الفقر أن شريعتنا مبنية على أن فى أموال الاغنياء حقا معلوما للبائس والمحروم فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء. لكن الحكومات الإسلامية قد قلبت الموضوع فصارت تجبى الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء، وتحابى بها المسرفين" (٤٧).

وتبقى القضية الأخرى...

ولعل الأفغانى كان رائدا أيضا. فبعد كتابه "الرد على الدهريين" والذى هاجم فيه "النيشتريين" (دعاة الطبيعة) والماديين، والذى اختص فيه نظرية

التطور بهجومه وتهكمه وإدانته قائلا "إذا كان زعم داروين أن الإنسان كان قردا ثم عرض له التنقيح والتهذيب صحيحا.. فعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك" (٤٨). بعد هذا نجده يراجع نفسه في كتابه الآخر "خاطرات جمال الدين".

"فقد سأل الأفغاني عن قول المعري:

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

وهل يقصد ما عناه داروين بنظرية النشوء والارتقاء فقال:

لا أغالى ولا أبالغ إذا قلت: "ليس على سطح الأرض شيء جديد بالجوهر والأصول أما مقصد أبى العلاء فظاهر واضح وليس فيه خفاء، فهو يقصد النشوء والارتقاء. مهتديا بما قاله العرب قبله بهذا المذهب، إذ قال أبو بكر بن بشرون فى رسالته لأبى السمح، عرضا، فى بحث الكيمياء: "أن التراب يستحيل نباتا، والنبات يستحيل حيوانا، وأن أرفع المواليد هو الإنسان (الحيوان). وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها.. وأن أرفع مواليد التراب (ومنه المعادن) النبات، وهو أدنى طبقات الحيوان، سلسلة تنتهى عند الإنسان" (٤٩).

ولعل الأفغانى بموقفه هذا قد تأثر إلى حد ما برسائل أخوان الصفا وبأفكارهم، ولعله لم يكن مطلوبا منه في إطار التحديات المطروحة فى زمانه أن يقدم أكثر مما قدم.

لكن العطاء الحقيقى للأفغانى كان تلميذه محمد عبده. يقول مارسيل كولومب "وليس من السهولة أن نوضح أثر هذين الرائدين (الأفغانى ومحمد عبده) على الجيل الذى تلاهما. ومع ذلك فثمة شيء مؤكد، ذلك أنه عندما تبذل المحاولات لجعل الدين يتوافق مع العلم الحديث، وعندما تتقبل فكرة إعادة النظر فى الشريعة الإسلامية كضرورة حتى تتسق مع مقتضيات

العصر، فلا بد أن ندخل فى اعتبارنا أن الأفغانى ومحمد عبده هما اللذان هيئا النفوس بالتدريج لتقبل مفهوم للدولة وللدين يختلف عن مفهومهما فى القرن السابق" (٥٠).

لكن محمد عبده كان يختلف عن أستاذه فى المسألتين الهامتين العدل الاجتماعى والموقف من العقل والعلم الحديث.

فى المسألة الأولى كان أكثر تخلفا.. وفى الثانية كان أكثر تقدما ولعل السبب واضح.

فالصراع الاجتماعى احتدم عنيفا بعد أن طرد الأفغانى من مصر وصار على كل مفكر أن يختار موقعه الاجتماعى والطبقة التى ينحاز إليها.. وما أصعب أن يختار مثقف برجوازى صغير موقع الدفاع عن الكادحين.

فالشيخ محمد عبده يهاجم التطرف لدى الثوار العرابيين، ويلومهم صراحة على انتمائهم للشعب والفقراء. بل هو يؤكد أنه انتقد حكومة رياض ومسلك الخديوى توفيق "لكننى كنت ضد الثورة، كنت أعتقد أنه يكفى جدا أن نحصل على دستور خلال خمس سنوات، وكنت أعارض أسلوب طرد رياض باشا، ومظاهرة عابدين، وكان سليمان باشا أباظة والشريعى باشا يؤيدانى ضد الثورة لكننا كنا جميعا نطالب بالدستور" (٥١).

.. لكن الثورة قامت، ومس لهيبها شغاف قلب كل مصرى، واندفع الفلاحون ينخرطون فى سلك جيش من أصحاب الجلاليب المسلحين بأى شىء وهم يهتفون "الله ينصرك يا عرابى".

ولم يكن أمام الشيخ محمد عبده إلا أن يقف معها محاولا- قدر الإمكان- أن يحد من ثوريتها.. وفى ١٣ فبراير ١٨٨٢ أقامت جمعية المقاصد الخيرية حفلا كبيرا ابتهاجا بتشكيل وزارة العرابيين برئاسة محمود سامى باشا البارودى، وفى حشد كبير من الأعيان وقف محمد عبده ليحذر

"الثوار" من "ثوريتهم"، وليحذر "الأعيان" من تساهلهم أو تغافلهم تجاه هذه "الثورية".. قال محمد عبده "أنه لم يعهد فى أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم فى ذلك، فكيف حصل فى هذه المرة، ومن أهل هذا المجتمع؟ فهل تغيرت سنّة الله فى الخلق، وانقلب سير العالم الإنسانى؟ أم بلغت فيكم الفضيلة حدا لم يبلغه أحد من العالمين، حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم فى جاهكم ومجدكم وتتساووا بالصعاليك حبا بالعدالة والإنسانية؟ أم تسيرون إلى حيث لا تدرون وتعملون ما لا تعلمون؟" (٥٢).

وبرغم هذا الموقف المتخلف من القضية الاجتماعية فإن محمد عبده يبرز بعد عدة أعوام رائدا من رواد التجديد وداعية من دعاته.

فالعقل والتنوير كانا يصعدان معركتهما، ومنجزات العلم الحديث تفرض نفسها وبإلحاح على حياة المجتمع والأفراد طالبة إجابة صريحة و"فتوى شرعية" فى كل أمر جديد، وكانت فتاوى محمد عبده تتألق دوما باتجاه متقدم.

وهو يبدأ معركته بتجريد رجال الدين من كهنوتهم الذى يحاولون أن يفرضوه على البشر قائلا "ليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف اعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم". والحقيقة أن محمد عبده كان يجابه مهمة صعبة، فمع نهايات القرن التاسع عشر تم وضع مجموعات القوانين الجديدة، التى تغطى مجال المعاملات المدنية كلها ونظام العقوبات وذلك نقلا عن القوانين الفرنسية، وتم إنشاء هيكل قضائى حديث، وانتشر التعليم الحديث أيضا. وهكذا كانت مصر وهى

تقترب من روح العصر.. وتتلامس مع المدنية الحديثة تتمايز فيها شخصيتان، ومؤسستان فى عديد من المجالات الهامة، مؤسستان للقضاء ومؤسستان للتعليم.. الخ "مما فصل عن الأزهر أهم جانب من جوانب وظيفته الاجتماعية".. "ومع نهايات القرن التاسع عشر وضح الصدع أمام المبصرين وغير المبصرين جميعا.. وتم صدع مماثل فى المؤسسات الاجتماعية والمؤسسات الفكرية، وفى البناء الأخلاقى والسلوكى للأفراد. أمام هذه المشكلة قامت دعوة محمد عبده تحاول رتق هذا الفتق الذى يتسع. ويدعو لتفتيح الفكر الإسلامى ليستوعب الحاجات المدنية للمجتمع، وليمكن الفكر الإسلامى من أن يقدم الأساس الأخلاقى والمعنوى بهذه الحياة المتطورة. وكانت وسيلته إلى ذلك الدعوة لتطوير الأزهر وتنقيح مناهج التعليم فيه، وفتح باب الاجتهاد" (٥٣).

لكن الأزهر وقف من حركة محمد عبده موقف الرفض، بينما تلقفها التيار العقلانى وتمسك بها فى مواجهة دعاة التقليد، وهكذا ازدادت الهوة اتساعا بين حركة التجديد.. وبين الأزهر.

والحقيقة أن محمد عبده قد استفاد كثيرا جدا من إقامته فى أوربا لفترة من الوقت، ولعل هذه الإقامة لم تكسبه استنارة وسعة أفق، ورغبة نهمة فى الدفاع عن العقل والعلم فحسب، وإنما قدمت أمام عينيه نمطا من السلوكيات ونموذجا للحياة يختلف اختلافا جذريا عما يراه فى أرض وطنه، ولعل ذلك هو الذى دفعه إلى الإعراب عن دهشته لأن "الكفرة يتصرفون كمسلمين بينما يتصرف المسلمون وكأنهم كفرة" (٥٤).

ولعل هذا الموقف يتضح أيضا من إعجابه الشديد بالفيلسوف الروسى تولستوى.. فعندما كان محمد عبده مفتيا للديار المصرية كتب إلى تولستوى يقول "أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى: لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكننا

لم نحرم التعارف بروحك. سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك.. فكما كنت بقولك هاديا للعقول، حاثا بعلمك للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون، كان مثالك فى العمل إماما يقتدى به المرشدون" (٥٥).

هكذا يتكلم مفتى الديار المصرية مع مفكر هو على أية حال غير مسلم بل ومتهم من كنيسته بالإلحاد.. وهكذا كان تقديره لحضارة الغرب وللأفكار الجديدة فيه. ولقد كان المنطلق الاساسى لمحمد عبده هو تصميمه على "أن الاسلام لم يتعارض ولا يمكن أن يتعارض مع العلم. فالعلم مثله مثل العقيدة يكشف للناس أسرار الطبيعة" (٥٦).

وبينما كان "السلفيون" وظلوا حتى ما بعد زمن محمد عبده بكثير يتنكرون للحضارة الغربية والثقافة الغربية كان محمد عبده يرى أن مفتاح التقدم هو تبنى العلوم الغربية والثقافة. وقد أكد محمد عبده فى أحد مقالاته المبكرة "أن سر تفوق أوربا يكمن فى تفوقها فى مضمار البحث العلمى، وإلى تقدم نظم التعليم فيها" (٥٧).

وبعد أن يؤكد محمد عبده على ضرورة التلامس مع الفكر الغربى الحديث، يخطو خطوة جديدة شائكة، لكنها حاسمة فهو يدعو إلى تحديث الفكر الإسلامى، فقد كان يرى أن الإسلام لا يمكن أن يرسخ أقدامه عبر الأزمان إذا ما استمر معتمدا على "التقليد". وكم هاجم محمد عبده دعاة التقليد وكم أكد "أنه بدون استخدام العقل سوف يتعذر على المسلمين إحراز أى تقدم أو تطور" (٥٨) وذلك فى الوقت الذى كان يعانى فيه الأخرون من "عقدة" الخوف والرفض لكل ما هو قادم من الغرب، ولكل ما هو إعمال للعقل، باعتبار أنه تهديد أو إضعاف لنفوذ الإسلام. الأمر الذى أشعرهم بضرورة شن "هجوم مضاد" فتشبثوا بشعار الجامعة الإسلامية، وتهافتوا على

إدانة كل ما هو عقلى وعلمى أو جديد (٥٩).

وفى هذا المناخ يمضى الأستاذ الأمام محمد عبده مفتى الديار المصرية ليصدر سلسلة من الفتاوى الشرعية تحاول أن تيسر على المسلمين مجابهاتهم وتعاملاتهم مع حياة المدينة الحديثة. والحقيقة أن الاستاذ الأمام كان مطالبا بإصدار فتاوى شرعية فى مسائل معقدة مثل "أرباح الأموال المودعة فى البنوك".. و"سعر الفائدة" و"التأمين على الحياة" و"الشركات المساهمة وأرباحها".. وفى مسائل أخرى قد تبدو بسيطة لكنها من فرط بساطتها تلح على المسلم فى كل تعاملاته: "التصوير الفوتوغرافى".. حلال أم حرام؟ واستخدام التليفون والراديو حلال أم حرام؟.. وهكذا وبصدر رحب وبعقل مفتوح مدرك لتبعات المفتى المستنير تجاه عصره حاول محمد عبده أن يقدم إجابات توفق بين تعاليم الإسلام واحتياجات العصر.

وحتى فى المسائل الشديدة التعقيد والتى قد يتحرج شيخ مسلم من البحث عن الجديد تجاهها مثل: المرأة وعلاقاتها بالمجتمع وتحريرها ومسألة الحجاب.. الخ، تروج شائعات قوية عن إسهام الأستاذ الإمام فى اعداد كتاب صديقه الحميم قاسم أمين عن تحرير المرأة.

ويمضى الأستاذ الإمام بعد رحلة مجيدة ليترك تلاميذا يختلفون اختلافا شديدا حول تفسير تعاليمه، ويقول الباحث مجيد خضورى "أن البعض من تلاميذ الإمام قد حاول أن يطور تعاليمه، ويصل بها إلى نهايتها المنطقية، أى أن "ينفى" دور الإسلام كعقيدة تجاه المجتمع ككل، وأن يحصره تجاه الفرد وضميره ووعيه. وكان هذا البعض يرى أن الإسلام عقيدة حية ومن ثم فيتعين لها أن تتطور باستمرار، وأن النهاية الحتمية لهذا التطور هى علمانية المجتمع الإسلامى".

ويمضى خضورى قائلا أن هذه الأراء قد رفضت بشدة من جانب "مريدى

الإمام من المحافظين" وخصوصا هؤلاء الذين كانوا- برغم ولائهم لشيخهم- إلا أنهم "كانوا يرون أنه قد قدم تنازلات غير ضرورية لصالح المدنية والتطور الحديث، وكان على رأس هؤلاء المحافظين المتشددين من أتباع محمد عبده الشيخ رشيد رضا" (٦٠).

وبرغم أن رشيد رضا كان أقرب هؤلاء المريدين إلى قلب الإمام إلا أنه كان أكثرهم حرصا على تفسير تعاليمه تفسيرا محافظا ومتزمتا إلى أبعد الحدود" (٦١).

وهكذا نجد أمامنا ثلاث مدارس.. لا مدرستان فقط.

- التقليديون.. "المحافظون من شيوخ الأزهر".
- المجددون (الشيخ محمد عبده وتلاميذه المستنيرون).
- المجددون المحافظون (الشيخ رشيد رضا وتلاميذه).

وعن هذه المدرسة الآخيرة سنتحدث قليلا.. لأنها ذات علاقة بموضوع بحثنا.

لقد قرر رشيد رضا أن يخوض معركتين لا معركة واحدة، معركة ضد علماء الأزهر الذين كان يريد أن ينتزعهم بعيدا عن نهجهم فى "التقليد" وعن "تعصبهم المذهبى" وأخرى "ضد دعاة التفرنج" وكان رشيد رضا يشير دوما إلى خطورة كلا التيارين.. ويرفضهما معا وبنفس الحدة (٦٢).

وفى كتابه "الخلافة أو الإمامة العظمى" يهاجم الشيوخ "الذين ازوروا إلى زوايا مساجدهم أو حجور بيوتهم" ويتهمهم بأنهم عاجزون عن أداء واجبهم وعن الإبقاء على نقاء أقدس التقاليد وأنبلها، ويهاجم فى نفس الوقت دعاة التفرنج قائلا أنه من الجنون أن نسعى إلى انتزاع مقومات الأمة الإسلامية الدينية والتاريخية، واستبدال مقومات أمة أخرى ومشخصاتها بها" (٦٣).. ورويدا رويدا كان رشيد رضا يتخلى عن تعاليم الإمام، ويبتعد بهجماته

العنيفة ضد دعوة "التجديد" عن معسكر استاذه بل لعله كان يقترب من معسكر خصوم الإمام من دعاة "التقليد". فهو يدعو إلى العودة للمصادر الأولى.. وبالنسبة له فإن العمل والجهد والأمل يتركز فى شىء واحد "الخلافة الإسلامية".. "فهى الحكومة المثلى التى بدونها لا يمكن أن يتحسن حال البشرية" (٦٤). والدولة الإسلامية الأصلية هى فى الواقع خير الدول ليس بالنسبة للمسلمين فحسب ولكن بالنسبة لسائر البشر فهى وسط بين الجمود وبين حضارة الإفرنج المادية التى تفتك بها ميكروبات الفساد وأوبئة الهلاك فهى عرضة للزوال" (٦٥). وهو يبتعد كثيرا عن نهج أستاذه عندما يؤكد أن السيادة المطلقة فى الدولة هى "لأولى الأمر" الذين "أمر الله بطاعتهم" (٦٦).

.. وهكذا تمضى دعوة الاستاذ الإمام على يد تلاميذ يضيقون بتجديده وليبراليته، فيتراجعون بها نحو "التقليد" و"المحافظة"، ويستمر التراجع.. فتلاميذ التلاميذ.. أكثر محافظة، وأكثر تمسكا بضرورة العودة إلى التقليد.

وقد تأثر الشيخ حسن البنا بالأستاذ الإمام، لكنه تأثر أكثر بكثير برشيد رضا.. وبالنسبة لجماعة الأخوان المسلمين كان الأفغانى بمثابة "الأب الروحى" وكان الأخوان يقدمون حسن البنا فى صورة "أفغانى" عصره (٦٧).

وإذا كان أحد الأخوان قد قال أن الأفغانى كان مجرد "مؤذن أو هو مجرد صرخة" وأن رشيد رضا كان مجرد "مؤرخ أو هو مسجل" وأن المرشد كان "بنا" (٦٨)، فإن الشيخ حسن البنا يورد تقديرا محدودا لهؤلاء الرواد جميعا "فالأفغانى كان يرى المشكلات ويحذر منها وكان محمد عبده يعلم ويفكر، ورشيد رضا يكتب أبحاثا"، لكنهم كانوا جميعا فى نظره مجرد "مصلحين دينيين وأخلاقيين" يفتقدون الرؤية الإسلامية الشاملة (٦٩). وربما كان أحد تلاميذ الشيخ البنا أكثر وضوحا فى تقديم هؤلاء الرواد فهو إذ يمايز بين دعوة

محمد عبده ودعوة حسن البنا يقول أن دعوة الأخوان المسلمين تتميز عن غيرها بأنها تعنى الجهاد والنضال والعمل.. وأنها ليست مجرد رسالة فلسفية (٧٠).

ومع ذلك فإنه يتعين علينا ألا ننسى أن الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا والد حسن البنا وأستاذه الأول كان تلميذا من تلاميذ محمد عبده، وأن الطالب حسن البنا كان قارئا مثابرا لمجلة المنار، ولعله مارس على صفحاتها أولى محاولاته فى الكتابة (٧١).

وإذا استمر الشيخ رشيد رضا فى تراجعه عن "التجديد" حتى أصبح متمسكا "بالسلفية" مؤكدا أن "السلف" هم القادرون على فهم المغزى الحقيقى للمبادىء الإسلامية كما أنزلت فى القرآن ووردت فى الحديث (٧٢) فإنه يستحق أكثر من غيره من الرواد- الذين كانوا أكثر منه تألقا- مديح وثناء الشيخ البنا، الذى وصف مجلة المنار بأنها قدمت أجل الخدمات للإسلام فى مصر وغيرها من البلدان (٧٣) والذى تباهى بأن الشيخ رشيد رضا كان على وشك الانضمام لجماعة الأخوان المسلمين قبيل وفاته (٧٤).

.. وهكذا يحدد الشيخ حسن البنا موقفه كامتداد أكثر "سلفية" للتيار "السلفى" بين تلاميذ محمد عبده.

ويلخص ألبرت حورانى الموقف كله فى عبارة تقول "إذا كان التاريخ هو ما تعيه ذاكرة الإنسان عن الماضى، فإن هذا الماضى يظل بالنسبة للبعض أملا يتعين الارتداد إليه، وبالنسبة لبعض المسلمين سيظل العصر الإسلامى الأول صورة وحيدة لما يجب أن يكون عليه العالم" (٧٥).

* * *

وحتى الدين فهمه البعض فهما ميكيافيليا. وحاول وباستمرار استخدامه أداة فى لعبة السياسة والصراع السياسى والاجتماعى.

وثمة عبارة قد تثير القشعريرة فى أبدان البعض أوردها توماس هوبز صاحب "الليفياتان" أو "الوحش" حول هذا الموضوع (أستميح القارىء ليس فقط فى أن أوردها بنصها وإنما فى أن أطلب إليه أن يتذكرها من الآن فصاعدا، وهو يطالع صفحات هذا الكتاب.. فلربما كانت هذه العبارة قادره على تفسير الكثير من المواقف التى قد تبدو- فى إطار حسن النية- غير مبررة وغير منطقية). يقول توماس هوبز "الدين هو مجرد مانعة للصواعق الاجتماعية.. والكنيسة قوة أخرى من قوات الأمن التى تستخدمها الدولة لحفظ الاستقرار الاجتماعى، لا تختلف عن البوليس والجيش فى طبيعتها، ولكنها أفعل منهما أثرا وأوسع مدى، وربما أقل تكلفة. إنها تقيم على كل إنسان شرطيا ملازما له داخله" (٧٦).

ولقد نختلف حول تفسير معطيات هذه العبارة، ولقد نرفضها رفضا قاطعا، لكنه يتعين علينا أن نستبقيها فى ذاكرتنا لتفسير مواقف الكثير من القوى الرجعية تجاه الدين، ومحاولاتها استخدامه واستخدام بعض رجاله ومنظماته كأدوات فى صراعها الاجتماعى.

وهكذا كان الأمر فى مصر منذ مطلع القرن العشرين.. استمرت المحاولات من جانب الاحتلال البريطانى تارة.. والقصر الملكى تارة آخرى، ثم أحزاب الأقليات- عندما نشأت- مرة ثالثة لاستقطاب القوى الدينية واستخدامها أداة "أقل تكلفة" من البوليس فى إحكام قبضتها على الإنسان المؤمن.. وإقامة "شرطى ملازم له من داخله" يعمل دوما على إخضاعه لصالحها فى كل مواقف الصراع السياسى والاجتماعى.

والأزهر قلعة الإسلام المكينة، ورمزه الشامخ فى العالم أجمع كان لا بد له أن يكون محطا لمؤمرات هذه القوى واغراءاتها، وهدفا لاستقطابه فى خضم هذه الصراعات.

وقد حرص فؤاد منذ أن كان سلطانا على أن يحكم قبضته على الأزهر وعندما كانت لجنة الثلاثين تصوغ دستور ١٩٢٣ كانت عين فؤاد مركزة أساسا على موضوع العلاقة بين الملك وبين أهم مؤسستين فى ذلك الحين وهما: الأزهر والجيش.

وأتت نصوص المشروع الأول للدستور خالية من أية إشارة لسلطات الملك تجاه الأزهر الأمر الذى يعنى أن لجنة الدستور لم تر منح الملك اية سلطات استثنائية تجاه الأزهر بل جعلت الإشراف عليه مثله مثل غيره من المؤسسات للوزارة المسؤولة أمام البرلمان (٧٧).. لكن مشروع لجنة الثلاثين قد خضع لتعديلات كثيرة، وبعد صراع مرير أسفرت المعركة عن نص يُحال إلى قانون يصدر فيما بعد لينظم "الطريقة التى يباشر بها الملك سلطته.. فيما يختص بالمعاهد الدينية وتعيين الرؤساء الدينيين وبالأوقاف التي تديرها وزارة الاوقاف، وعلى العموم المسائل الخاصة بالأديان المسموح بها فى البلاد" (٧٨)، "وإذا لم توضع أحكام تشريعية تستمر مباشرة هذه السلطة طبقا للقواعد والعادات المعمول بها الآن" (٧٩)، وهكذا "استخلص الملك بهذا النص اعترافا دستوريا بأن له سلطة خاصة فيما يتعلق بمسائل الاديان وإقرارا دستوريا ببقاء الوضع الراهن حتى يصدر قانون جديد ينظم هذه السلطة.

ويعترف الشيخ الظواهري- الذى عينه فؤاد شيخا للأزهر- بأن الملك فؤاد "كان حريصا على أن يعرف كل شيء عن الأزهر والمعاهد الدينية، فقد كان جلالته يعتبر هذه الناحية من الأمور المصرية الناحية الخاصة به يديرها جلالته بدون وساطة أحد وزرائه" (٨٠).

ولقد رأينا فى صفحات سابقة كيف حاول فؤاد استخدام الأزهر فى مسألة الخلافة، والآن نرى كيف حاول استخدامه أيضا فى مسائل الصراع السياسى.. وبالذات فى خصومته ضد سعد زغلول الزعيم المحبوب من شعبه

والذى كان من المستحيل مقاومة مثل هذا النفوذ الذى يتمتع به بغير استقطاب مؤسسة كالأزهر.

وقد بدأت محاولات السراى باستقطاب عدد من شيوخ الأزهر.. ثم فى تبنى بعض مطالب الأزهريين وإظهار حكومة سعد بمظهر الرافض لها.. وتطور الأمر إلى مطالبة بعض شيوخ الأزهر بما أسموه رفع الوساطة بين الملك وشيوخ الأزهر "كما لا وساطة بين جلالة الملك وبين رئيس الوزراء، أذ لا يليق فى عهد جلالتكم الميمون أن يحال بين وبين كبير رجال الدين كبير رجال الدنيا" (٨١)، وفى ٥ نوفمبر ١٩٢٤ تبرز ظاهرة جديدة.. مظاهرة من طلاب الأزهر تتوجه لاستقبال الملك فؤاد لدى عودته من مصيفه بالاسكندرية وهى تهتف "يسقط سعد زغلول" "لا رئيس إلا الملك". وتستمر هذه الظاهرة يشجعها الملك وبوليسه والشيوخ من أصدقاء السراى.

وتزخر ملفات البوليس السياسى بتقارير وافية عن هذه المحاولات، ولنورد واحدا منها كنموذج:

محافظة القاهرة.

إدارة الضبط فرع "ب"

الموضوع: تقرير عن حالة الأزهر الشريف يوم ٤ فبراير ١٩٢٧ (نمرة ١٩٠ سياسى سرى)

مطلوب رد

حضرة صاحب المعالى كبير الأمناء لحضرة صاحب الجلالة الملك:

أتشرف بإخبار معاليكم أنه كان بالأزهر أمس عدد كبير جدا لمناسبة صلاة الجمعة. فألقيت فيه الخطب الكثيرة طول النهار وفى الليل أيضا، وقد كانوا يصيحون بالنداءات الآتية من وقت لآخر "يحيا جلالة الملك- يحيا حسن نشأت باشا- يسقط البرلمان والحكومة وسعد باشا".

وقد كان البوليس مرابطا على بعد من الجامع الأزهر، ولم تحصل مظاهرات ولم تقع حوادث.

وهذا لمعاليكم للمعلومية.

وتفضلوا معاليكم بقبول فائق الاحترام.

تحريرا فى ٥ فبراير ١٩٢٧- حكمدار بوليس مصر" (٨٢)

ويعقب د. عبد العظيم رمضان على هذه العلاقة قائلا: "استمرت علاقة التحالف بين القصر والأزهر طوال عهد الملك فؤاد وحتى نهاية حياته. ونظرا لأن القصر كان على علاقة تحالف أخرى مع الإنجليز، فلم يكن هناك مفر من أن يتأثر الأزهر بهذه العلاقة أيضا. وحين اتجهت السياسة البريطانية فى ربيع ١٩٣٥ تحت ضغط الحركة الوطنية إلى تقديم بعض الترضيات للجماهير المصرية، فرضت على الملك إخراج الشيخ الظواهرى من منصب شيخ الأزهر وتعيين الشيخ محمد مصطفى المراغى مكانه ولم يجد مفرا من إجابة الطلب، وكان الشيخ مصطفى المراغى على صلة بالسلطات البريطانية منذ أن كان موظفا كبيرا فى السودان، وعندما نقل إلى مصر اتصل باللورد جورج لويد المندوب السامى البريطانى، وأصبح على علاقة وطيدة معه، إلى حد أنه لم يكن يمضى أسبوع دون أن يكون الشيخ مدعوا أو زائرا فى دار المندوب السامى، كما حكى محمد شفيق رئيس القسم العربى بدار المندوب السامى" (٨٣).

وهكذا امتد التدخل فى شؤون الأزهر وفى أمور الدين.. من الملك العاجز، إلى أحزاب الأقليات الفاشلة، إلى الإنجليز المحتلين.

فقط.. لنتذكر الأسطر السابقة ونحن نتابع فى صفحات قادمة علاقات الشيخ حسن البنا بالقصر، وبالشيخ المراغى.. ونتابع مواقفه المتشددة تجاه الوفد والمتساهلة بل والصديقة تجاه أحزاب الأقلية.

هل اللعبة تتكرر؟

لسنا نريد إجابة سريعة، فلننتظر تسلسل الأحداث، ولنترك للاستقصاء العلمى وليس للعاطفة الحكم والقرار.

* * *

.. وهكذا يكون المسرح معدا كى يظهر "البطل".

فبغير الصفحات السابقة يكون الحديث عن الشيخ حسن البنا حديثا علميا وموضوعيا أمرا مستحيلا.. ولقد يتصور البعض.. بل وحاولوا كثيرا استخدام أسلوب السيرة الذاتية البحتة فى التعريف بالقادة السياسيين ومنهم حسن البنا، ونعتقد أن هذا وإن كان أيسر السبل إلا أنه أكثرها بعدا عن الأسلوب العلمى للتاريخ.

فعملية التأريخ لقائد سياسى ليست ممكنة بغير تقديم "بانوراما" واسعة وعميقة للمكونات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لشخصيته ومنهجه وسلوكه.

من هو إذن حسن البنا؟

لقد تكلمنا عن الصراعات الدائرة فى تلك الفترة:

× الصراع بين العلم وحركة التنوير عامة وبين القوى المحافظة.

× الصراع بين الوطنية المصرية وبين دعاة الخلافة الإسلامية.

× التبشير.. والتبشير المضاد.

× التناقض بين دعاة الحضارة الغربية والمتوسطية وبين رافضيها.

× الصدام بين "التجديد" و "التقليد".

× دور الدين ومؤسساته فى لعبة السياسة.

من هذه الصراعات والتناقضات وفى خضمها نبتت شخصية حسن البنا وتفاعلت واتخذت مواقفها.. ولهذا فإنه بغير بحثنا عن هذه الصراعات يوشك

الحديث عن حسن البنا أن يكون مسطحا وبغير عمق وأن يكون مجرد سرد لسيرة ذاتية معزولة عن أحداث مجتمعها.

وباختصار.. لقد كانت الصفحات السابقة حديثا فى صلب موضوعنا وليست مقدمة له.. ولا يبقى أمامنا كى نتعرف تعرفا مبدئيا على الرجل سوى قليل من الكلمات عنه (٨٤).

× الاسم: حسن أحمد عبد الرحمن البنا "الساعاتى".

× تاريخ الميلاد: أكتوبر ١٩٠٦.

× محل الميلاد: المحمودية بحيرة.

× مهنة الوالد: مأذون الناحية وإمام مسجد القرية، وقد مارس أيضا مهنة إصلاح الساعات ومن هنا كان لقب "الساعاتى".

وكان الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا واحدا من طلاب الأزهر على زمن الإمام محمد عبده وهو واحد من الأزهريين الذين واصلوا طوال حياتهم الدراسة والبحث فى كتب الفقه.

وقد أنجب الشيخ أحمد خمسة أبناء أكبرهم "حسن" الذى حرص أبوه فيما بعد أن يؤكد أن مولده وطفولته قد أحاطت بهما هالات من الخوارق والكرامات. وعندما بلغ الطفل الثامنة من عمره دفع به أبوه إلى كُتّاب القرية حيث تتلمذ على يد أزهرى شديد التدين هو الشيخ محمد زهران.

ويحاول الوالد- بعد وفاة ابنه.. أن يضيف إلى الصورة الباهرة له فى أذهان مريديه مزيدا من التفاصيل.. فالطفل ابن الثامنة ينزعج من منظر تمثال لامرأة شبه عارية فوق أحد زوارق النهر فى قريته فيلجأ للبوليس ويصمم على إزالة التمثال وينجح فيما أراد (٨٥).

ومن الكتاب إلى المدرسة الابتدائية فى سن الثانية عشرة، وهناك التقى بمدرس متدين آخر ضمه إلى جماعة بالمدرسة اسمها "جماعة السلوك

الاجتماعى" وهى جماعة استهدفت ترويض نفوس أعضائها من التلاميذ وإلزامهم بالتحلى بالأخلاق الحميدة فى سلوكهم اليومى والتعفف عن الشتائم أو مخالفة تعاليم الدين، وكانت الغرامات المالية المرهقة بالنسبة لتلاميذ فقراء هى سلاح الإرغام فى يد الجماعة.

وسرعان ما أصبح الفتى المتدين ابن الشيخ المتدين تلميذ معلم الكتاب المتدين رئيسا للجماعة، وسرعان ما اكتشف أيضا ضعف منطلقات الجماعة فأسس مع عدد من زملائه الأكثر حماسا "جماعة النهى عن المنكر" وكان هدفها فرض الالتزام بتعاليم الدين من خلال توجيه خطابات تهديد إلى من ترى أنهم من بين سكان المدينة- لا يلتزمون بهذه التعاليم.

وسريعا تأتى الخطوة التالية.. فمن جماعة النهى عن المنكر، إلى جماعة اسمها "أخوان الحصافية".. وهكذا أصبح الفتى التلميذ بالمدرسة الابتدائية "صوفيا" يحضر حلقات الذكر ويهتز فى صفوفها مع رجال أكبر منه سنا بكثير. لكنه يلتقى فى حلقات الذكر بتلميذ صغير السن مثله هو أحمد السكرى، ولعل التلميذين على حداثة سنهما وجدا أن "التطوح" فى حلقات الذكر لا يكفى وأنه من الضرورى القيام بعمل ما للحفاظ على تعاليم الدين ولمقاومة النشاط التبشيرى الذى هبط إلى المدينة الصغيرة فأثار كثيرا من المشاعر فيها.. وهكذا أسس التلميذان مع زمرة من زملائهما جمعية جديدة اسمها "جمعية الحصافية" ظلت تعتبر نفسها فرعا من الجماعة الصوفية الكبيرة لكنها تتميز عنها "بالعمل الجدى" للحفاظ على تعاليم الدين، وعلى مقاومة البعثات التبشيرية.. وأصبح "حسن" سكرتيرا للجمعية، وكان لم يزل فى الثالثة عشرة من عمره.

عام واحد أو عامان- إذن- قفز فيهما الفتى الصغير من "جماعة السلوك الأخلاقى" إلى "النهى عن المنكر" إلى حلقات الذكر الحصافية.. إلى "العمل

الجاد" دفاعا عن الإسلام.

عام آخر.. ويلتحق الفتى ابن الرابعة عشر بمدرسة المعلمين الأولية فى دمنهور حيث ينغمس أكثر فأكثر فى النشاط الدينى وفى حلقات الذكر للحصافيين الأمر الذى يمكنه فى عام ١٩٢٢ من أن يصبح عضوا عاملا فى صفوفهم.. ويبلغ به الحماس إلى درجة ارتدائه لبعض الوقت العباءة البيضاء والعمامة ذات الذؤابة.. ويبدأ فى دراسة كتب الفقه الإسلامى، وفى هذه الأيام يصطدم الفتى بكتاب أبو حامد الغزالى "إحياء علوم الدين" ويصطدم بما يقوله الغزالى من أن التعليم يجب أن يقتصر على ما هو ضرورى "لتحقيق الواجبات الدينية واكتساب الرزق" ويتساءل الفتى فى حيرة عن مدى فائدة استمراره فى الدراسة بمدرسة المعلمين الأولية.. وبعد تردد واصل الفتى دراسته فى المعلمين الأولية حتى تركها فى عام ١٩٢٣ ليلتحق بدار العلوم.

وهكذا يصل الفتى.. الحصافى الانتماء.. الريفى النزعة إلى قاهرة العشرينيات (٨٦). التى كانت تموج بصراعات حزبية مريرة وبتيارات علمانية عارمة وباتجاه قوى نحو المدنية الحديثة.. وفى أثناء ذلك كانت الثورة الكمالية تلهم الليبراليين ودعاة التجديد المزيد من الشجاعة، والمحافظين ودعاة الخلافة المزيد من السخط والتشدد.. وتلفت الفتى حوله بعين متشكك يرى فى كل ما حوله "إضعافا لشأن الدين" (٨٧) وفى هذا الخضم العارم ومنه جفل الفتى وزملاؤه.. "والله وحده يعلم كم أمضينا من ليال لبحث حال الأمة، نحلل العلة ونفكر فى وسائل العلاج الممكنة ولقد بلغ بنا القلق درجة وصلنا معها إلى حد البكاء"(٨٨). ولا ملاذ لفتى ريفى شديد التدين يشعر بالغربة القاتلة فى مدينة القاهرة سوى "الصوفية".. ومن جديد يعود الفتى للاتصال بجمعية الحصافية وإلى جوارها ينضم إلى جمعية أخرى تنظم المحاضرات الإسلامية هى "جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية"

(٨٩).

هو إذن صوفى يأخذ نفسه بالجد فى العبادات كغيره من أبناء جماعته.. وهو باحث عن المعرفة الإسلامية يستمع إلى محاضراتها.. ولكن ذلك لا يصلح حال القاهرة المتمردة أمام عينيه، تلك المدينة التى يشعر تجاهها بغربة قاتلة وتجاه تصرفات جمهورها برفض قاطع.. هنا تتكون القناعة الأساسية التى حركت وجدان الفتى طوال ما بقى من حياته "المسجد وحده لا يكفى" فلا بد من رجال يهبون حياتهم "للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر".. ومنه ومن عدد من أصدقائه الطلاب فى دار العلوم، والأزهر.. تكونت مجموعات للوعظ والإرشاد فى المساجد والمقاهى وغيرها من التجمعات الشعبية.. وكان هدف البنا المحدد هو سد هذه الهوة التى تفصل بين الحياة الفعلية للإنسان المسلم وبين التعاليم الإسلامية، وذلك بحثّ المسلم على أن يتكيف بحياته ويحصرها فى إطار هذه التعاليم.. ومن القاهرة إلى الريف انطلق الشبان الذين أصبح من الممكن اعتبارهم النواة الأولى لجماعة الأخوان المسلمين (٩٠).

وفى هذه الأثناء كان الفتى الشيخ حائرا يبحث عن مشورة لدى الجيل الأكبر سنا من رجال الدين.. وفى المكتبة السلفية تعرف على مديرها محيى الدين الخطيب ثم تعرف على الشيخ رشيد رضا.. وأيضا بفريد وجدى وأحمد تيمور باشا محاولا أن يستلهم من هؤلاء طريقا جديدا للعمل من أجل الإسلام (٩١).

والتقى أيضا بمشايخ الأزهر فلم يعجبه منهم استسلامهم أمام التيارات غير الدينية.. وبدأت علاقاته بهذه الفئة من "الموظفين الدينيين" كما أسماهم هو تؤرقه.. فإذا كان شيوخ الأزهر على هذا الحال من الاستسلام.. فما هو السبيل؟

كان الفتى يدرك أنه لا بد من عمل ما.. لا بد من طريقة ما لنشر الدعوة الإسلامية ومقاومة هذه التيارات الجارفة للمدنية الحديثة وللدعاوى العلمية والعلمانية.

لكن واحدا ممن قابلهم لم يسد له نصحا وافيا ولا إجابة شافية.

وفي السنة النهائية بدار العلوم طلب إليه كتابة مقال مدرسى موضوعه "تحدث عن الأمال الكبيرة التى تراودك بعد إتمام دراستك، وبين كيف ستعد نفسك لتحقيق تلك الآمال"، وعبر الفتى عن كل طموحه ومشاعره "إن أفضل الناس هم أولئك الذين يحققون سعادتهم بتوفير سبل السعادة للآخرين وبإسداء المشورة لهم" وتحقيق ذلك يكون بأحد طريقين "طريق الصوفية الحق والتفانى بالعمل الصادق فى خدمة الانسانية" أو "طريق التعليم واسداء النصح".

ويسكب الفتى على الورق كل ما فى نفسه من مرارة.. "أننى أعتقد أن شعبى قد ابتعد عن أهداف إيمانه نتيجة للمراحل السياسية التى مر بها والتأثيرات الاجتماعية التى تعرض لها وتحت تأثير الحضارة الغربية.. والفلسفة المادية والتقاليد الافرنجية".

وهكذا فقد أصبح إيمان الشباب فاسدا وسادت بينهم "مشاعر الشك والحيرة، وبدلا من الإيمان تفشى الالحاد.." وبعد كل هذا القدر من النقد لمجتمعه يقرر الفتى الشيخ إطار مستقبله "أن يكون ناصحا ومعلما" وأن يكرس نفسه لتعليم الاطفال بالنهار وآبائهم بالليل، مبصرا إياهم بأهداف الدين والمصادر الاصلية لرفاهيتهم وسعادتهم فى الحياة، وهو يتعهد أن يبذل لهذه المهمة أقصى ما يمكنه من مثابرة ونكران ذات، ومن فهم ودراسة واهبا لذلك جسدا يشوق لمواجهة المصاعب وروحا نذرها لله. ثم يختتم مقاله بعبارة: "هذا عهد بينى وبين ربى" (٩٢).

بهذه المشاعر يتخرج الفتى.. الشيخ حسن البنا من كلية دار العلوم عام ١٩٢٧.. وعين مدرسا للغة العربية بمدرسة ابتدائية فى مدينة الاسماعيلية.

وهكذا أعد المسرح.. وتهيأ البطل.

ولا يبقى أمامنا سوى أن نتابع الأحداث.

هوامش

أ- حسن البنا- متى؟ كيف؟ ولماذا؟

١- د. شبلي شميل- فلسفة النشوء والارتقاء- الطبعة الثانية- مطبعة المقتطف (١٩١٠) صفحة د.

٢- المرجع السابق، ص٢٨

٣- المقتطف- مجموعة عام ١٨٧٦.

٤- محمد عبد الغني حسن- عبد الله فكري- سلسلة أعلام العرب، ص١٩ وما بعدها.

٥- مجلة البصير- مجموعة عام ١٨٧٨- مقال "القضاء على القضاء".

٦- د. شبلي شميل. فلسفة النشوء والارتقاء- المرجع السابق ص٢٧.

من مجموعة كتاباته- مطبعة المعارف- ٧- د. شبلي شميل- الجزء الثاني (١٩٠٨) ص٦٢.

٨- الأخبار- مجموعة عام ١٩٠٩- مقال ضحايا الجهل.

٩- ولي الدين يكن.. المعلوم والمجهول. الجزء الثاني، ص ١٥٩.

١٠- ولي الدين يكن- التجاريب. ص٢٣.

١١- مجلة الهلال- مجموعة ١٩٠٨.

١٢- تفسير الخطيب الشربيني. الجزء الثاني. ص٣٢٨- ٣٣١.

١٣- مارسيل كولومب. تطور مصر ١٩٢٤- ١٩٥٠- ترجمة زهير الشايب (١٩٧٢) ص١٥٩.

١٤- الكاتب.. يناير ١٩٧٤- مقال صلاح عيسى- طه حسين ومحنة العقلانية في مصر.

١٥- الأخبار- ٢٧-٢-١٩٧٣. مقال الشيخ أحمد حسن الباقوري. هذا الرجل

16 - Kamel, M. Egyptiens et Anglais- Paris, 2em edition (1906) PP. 181.

١٧- على فهمى كامل- سيرة مصطفى كامل. الجزء الأول. ص ٣٧٨.

١٨- أنور الجندى- عبد العزيز جاويش. ص٨٣.

19 - Ahmed J. The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, Oxford. (1960) P. 78.

٢٠- محمد صبيح. مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية- ص٣٨٩.

٢١- المرجع السابق.

٢٢- حسن البنا- قومية الإسلام (مقال).

23 - Khadduri, M. Political Trends in the Arab World, London (1972) P. 55

24 - Berger, M. The Arab world Today, New York (1964) PP. 318.

25 - Khaddùri, Ibid. P. 70

٢٦- من مذكرات شيخ الإسلام الظواهرى- السياسة والأزهر- مطبعة الاعتماد (١٩٤٥) ص٢١١.

٢٧- المرجع السابق. ص ١٢٣.

٢٨- المرجع السابق. ص ٢١٧.

٢٩- على عبد الرازق- الإسلام وأصول الحكم- القاهرة (١٩٢٥).

٣٠- آخر ساعة. مجموعة عام ١٩٧٠. مقال محمود عوض: اتهام ملكى للشيخ بالإلحاد.

31- Von Grunebaum, Modern Islam, The Search for Cultural Identity, New York, P. 65.

٣٢- طارق البشرى- الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥- ١٩٥٢- الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٢) ص٢٣٦.

٣٣- المرجع السابق. ص٢٥٠.

٣٤- المرجع السابق. ص٢٥١.

٣٥- محمد شوقى زكى- الاخوان المسلمون والمجتمع المصرى- القاهرة (١٩٥٤) ص٦٠.

36 - Mitchell, R. The Society of Muslim Borthers- Oxford- London (1969) P. 99.

٣٧- حسن البنا- الرسائل الثلاث، ص٨٧ وما بعدها.

٣٨- الشهاب- ١٤ نوفمبر ١٩٤٧.

٣٩- سيد قطب- العدالة الاجتماعية فى الإسلام. الطبعة الثالثة.

٤٠- سيد قطب- من هنا نعلم. الطبعة الرابعة ١٩٥٤.

٤١- رفاعة الطهطاوى. مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية- الطبعة الثانية- ص١٣١.

٤٢- المرجع السابق- ص٩٣.

٤٣- عبد الرحمن الكواكبى. طبائع الاستبداد فى مصارع الاستعباد- مطبعة الدستور العثمانى (١٣١٨ هـ) ص٥٩.

٤٤- المرجع السابق ص٣٢.

٤٥- المرجع السابق ص٥٠.

٤٦- المرجع السابق ص٦٩.

٤٧- عبد الرحمن الكواكبى: أم القرى. طبعة محمود افندى طاهر صاحب جريدة العرب ص٤١.

٤٨- جمال الدين الأفغانى- الرد على الدهريين- ترجمة محمد عبده

وعارف ابى تراب. الطبعة الرابعة (١٩١٤).

٤٩- جمال الدين الأفغانى- خاطرات جمال الدين- أملاه على محمود باشا المخزومى- بيروت- (١٩٣١).

٥٠- مارسيل كولومب- المرجع السابق ص ١٥٧.

51- Blunt, W. Secret History of English occupation of Egypt - London (1907), P. 493.

٥٢- د. الحديدى- عبد الله النديم. ص١٧٧.

٥٣- الكاتب- أغسطس ١٩٧٤- طارق البشرى، مقال "الأزهر بين القصر والحركة الوطنية".

54 - New Middle East, January- February 1975.

Article by Desmond Stewart "Egypt in Search of Religious and Political Community".

٥٥- مجلة الإذاعة والتليفزيون، ١٠-٧-١٩٧١، د. عثمان أمين، مقال "صفحة مجهولة من تاريخنا الفكرى".

56 - Khadduri - Ibid - P. 63.

57 - Adams - Islam and Modernism in Egypt P. 39 and 135.

58 - Khadduri - Ibid- P. 61.

59 - Khadduri - Ibid - P. 56.

60 - Ibid - P. 65.

٦١- لمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين تعاليم الشيخ محمد عبده وأفكار رشيد رضا راجع سامى الدهان، قدامى ومعاصرون- القاهرة (١٩٦١) ص ١٩٧٣ وما بعدها وأيضاً إبراهيم العدوى، رشيد رضا.

٦٢- مارسيل كولومب- المرجع السابق ص ١٦٨.

٦٣- رشيد رضا، الخلافة أو الإمامة العظمى، مطبعة المنار بمصر (١٣٤١ هـ).

٦٤- المرجع السابق ص ١١٦.

٦٥- المرجع السابق ص ١٢٨.

٦٦- رشيد رضا- كتاب الوحي- ص ٢٣٩.

67- Smith, Wilfred Cantwell. Islam in the Modern history (1957) P. 51.

٦٨- الدعوة- ٢٠-٢-١٩٥١.

٦٩- مذكرات الدعوة والداعية. المرجع السابق ص ٥٨.

٧٠- أحمد أنس الحجاجي، الرجل الذى أشعل الثورة (١٩٥٢) ص ٤٣.

71 - Mitchell - op. cit. P. 322.

72 - Khadduri - op. cit. P. 67.

٧٣- مذكرات الدعوة والداعية- ص٢٧٢.

٧٤- لمزيد من التفاصيل حول المقارنة بين أفكار رشيد رضا وحسن البنا راجع:

- Safran, Nadav - Egypt in Search of Political Community. (1961). P. 291.

75 - Hourani, Albert - Arabic Thought in the Liberal Age. 1789 - 1939 - Oxford (1970) P. 80.

٧٦- نقلا عن: د. لويس عوض، تاريخ الفكر المصرى الحديث- الجزء الثاني- كتاب الهلال عدد إبريل ١٩٦٩ ص ٢٨٢.

٧٧- دستور ١٩٢٣- م. ١٥٣.

٧٨- الكاتب- أغسطس ١٩٧٤- طارق البشرى، مقال الأزهر بين القصر والحركة الوطنية.

٧٩- من مذكرات شيخ الإسلام الظواهري- المرجع السابق- ص ٧٩.

٨٠- الأخبار- ٤-١١-١٩٢٤.

٨١- الأخبار - ١١- ١١- ١٩٢٤.

٨٢- جمال سليم- البوليس السياسي يحكم مصر- دار القاهرة للثقافة العربية- ص٣١٥.

٨٣- صباح الخير- ٣١-٣-١٩٧٧. د. عبد العظيم رمضان- مقال: الدين في الصراع السياسي.

٨٤- للمزيد من التفاصيل عن حياة حسن البنا راجع:

مذكرات الدعوة والداعية.

- موسى إسحق الحسيني- الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة.

- أعداد مجلة "الدعوة" الصادرة في ذكرى وفاته في ١٣ فبراير ١٩٥١، ١٢ فبراير ١٩٥٢ و١٠ فبراير ١٩٥٣، ١٦ فبراير ١٩٥٤.

٨٥- المصور ٢٩- ٨- ١٩٥٢- الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا- مقال أورد فيه الكثير من القصص المماثلة.

٨٦- محمد حبيب أحمد. نهضة الشعوب الإسلامية في العصر الحديث ص١٠٥.

٨٧- أنور الجندي- قائد الدعوة: حياة رجل وتاريخ مدرسة، ص١٣٧.

٨٨- المؤتمر الخامس ص٧.

٨٩- المرجع السابق ص٧.

90 - Mitchell, Ibid. P. 5.

٩١- مذكرات الدعوة والداعية. ص٤٩.

٩٢- أحمد أنس الحجاجي- روح وريحان- ص٨٥.

الفصل الثانى

الشيخ .. مرشدا

.. نحن الآن نقترب من نهاية العشرينيات.. ويمسك الشيخ البنا قلمه ليصف هذه الفترة قائلا "أنه الوقت الذى تأرجحت فيه الأمة المصرية فى حياتها الاجتماعية بين إسلامها الغالى العزيز الذى ورثته وحمته وألفته، وعاشت به واعتز بها أربعة عشر قرنا كاملة، وبين هذا الغزو الغربى العنيف المسلح المجهز بكل الأسلحة الماضية الفتاكة من المال والجاه والمظهر والمتعة ووسائل الدعاية" (١).

وكانت محاولات الاستفزاز للمشاعر الإسلامية مستمرة، وتتداخل فيها عناصر مريبة، فصحيفة "إسرائيل" لصاحبها البرت موصيرى وكانت جريدة صهيونية صرفة تجاهر بصهيونيتها (٢) تشن حملاتها حول موضوع "التبشير" فتنشر سلسلة من المقالات تحت عنوان "كيف حاولوا تنصيرى" تتحدث فيها عن محاولات تنصير التلاميذ اليهود والمسلمين فى المدارس الكاثوليكية (٣)، وتتصاعد فى نفس الوقت الموسيقى المصاحبة من الجانب الآخر حيث تمارس جماعات مشبوهة محاولاتها للتبشير، بل وشرذمة واستقطاب عدد من المسيحين نحو مذاهب لم تكن معروفة فى مصر.

وكانت التجربة الدستورية تتعثر، والبناء الرأسمالى يتعثر أيضا، والأزمة الاقتصادية العالمية تنعكس أثارها عنيفة على مصر لتشعر الجميع بالإحباط.. ويحاول البعض أن يجد فى "الإسلامية" مخرجا من هذه الأزمات المتلاحقة (٤).

وفى ١٩ سبتمبر ١٩٢٧ يبتدىء العام الدراسى، ويكون على المدرس الشاب أن يرحل إلى مدينة جديدة تماما، وهو يعترف بأنه لم يكن يعرف موقعها على الخريطة، وكل ما كان يعرفه عنها أنها ترتبط بقناة السويس.. وأن فيها معسكرات للمحتلين الإنجليز.

وفى الاسماعيلية يهب المدرس الشاب حياته لتنفيذ الفكرة التى آمن بها والتى سجلها كتابه فى موضوع بحثه الذى قدمه لدار العلوم والذى أشرنا إليه سابقا.. كان يعلم الأطفال نهارا، وآباءهم ليلا ومعظم هؤلاء الآباء عمال وموظفون صغار وتجار بسطاء (٥). ومن المدرسة إلى المسجد يلقى خطبا ومواعظ، ومن المسجد إلى المقاهى يتحدث ويخطب ويناقش، ومن خلال ذلك كله ينتقى أكثر الناس اهتماما ليكوّن منهم مجموعات خاصة يمنحها المزيد من وقته وجهده.

ويحدد المدرس الشاب أسهم اتجاهه.. إنه يريد أن يمسك بمصادر النفوذ فى المدينة وقد حدد هذه المصادر:

١- العلماء.

٢- مشايخ الطرق الصوفية.

٣- علية القوم.

٤- النوادى (٦).

وكانت المدينة تعانى من السيطرة الأجنبية الكاملة.. كل شىء للاحتلال ولشركة قناة السويس حتى لافتات الشوارع مكتوبة بالإنجليزية.. أما المصريون فلا يخصهم فى هذه المدينة سوى "البؤس". وعلى أية حال فإن دعوة حسن البنا "لم تكن موجهة إلى كبار موظفى شركة القناة وإنما إلى العمال المطحونين وإلى الفقراء، وهؤلاء الذين

عاشوا الحرمان فى مواجهة الامتيازات الصارخة للمجتمع الأوربى فى المدينة كانوا على أتم استعداد للإنصات لدعوة البنا" (٧).

وبرغم انهماك حسن البنا فى عمله الجديد فى الإسماعيلية، وبرغم إحساسه بخصوبة التربة فى الاسماعيلية وسرعة عطائها، إلا أنه لم يقطع علاقاته بالقاهرة.. تلك المدينة التى لم ينس لها أبدا "خطاياها".

وفى عام ١٩٢٧ أيضا كانت هناك فى القاهرة.. ولنفس الأسباب التى حركت وجدان الشيخ الشاب فى الاسماعيلية.. حركة متقدة بين بعض الدعاة الإسلاميين انعكست "فى تشكيل جمعيات دينية ذات طابع اجتماعى، تعمل على تربية الجيل الجديد وفقا للتعاليم والأخلاقيات الإسلامية، ودونما خوض فى الواجبات الملحة تجاه المجتمع ككل. وكانت أهم هذه الجمعيات "جمعية الشبان المسلمين" (٨) وقد أسهم فى تأسيس هذه الجماعة العديد من الشخصيات الإسلامية بعضها من رجال الحزب الوطنى (عبد الحميد بك سعيد والشيخ عبد العزيز جاويش) وبعضها من تلاميذ الشيخ محمد عبده (أحمد تيمور باشا ومحب الدين الخطيب ومحمد الخضر حسين)(٩).. والحقيقة أن جمعية الشبان المسلمين برغم أنها "قد رفعت شعارات دينية صريحة إلا أنها لم تهتم فى نشاطها العملى بتعميق التعاليم الإسلامية، كذلك فإنها قد توجهت أساسا إلى الشبان ودوائر المتعلمين ولم تبذل أى جهد للتوجه نحو الجماهير وكانت الحاجة ملحة فى الدوائر الإسلامية إلى التركيز على العمل الدينى فى مواجهة التيارات العلمانية.. وهكذا تكونت جماعات عدة ذات واجهات متطرفة لكن أحدا منها لم يستطع أن يعمق جذوره، وأن يكسب تأييدا كذلك الذى كسبته جماعة الأخوان المسلمين" (١٠).

وهكذا فإن حسن البنا برغم اتصاله بجماعة الشبان المسلمين، وبرغم أنه كان مراسلا فى الاسماعيلية لمجلة "الفتح" التى أشرف على تحريرها محب الدين الخطيب أحد قادة الشبان المسلمين إلا أنه كان يشعر بالحاجة إلى تأسيس جماعة من نوع

جديد.

وكانت اتصالاته في الاسماعيلية تتبلور في عدد محدود، وبرغم جهده المكثف واتصالاته الواسعة.. تبلور الأمر في البداية في ستة من العاملين بالمعسكرات البريطانية.

كان ذلك في مارس ١٩٢٨.. عندما اجتمع البنا بالرجال الستة. وقد حرص البنا على أن يروى لنا قصة الاجتماع الأول، وأن يرويه بأسلوب درامى يوحى بأن الدعوة قد نبعت من نفوس أتباعه وأنه لم يفرضها على أحد.. لقد تجمع الرجال الستة.. وتوجهوا لحسن البنا وبعد أن شكروه على ما بذله من جهد في تعليمهم وتعريفهم بأمور دينهم قالوا.. "لقد سمعنا ووعينا وتأثرنا، ونحن لا نعرف السبيل العملى للوصول إلى عزة الإسلام وخدمة ورفاهية المسلمين. لقد سئمنا حياة الذل والقيد هذه.. وعار علينا أن نرى العرب والمسلمين بلا منزلة ولا كرامة إذ أنهم ليسوا أكثر من أجراء وتابعين للاجانب. ونحن لا نملك شيئا إلا دمنا وأرواحنا.. وقليل من المال، وإنا لنشعر بالعجز عن تفهم الطريق إلى العمل كما تفهمه أنت، ولا نعرف الطريق إلى خدمة الوطن والدين كما تعرفه أنت. وكل ما نرغب فيه الآن هو أن نقدم لك ما نملكه حتى نصبح فى حل من المسؤولية أمام الله، ولكى تصبح أنت مسؤولا أمامه عما يجب أن نقوم به، فإذا تعاهدت مجموعة أمام الله وبإخلاص على أن تحيا فى سبيل دينه وأن تموت فى سبيله، وعلى ألا تسعى إلا إلى ما فيه رضاه، فسوف تضمن نجاحها وفلاحها مهما قل عدد اعضائها" (١١).

وتبدو الصورة الدرامية واضحة من فخامة الأسلوب وعمق الفكرة، ولعلها تبدو كذلك أيضا عندما يؤكد الشيخ البنا فى حرص على أن الدعوة قد جاءته ولم يطلبها، والبيعة قد أتته ولم يذهب إليها، وأنه حمل على كتفيه- دون أن يطلب- مسؤولية القائد.

وتكتمل الصورة الدرامية عندما يتحدث البنا عن تأثره العميق بكلمات الرجال

الستة، وتهيبه من تحمل المسؤولية التى ألقيت على عاتقه، وكيف أنهم أقسموا جميعا على أن يكونوا "جندا لرسالة الإسلام" وتباحثوا فى اسم للجماعة فقال البنا "نحن أخوة فى خدمة الإسلام ومن ثم فنحن الأخوان المسلمون" (١٢).

وبرغم اختلاف الشيخ البنا عن الجماعات الدينية السابقة إلا أنه قد أعلن عن نفسه فى البداية كجماعة دينية خالصة هدفها "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" (١٣).

ويلاحظ أن البنا قد أكد أن جمعيته لم تكن فى البداية سوى امتداد للجمعية الحصافية الخيرية التى دعت إلى مكارم الأخلاق ومقاومة المنكرات وحملات التبشير "وقد كافحت الجمعية فى سبيل رسالتها مكافحة مشكورة وخلفتها فى هذا الكفاح جمعية الأخوان المسلمون" (١٤) وكان البنا يؤكد فى البداية أن هدف جمعيته "يتلخص فى الرجوع إلى كتاب الله وسنّة رسوله، وتطهير العقول من الخرافات والأوهام، وإرجاع الناس إلى هدى الإسلام الحنيف" (١٥).

ويلاحظ أحد الباحثين أن هذه الأهداف لم تكن لتختلف مطلقا عن هدف أية جمعية إسلامية خيرية(١٦) ويعزز استنتاجه هذا برؤية لأحد مؤسسى الجماعة هو د. عبد الرحمن حسب الله فى ذكرياته التى يؤكد فيها أن الجماعة كانت فى البداية تمثل جمعية خيرية (١٧).

لكن البنا يعود فيؤكد "أيها الأخوان: أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزبا سياسيا ولا هيئة موضوعية الأهداف محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد يسرى فى قلب هذه الأمة ينجيه بالقرآن، ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله" (١٨).

ويلاحظ باحث آخر أن البنا كان يقدم لأتباعه مزيجا من "التقاليد الصوفية المتجردة مع الفكر العقائدى ولكن دون محتوى نظرى ولو حتى فى إطار إسلامى بحت" (١٩).

وربما كان ذلك بسبب حرص البنا على عدم التمذهب بجماعته.. بمعنى عدم

أعلان انتماء جماعته أو تفضيلها لمذهب من المذاهب الأربعة أو لغيرها من المدارس أو الحركات التى ظهرت على الامتداد التاريخى للعمل الإسلامى.. فالمذاهب الأربعة واجبة الاحترام والاختلافات بينها يتعين النظر إليها بعين الحب والإخاء.. فقد حرص البنا على ألا يدع مجالا للاختلاف بين المسلمين إزاء دعوته (٢٠).

على أية حال فقد "نجحت جماعة الأخوان فى تقديم نفسها كحركة دينية، واعتبرت نفسها البديل عن تعثر الاتجاهات العلمانية وتعثر أنماط وأنظمة الحكم والقيم الأوربية "المستوردة"، وقدمت نفسها على أنها قادرة على تقديم الحلول المحددة للقضايا الأيديولوجية والتناقضات الاجتماعية التى واجهت المجتمع المصرى فى ذلك الوقت، مؤكدة أن القرآن هو الأساس القوى لقيام مدينة فاضلة" (٢١).

وقبل أن نحاول فحص هذه المقولة تفصيلا تلح علينا ملاحظة أوردتها باحثة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى إذ لاحظت ذلك الحماس غير المعتاد الذى استقبلت به جريدة كالأهرام.. جماعة الأخوان المسلمين. فمنذ نشأة الجماعة والأهرام يتابع بصورة غريبة نشاط الجماعة مقرظا ومؤيدا.. فى يناير ١٩٢٩ صورة للمؤسسين وعددهم اثنى عشر عضوا.. وفى فبراير ١٩٢٩ خبر عن تأسيس فرع للجماعة فى أسيوط ثم خبر عن افتتاح فرع القاهرة فى شارع القصر العينى، وبعدها أخبار عدة عن تأسيس فروع فى نجع حمادى وبنها.. الخ (٢٢).

ثم تعاود جريدة الاهرام التى اشتهرت بتحفظها التقليدى تجاه الجماعات الدينية وخاصة الإسلامية منها اهتمامها بل ودعايتها للجماعة: "أن الأخوان يقدمون للبيئة المصرية معهدا علميا متكاملا بانشائها قسما ليليا للغات الحية وآخر للفنون الجميلة نذكر منها الموسيقى الشرقية، وفن التمثيل من الناحية الأخلاقية. وأنشأت قسما للحفر- بالإضافة إلى القسم الرياضى، وبجانب هذه الأقسام اهتمت الجماعة بتكوين مكتبة عامرة بالمؤلفات النفيسة والمطبوعات مما جعلها مرجعا وافيا بحاجة الأعضاء" (٢٣).

.. ونتجاوز هذه الملاحظة.. ونتركها كعلامة استفهام.

ونحاول أن نتقدم في بحثنا.. وأمامنا خطوتان هامتان.

أن نلقى نظرة على... الرجل

.. وآخرى على... الجماعة.

فقط يتعين علينا أن نحذر من أن مجرد محاولة فصل الرجل عن الجماعة تشبه محاولة الجراح استخدام مشرطه بين عضلتين في عضو واحد.

الـرجـل..

ماذا يمكن أن يحدث عندما ينصهر في بوتقة واحدة ولاء الصوفي لشيخه، بيعة المريد لإمامه، بوفاء السياسي لزعيمه؟

الإجابة.. يحدث ذلك النوع الغريب من الحب الذى ربط كل أخوانى بالشيخ حسن البنا.. "ارم بنا حيث شئت، فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك"(١) هكذا حدثه أحد أتباعه.

"كان كل منا يشعر أنه يقف منه موقف المريد من شيخه، وقد أسلم له القياد ليأخذ بيده إلى الله"(٢) هكذا تحدث عنه واحد من كبار قادة الإخوان.

"كان يجلس على الحصير إذا كان المجلس أرضا، وفي آخر الصفوف إذا اصطفت المقاعد للجلوس، منكمشا فلا يكاد يرى، متواضعا فلا يكاد يعرف، يلبس في غالب احيانه الجلباب العادى من أرخص الأقمشة" (٣) هكذا وصفه زعيم أخوانى آخر.

ويتحدث عنه كاتب أمريكى فيقول "زرت هذا الاسبوع رجلا قد يصبح من أبرز الرجال في التاريخ المعاصر، وقد يختفى إذا كانت الحوادث أكبر منه، وذلك هو الشيخ حسن البنا زعيم الأخوان" ويقول "كان الرجل خلاب المظهر، رقيق العبارة،

بالرغم من أنه لا يعرف لغة أجنبية، لقد حاول أتباعه الذين كانوا يترجمون بينى وبينه أن يصوروا لى أهداف هذه الدعوة وأفاضوا فى الحديث على صورة لم تقنعنى، وظل الرجل صامتا حتى إذا بدت الحيرة على وجهى قال لهم: قولوا له شيئا واحدا هل قرأت عن محمد؟ قلت نعم، قال هل عرفت ما دعا إليه وصنعه؟ قلت نعم، قال هذا هو ما نريده. لقد نظرت إلى هذا الرجل.. سمته البسيطة، ومظهره العادى، وثقته التى لا حد لها بنفسه، وإيمانه العجيب بفكرته، وكنت أتوقع أن يجىء اليوم الذى يسيطر فيه هذا الرجل على الزعامة الشعبية، لا فى مصر وحدها، بل فى الشرق كله" (٤).

ويمضى الكاتب الأمريكى "لقد حمل حسن البنا المصحف ووقف به فى طريق رجال الفكر الحديث" .. و"وكان الرجل القرآنى يؤمن بأن الإسلام قوة نفسية قائمة فى ضمير الشرق وأنها تستطيع أن تمده بالحيوية التى تمكن له فى الأرض".

.. وهكذا يمكننا أن نجد العشرات والعشرات من الآراء التى تثير دهشة القارىء لما قد يلمحه فيها من مبالغة.. والعجيب أن هذا القدر من الإفراط فى الحب لدى أتباع الشيخ يقابله مثله-وربما أكثر-من الخصومةوالرفض لدى مناوئيه.

أى رجل هذا...؟

نعود مرة أخرى.. إلى فحص ملفه.

مدرس لغة عربية فى مدرسة ابتدائية بالإسماعيلية.. وعندما بدأ نشاطه الجم فى صفوف العمال والحرفيين خاض غمار هذا النشاط بحماس يفوق الوصف.. وكان حماسه هذا يأسر أتباعه وخصومه معا.. كان لا يعرف اليأس ولا التعب.. يقحم نفسه على المجلس أى مجلس محتميا بدعوته إلى القرآن والدين.

قرر يوما أن ينشىء فرعا لجماعته فى أبو صوير فسافر إلى البلدة وحيدا ولم يكن يعرف فيها أحدا ومضى فى الشارع يتفرس فى وجوه الناس فى الطرقات والمقاهى والحوانيت حتى رأى صاحب دكان "وقورا مهيبا سمحا فيه صلاح وله

منطق ولسان. ورأيته يبيع ويتحدث إلى زبائنه فتوسمت فيه الخير فسلمت عليه وجلست إليه وإلى من معه فى الدكان وقدمت له نفسى والغرض الذى من أجله زرت أبو صوير وأننى توسمت فيه الخير ليحمل أعباء هذه الدعوة. وأخذت فى حديثى ألفت نظر الجالسين إلى نقط أساسية: إلى سمو مقاصد الإسلام وعلو أحكامه وإلى ما فى المجتمع من فساد وشر وسوء، وإلى أن ذلك ناتج من تركنا لإحكام الإسلام. وإلى وجوب الدعوة إلى تصحيح هذا الوضع وإلا كنا آثمين لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبذل النصيحة فريضة واجبة. وإلى أن الطريقة الفردية وحدها لا تكفى"(٥).

ويمكن القول أن رحلة أبو صوير هذه قد تكررت مئات بل وآلاف المرات، والشيخ الشاب يحمل حقيبة صغيرة فيها ملابسه يتجول من قرية لقرية، يقصد أعيان القرى يقيم فى مضايفهم، يتحدث ويناقش ويدعو، فإن لم يجد صدرا رحبا فالمسجد موجود فيه يستريح،وينام ويدعو الناس.

"وكان أعجب ما فى الرجل صبره على الرحلات فى الصعيد.. هذه الرحلات التى لا تبدأ إلا فى فصل الصيف حيث تكون بلاد الوجه القبلى فى حالة غليان.. وفى أحشائها يتنقل الرجل بالقطار والسيارة والدابة وفى القوارب وعلى الأقدام. وهناك تراه غاية فى القوة واعتدال المزاج.. لا الشمس اللافحة ولا متاعب الرحلة تؤثر فيه ولا هو يضيق بها".. "وقد أمدته هذه الرحلات فى خمسة عشر عاما زار خلالها أكثر من ألفى قرية.. وزار كل قرية بضع مرات بفيض غزير من العلم والفهم للتاريخ القريب والبعيد للأسر والعائلات والبيوتات وأحداثها وأمجادها وما ارتفع منها وما انخفض.. وألوانها السياسية وأثرها فى قراها، ورضا الناس عنها وبغضهم لها.. وما بين البلاد أفرادا وأحزابا وهيئات وطوائف من خلافات أو حزازات.. وكان يزور أحيانا بلدا من البلاد بلغت فيه الخصومة بين عائلتين مبلغها، وكل عائلة تود أن تستأثر به لتنتصر على الأخرى فيقصد إلى المسجد مباشرة، أو

بغير طريق سفره فلا يستقبله أحد إلا بعد أن يكون قد قصد إلى دار عامل فقير فى البلد.. وكنت إذا قلت له فلان الحسنى مثلا أو الحديدى أو الحمصانى، قال لك.. إن هذا الاسم تحمله خمس أسر أو أربع إحداها فى القاهرة والثانية فى دمنهور والثالثة فى الزقازيق والرابعة فى.. فأيهما تقصد؟.. وقد حدثنى أنه كان يدخل بلدا من البلاد أحيانا لا يعرف فيه أحدا فيقصد إلى المسجد فيصلى مع الناس ثم يتحدث بعد الصلاة عن الإسلام.. وأحيانا ينصرف الناس عنه فينام على حصير المسجد وقد وضع حقيبته تحت رأسه والتف بعباءته"(٦).

كانت هذه الشبكة الواسعة جدا من العلاقات الشخصية هى مصدر زعامة حسن البنا وهيمنته على الجماعة.. فإن عشرات الألوف من أعضاء الجماعة كانوا يفخرون بأنهم أصدقاء شخصيون للمرشد(٧).. ومن هذه الصداقات وبها أقام المرشد جماعته وهيمن عليها.. وعندما كانت الجماعة بصدد شراء المبنى الذى أصبح مركزا عاما لها وأشفق البعض من ضخامة الثمن المطلوب قال البنا ببساطته المعهودة "إننى أعرف شخصيا عشرة آلاف من الأخوان المسلمين، كل منهم مستعد أن يعطينى أى شيء أطلبه منه.. وقد غطى المبلغ خلال أسبوع".

وإذا كان البنا يجذب مريديه ببساطته وعلاقاته الشخصية، فإن أتباعه قد بالغوا إلى حد كبير فى إضفاء هالات من الزعامة حوله.. فإذا كان هو قد اختار لنفسه لقب "مرشد" فإن أتباعه كانوا يطلقون عليه أسماء عدة منها رجل الساعة-والقائد الإسلامى-والأخ الروحى-والمناضل العربى-والمصلح الاجتماعى-والمؤمن القوى(٨). وإذا كانت دراسات عديدة قد أفاضت فى أسباب وبواعث قوة جماعة الإخوان المسلمين فإن كتاب ومفكرى الجماعة أنفسهم قد أكدوا أكثر من مرة "أن سر نجاح الحركة كان يكمن فى شخصية البنا"(٩) بل إن كاتبا آخر من مؤرخى الإخوان يقول "أن سيطرة البنا على أتباعه كانت مطلقة كاملة إلى درجة تصل إلى السحر"(١٠).

وقد وصفت جريدة مصرية فى تهكم واضح طبيعة العلاقة بين المرشد وأتباعه فقالت "إذا عطس المرشد فى القاهرة قال له الإخوان فى أسوان يرحمكم الله"(١١).

.. وعندما مات البنا كتب أحد أتباعه قائلا "سأحى وأموت مقيما على ولائى لك"(١٢).

لقد كان البنا زعيما حقا لا جدال فى ذلك.. ولقد أعد نفسه منذ البداية ليكون كذلك.. فهو يقول "يجب أن يكون الزعيم زعيما تربى ليكون كذلك، لا زعيما خلقته الضرورة وزعمته الحوادث فحسب، أو زعيما حيث لا زعيم.. أن زعماء خلقتهم الظروف، أرادوا أن يستعجلوا النتائج قبل الوسائل وخدعتهم غرارتهم بقيادة الشعوب ومكائد السياسة فظنوا السراب ماء"(١٣).

ومنذ البداية صمم المرشد على أن يعود أتباعه على الطاعة المطلقة.. أليست هى "البيعة فى المنشط والمكره"، وعندما كان المرشد يستعد لمغادرة الإسماعيلية منقولا إلى القاهرة مدرسا بمدرسة عباس بالسبتية اختلف مع بعض أعضاء الجماعة هناك حول من يخلفه فى قيادة الشعبة.. ولاين البنا المختلفين معه لكنهم صمموا على اختلافهم وأبلغوا ضده النائب العام على أساس أنه قد بدد أموال الجماعة.. فلما خرج من التحقيق بريئا حاولوا ملاحقته بالاتهام لدى ناظر مدرسته بالقاهرة.. وهنا ظهرت لأول مرة قوة الردع البدنى فى الجماعة حيث تجمع عدد من أصدقاء المرشد "واعتدوا على المنشقين بالضرب وقبض عليهم وقدموا للمحاكمة"(١٤). والغريب أن البنا يورد الواقعة دونما تحرج أواستنكار لأسلوب "التعدى" على الخصوم السياسيين.. وبعد حادث مدرسة عباس الابتدائية بالسبتبة.. بدأ الضرب والأعتداء البدنى على خصوم الجماعة أسلوبا معتمدا من الإخوان.

ويتحدث البنا عن هذا الاختلاف قائلا "الواقع أن هذا المظهر كان جديدا وغريبا على أوضاع الإخوان التى لم تعرف إلا الوحدة الكاملة والاندماج الكامل، فرأى أحدهم هو رأى جميعهم.." بل هو يؤكد أن المخالفين له قد تلبسهم الشيطان وزين

لهم ذلك.. ثم لا يلبث أن يسميهم بالخوارج ويؤكد ضرورة أخذهم بالحزم "فإن من يشق عصا الجمع، فاضربوه بالسيف كائنا من كان" لكنه يتأسف لأننا تأثرنا إلى حد كبير بالنظم المائعة التي يسترونها بألفاظ الديمقراطية والحرية الشخصية"(١٥).

ولنتأمل هذه العبارة فهي تلخص كل فلسفة الشيخ في العمل التنظيمي وفي حقوق المختلفين معه في الرأي.. وهي تشرع للإخوان الحق في أن يضربوا المختلفين معهم في الرأي "بالسيف".. ولعلهم قد أطاعوا شيخهم كثيرا في هذا الصدد.

وعلى أية حال فان المرشد لم يكن ليخفي سيطرته المطلقة علي الجماعة بل لعله كان حريصا على إبرازها فهو يقول "أن فرعي جمعية الأخوان بالمحمودية وشبراخيت سوف لا ينفعان كثيرا لأنهما أنشئا بغير أسلوبي ولا ينفع في بناء الدعوة إلا ما بينت بنفسي وبجهود الأخوان الحقيقيين والذين يرون لي معهم شركة في التهذيب والتعليم وهم قليلون"(١٦).

والأخ المثالي في نظر المرشد هو من لا رأي مستقل له "والأخ الشيخ.. له أساليبه الخاصة، وهو ينظر لي كأخ وزميل فلا يصغي لآرائي إلا قيلا، ومن هذه الناحية يكون توحيد الفكر ضربا من التعسر، فالاعتماد عليه مخاطرة كذلك"(١٧)، وهو يشكو.. ويشكو من رجاله ؛إنني أتمنى أن يكون إلى جانبي رجال يفهمون ويدبرون فأسلم إليهم هذا العمل وأرتاح بهم قليلا وأطمئن إلى مقدرتهم.. ولكن أين هم(!)"(١٨).

لكن أغرب ما كتبه البنا في هذا الصدد عبارة تستحق التأمل لأنها توضح طبيعة تقييمه للمتعاونين معه من رجاله فهو يشكو من أنه يجد نفسه بين "ضعف الأمين وخباثة القوي" ونتأمل هذه العبارة ولا نملك الا الدهشة.

وكان البنا هو المنظم الأساسي للجماعة وصاحب نظريتها التنظيمية فصاغ للجماعة "فكرا وتنظيما بما يجعلها مرتبطة به شخصيا، وما يجعله المسيطر الأوحد عليها، الممسك بأعنتها والموجه لنشاطها وقد استغل في ذلك عاملين

أولهما:الغموض المحيط بأهدافها وبطبيعتها وبمناهجها العملية كدعوة سياسية وثانيهما: بناء تنظيم الجماعة بطريقة تجعله صاحب الأمر وحده وتجعل سائر أجهزة التنظيم ومستوياته ولجانه مجرد كيانات استشارية يملك عليها الأمر ويجب عليها له السمع والطاعة"(١٩).

وعندما اجتمع المؤتمر الثالث للإخوان ليحدد الهيكل التنظيمى للجماعة ويشكل هيئاتها المختلفة فإنه ينتهى إلى فقرة تقول "وقد ترك المجتمعون لفضيلة المرشد العام تحديد مهمة كل هيئة من هذه الهيئات ووضع البيان الذى يوضح ذلك التحديد"(٢٠). وهكذا منح المؤتمر تفويضا شاملا للمرشد بالسيطرة على كل أجهزة الجماعة وهيئاتها.

وكانت الهيئة التأسيسية لجماعة الأخوان تتكون من ١٥٠ عضوا "وهى بمثابة مجلس الشورى العام، والجمعية العمومية لمكتب الإرشاد وتضم من سبقوا للعمل للدعوة.. وهى من يمنح العضوية لنفسها بمعنى أنها شكلت أولا بالاختيار ثم تتولى هى اختيار الأعضاء لها.. وينبنى الهيكل الأساسى للتنظيم على مبدأ الاختيار من أعلى"(٢١).

وكان مكتب الإرشاد يتكون من ١٢ عضوا، ٩ أعضاء من القاهرة، ٣ من الأقاليم(٢٢). ويشير بعض معارضى البنا إلى أن مكتب الأرشاد كان فى بداية الأمر مكونا من عشرين عضوا فلما ثارت أزمة صهره عبد الحكيم عابدين والتهم الأخلاقية التى وجهت إليه استخدم البنا سلطته فى تخفيض عدد أعضاء مكتب الإرشاد إلى ١٢ عضوا ليسهل سيطرته على المكتب بعد أن يتخلص من خصوم صهره(٢٣). وعلى أية حال فان كل تاريخ الجماعة يؤكد أن سلطات المرشدكانت مطلقة.

وعندما بدأ عبد المجيد حسن (قاتل النقراشى) يدلى باعترافاته قال "قد أخبرنى عبد السميع الغنيمى الذى استقال من جماعة الإخوان أن سبب خروجه من الجماعة

هو أن الأستاذ حسن البنا كان يفرض اراداته على مكتب الإرشاد العام"(٢٤).

وثمة شاهد آخر هو صالح عشماوى فهو يكتب قائلا "عند أول عهدى بعضوية مكتب الإرشاد ثار البحث هل الشورى فى الإسلام ملزمة أم غير ملزمة؟ أى هل يتقيد فضيلة المرشد العام برأى مكتب الإرشاد أم أن المكتب هيئة استشارية للمرشد له أن يأخذ برأيها أو يخالفه إذا شاء. وكان رأى الإمام الشهيد أن الشورى ليست ملزمة وللمرشد أن يأخذ برأى المكتب ويجوز له أن يخالفه"(٢٥). والغريب أن عشماوى يورد هذا الأمر مدحا فى فضيلة المرشد الذى ما ضاق أبدا بمطالبة البعض بالديمقراطية.. وإن كان قد حرمهم منها بحزم.

ولكن هناك شاهد ثالث من كوادر الإخوان سجل فى صراحة فريدة معارضته بل وتهكمه لأسلوب المرشد فى السيطرة علي الجماعة.. يقول هنداوى دوير أحد قادة الجهاز السرى للإخوان فى شهادته أمام محكمة الشعب "الأستاذ البنا ترك . . ١ شخص أو أكثر كلهم قد بعض ولا يدينون لأحد بالولاء.. والأستاذ البنا كان غاوى بترينات.. يعنى المحل مثلا فى الظاهر والبترينة فى شارع فؤاد.. ومعنى ذلك أنه كان يضم إلى الجمعية التأسيسية أناسا لا صلة لهم بالأخوان المسلمين، فمثلا جه واحد من النيابة خرج برشوة، وبصينا لقيناه عضو فى الجمعية التأسيسية، والواقع أن الشيخ حسن البنا كان يضعهم فى الظل لأنه رجل عملاق. فلما الأستاذ البنا أخذ بهذه الصورة لم يكن للهيئة التأسيسية قوة إرادية أو أى صفة"(٢٦).

ولم يكن ذلك غريبا على منطق الإخوان.. فقد كانت أدبياتهم تؤكد أنه "يجب علي الأخ أن يعد نفسه إعدادا تاما ليلبى أمر القائد فى أية ناحية، وأن الدعوة تتطلب منا أن نكون جنودا طائعين لقيادة موحدة لنا عليها الاستماع للنصيحة، ولها علينا الطاعة كل الطاعةفى المنشط والمكرة"(٢٧).

وفى رسالة "التعاليم" التى صاغها المرشد جاء أنه يتعين على العضو "الثقة بالقائد والاخلاص والسمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكرة"(٢٨) وقد

كتب أحد قادة الإخوان مخاطبا المرشد قائلا "أن من حقك علينا الطاعة، على هذا بايعنا وعاهدنا، ولنا فيك الثقة الكاملة وعندك الطمأنينة الشاملة" (٢٩).

ولكنه من حق الإخوان علينا أن نعود بالأمر إلى جذوره الأصلية.. فالجوهر فى كل ذلك هو فكرة البيعة. وقسم البيعة عند الإخوان يقول "أعاهد الله العلى العظيم على التمسك بدعوة الإخوان المسلمين والجهاد فى سبيلها والقيام بشرائط عضويتها والثقة التامة بقيادتها والسمع والطاعة فى المنشط والمكرة. وأقسم بالله العظيم على ذلك وأبايع عليه والله على ما أقول وكيل" (٣٠). والبيعة فى رأى المفكر الإسلامى ابن خلدون "هى العهد على الطاعة، كان المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه فى شىء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه من الأمر فى المنشط والمكرة" (٣١).

وتستند فكرة البيعة إلى حديثين شريفين، الأول يقول "من مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية" ويقول الثانى "من بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ونازعه فاضربوا عنق الآخر".

ويحاول أبو الأعلى المودودى وهو واحد من أشهر المفكرين الإسلاميين فى نظر الإخوان المسلمين أن يضع الإطار النظرى لفكرة الخضوع المطلق للمرشد فيقول "لا ينتخب للإمارة إلا من كان المسلمون يثقون به وبسيرته وبطباعه وخلقه، فإذا انتخبوه فهو ولى الأمر المطاع فى حكمه ولا يعصى له أمر ولا نهى ويعتمد عليه فى تنفيذ الأوامر اعتمادا كاملا". والمودودى لا يعتد برأى الأغلبية "فالإسلام لا يجعل من كثرة الأصوات ميزانا للحق والباطل.. فإنه من الممكن فى نظر الإسلام أن يكون الرجل الفرد أصوب رأيا وأحد بصرا فى مسألة من المسائل من سائر أعضاء المجلس، فإن كان الأمر كذلك فليس من الحق أن يرمى برأيه لأنه لا يؤيده جمع غفير، فالأمير له الحق أن يوافق الأقلية أو الأغلبية فى رأيها وكذلك له الحق أن يخالف أعضاء المجلس كلهم ويقضى برأيه" (٣٢).

ولم يفعل البنا أكثر من أنه قد سار على هذا النهج.

وهكذا استمد البنا قوته المهيمنة علي الجماعة.. من النظرية التى ألبست فكرة البيعة ثياب الخضوع المطلق.. ومن إمساكه بزمام كل أمر من أمور الجماعة ما خفى منها وما ظهر.. فقد علم عن المرشد أنه كان يخفى لنفسه وحده كثيرا من المصادر والشخصيات.. التى يستمد منها العون كلما أراد وبحيث "يكون فى خفاء بعض علاقاته خفاء لبعض جوانب شخصيته عن الآخرين وخفاء لبعض مصادر قدرته ومصادر معرفته"(٣٣).. ويذكر السادات أن حسن البنا كان يجمع خلال الحرب السلاح ويخزنه بغير أن يطلع أقرب الناس من كبار الإخوان على ذلك.. ويقول السادات "أن حسن البنا وحده كان الرجل الذى يعد العدة لحركة الإخوان ويرسم سياستها ثم يحتفظ بها لنفسه، وأن أقرب الناس إليه لم يكن يعرف من خططه شيئا ولا من أهدافه شيئا"(٣٤).

وكان الجهاز السرى.. والسلاح مصدرين جديدين من مصادر القوة الطاغية للشيخ.. كذلك فإنه فى تنظيم كجماعة الإخوان المسلمين.. تكون الغيبية هى الأخرى سلاحا فى إطلاق الأمام أو الشيخ.

يقول طارق البشرى فى إشارة إلى هذه المسألة "وعندما يغيب عن الفرد الفهم وتصبح صور الماضى هى الرصيد الوحيد لديه.. وإذا كان الهدف غير واضح فستكون وسيلته هى العمل الخارق للعادة غير المستند إلى فهم الواقع، وتتعلق الأبصار بالفكرة القديمة فكرة المهدوية والإمام الذى سيملأ الأرض عدلا ونورا بعد أن ملئت ظلما وجورا، وينفصل الأمل فى التحرر عن الواقع.. وتكون غاية الإنسان هنا لا أن يشارك فى صنع مستقبله ولكن أن يكل إلى غيره زعيما أو إماما رسم المستقبل وصنعه، ولهذا يبايعه على السمع والطاعة ويدرب نفسه على الانصياع لأوامره ونواهيه، ويجد تحقيق ذاته فى هذا الانصياع"(٣٥).

وتأتى هذه الهيمنة على الفرد من خلال تداخل الجماعة وعقيدتها فى شؤون

الفرد ودخائل حياته وتسللها إلى كل وقائعها فهى تضع مئات من الأوامر والنواهى تحكم حركته وتصرفاته فى حياته اليومية. فهى تنصحه بالتزام طريقة معينة فى التحدث والضحك وهى تلزمه بتعليمات معينة متعلقة بصحته (المكيفات. التدخين. النظافة. الرياضة. الطعام) وبتعليمات متعلقة بثقافته (ماذا يقرأ ومتى وكيف؟)، وتعليمات متعلقة بتعامله مع الناس (الحياء- التأثر- الشجاعة- الصدق- الوفاء... الخ) وتعليمات متعلقة بتعاملاته المالية،وتعليمات حول علاقته بربه وأخرى حول علاقته بالدعوة وثالثة تحدد له واجبات ما قبل النوم ورابعة تحدد له واجبات لحظات الاستيقاظ.

.. وهكذا تحيط الجماعة بالفرد وتقيم من تعليماتها سياجا يحصره تماما فى إطارها وتهيمن على كل نثريات حياته وبالتدريج يشعرهو وكأنه يستمد وجوده المادى من الجماعة.. ومن إمامها.

وهى تحتم على العضو "أن يتخلى عن صلته بأية هيئة أو جماعة لا يكون الاتصال بها فى مصلحة الدعوة"(٣٦).

ويتم هذا كله فى مناخ يسوده عبق سلفى وتهويمات غيبية تحيط بالإمام والجماعة ومنشآتها وأفرادها.. ويروى حسن البنا كيف أن أحد الشيوخ قد نصحه بأن يعمق عبق السلفية فى جماعته قائلا "يا أخى سم، فأقول وما أسمّى يا سيد محمد؟ فيقول: سم إخوانك وأصحابك ومنشآتك قل لهذا أنك تشبه أبا بكر، ولهذا أنك تشبه عمر فإن هذا يبعث فيهم الحمية.. وسم منشآتك معهد حراء للبنين، مدرسة أمهات المؤمنين للبنات، نادى الخندق"(٣٧).وأتقن الشيخ البنا فن إطلاق التسميات بصورة بعثت الفخر فى نفوس رجاله الذين أسماهم "رهبان الليل وفرسان النهار".

وفوق هذا كله كان الرجل خطيبا قادرا على أن يدير رؤوس أتباعه بحلو كلامه وبساطته وعمقه. وأن يحيط نفسه وكلماته برحيق إسلامى يؤثر فى نفوس هؤلاء

الأتباع.

وكان "حديث الثلاثاء" وسيلة للهيمنة المباشرة على قلوب أتباعه..

ومنذ عام ١٩٣٩ بدأ حسن البنا يعقد مساء كل ثلاثاء لقاءات مع أعضاء الجماعة فى المركز العام(٣٨) ليحدثهم عن أمور الدعوة.. وتاريخ الإسلام، وليحدثهم عن المشكلات الاقتصادية والاجتماعية من وجهة نظر إسلامية(٩). وكان قادرا دوما على أن يخلق رباطا روحيا بينه وبين مستمعيه(٤٠). وبحديث الثلاثاء الذى واظب حسن البنا عليه.. أصبح البنا بشخصه أقوى أداة تثقيف وإعلام فى الجماعة(٤١).

وقد ظل يوم الثلاثاء ذا تأثير خاص فى نفوس أعضاء الجماعة جميعا.. يوم يحتشدون بالآلاف فى فناء المركز العام ثم يطلع عليهم الإمام "فى جلبابه الأبيض، وعباءته البيضاء وعمامته الجليلة بينما تنطلق الحناجر بالهتاف.. الله أكبر ولله الحمد"(٤٢).

وفى خطبه كان البنا يقدم ردودا سهلة وبسيطة فى ظاهرها، ولكنها تستهدف الإمعان فى تعميق المناخ السلفى، بل ويصل الأمر إلى تشبيهه نفسه فى بعض الأحيان بالرسول.. وقد سأله واحد من الحاضرين يوما-وربما فى محاولة لإحراجه- من أين ينفق؟- وكان قد ترك وظيفته الحكومية- فقال فى هدوء "كان محمد يأكل من مال خديجة، وأنا آكل من مال "أخو خديجة" يقصد صهره"(٤٣).

وبالنسبة للبنا كانت الخطابة سلاحا هاما.. بل لعلها كانت أحد الشروط التى حددها كضرورة يتعين توافرها فى أى كادر من كوادر الجماعة، بل لقد كان يشرف بنفسه على تعليم هؤلاء الكوادر فنون الخطابة الإسلامية. وفى غام ١٩٣٨ أشرف البنا بنفسه على أول "مدرسة للكادر" نظمتها الجماعة لتلقين الكوادر "الدعوة والارشاد"(٤٤).

.. ولنواصل فحصنا لملف الشيخ بحثا عن مختلف جوانب شخصيته.. فالذين

تابعوا الحياة السياسية للشيخ يرون كيف استخدم المناورة أسلوبا لتعامله السياسي.. وكيف أنه فهم الحياة السياسية على أنها مناورات ودسائس، يتعين على كل من يخوضها أن يتقنها وأن يمارس هذه الأساليب بل وأن يتفوق على غيره في هذا الصدد.

وربما قادة ذلك إلى بعض "اللامبدئية" يلاحظها كل من تابع خطوات تحالفاته السياسية وتقلبها دون مبرر مقبول إلا المصلحة الذاتية.

و"اللامبدئية" مغرية تستدرج السياسي.. إلى الأسهل والأقرب لكنها تقوده في النهاية إلى مواقع الخطر.. وهي مغرية بمعنى أنها عندما يتلمسها الإنسان تحتويه وتقوده في كل تصرفات حياته ابتداء من العلاقة مع السلطة والرؤساء إلى أبسط نثريات الحياة.

يحكي صالح عشماوي وهو واحد من المقربين من المرشد أنه هاجم ذات مرة إحدى الهيئات الرسمية فطلبت إليه الحكومة أن يعدل عن هجوه أو تقدمه إلى المحاكمة فرفض العدول ولكن الشيخ البنا نصحه قائلا "أكتب يا صالح ما يطلب منك". ويمضي صالح قائلا "لقد عرفت عن الإمام قوله: أوصي الذين يتعرضون للعمل العام ويرون أنفسهم عرضة للاحتكاك بالحكومات ألا يحرصوا على الكتابة فذلك أروح لأنفسهم وللناس، وأبعد عن فساد التعليل وسوء التأويل"(٤٥). أنه "الغموض" كمدرسة وخطة في العمل السياسي سوف نرى آثارها في صفحات قادمة. كذلك قولته لصالح عشماوي هذه "أكتب يا صالح ما يطلب منك" تقودنا إلى أحد مفاتيح شخصية الشيخ... وتذكرنا أنه هو نفسه قد كتب ذات يوم ما طلب منه.. كتب يدين رجاله وهم رهن القيد ويصفهم بأنهم "ليسوا أخوانا وليسوا مسلمين" مؤملا بموقف "لامبدئي" أن ينقذ بعضا من بقايا الجماعة في محنة١٩٤٨.. لكن الواقع أثبت أن خصومه كانوا أكثر منه ذكاء إذ أيقنوا أن خطوة واحدة إلى الخلف من القائد سوف تدمر الجيش كله وتدفع السجناء إلى

الانهيار.. والاعتراف. وقد كان.

.. ومرة أخرى نعود إلى ملف الشيخ.

كانت الجماعة فى أيامها الأولى بالإسماعيلية تحاول أن تجمع تبرعات لبناء أول مقر لها.. وجاءت أولى التبرعات من شركة قناة السويس خمسمائة جنيه (وتلك علامة استفهام نسجلها ونمضى) ويفزع بعض المخلصين من أتباعه ويتساءلون حول جواز قبول تبرع من شركة استعمارية كشركة قناة السويس وحول جواز بناء مقر للجماعة ومسجد بهذا المال، ويجد الشيخ المخرج السهل "هذا مالنا لا مال الخواجات، والقناة قناتنا والبحر بحرنا، والأرض أرضنا وهؤلاء غاصبون فى غفلة من الزمن"(٤٦).

وكان البنا يستخدم فى بعض الأحيان وسائل فى الإقناع تكشف عن نفس النهج.. أغضبه الموقف السلبى لشيوخ الأزهر من جماعته ودعوته فوجه حديثه إليهم قائلا "إن لم تريدوا أن تعملوا لله فاعملوا للدنيا وللرغيف الذى تأكلونه فإنه إذا ضاع الإسلام في هذه الأمة ضاع الأزهر وضاع العلماء فلا تجدون ما تأكلون ولا ما تنفقون فدافعوا عن كيانكم إن لم تدافعوا عن كيان الإسلام".. ونتأمل هذه الكلمات ولا نملك إلا الدهشة.

والشيخ يتخذ من التعليم الحديث موقفا شديد "السلفية"، بل هو يرتد بموقفه هذا إلى مواقف تناساها حتى السلفيون أنفسهم. وفى خطابه الأول فى مسجد الإخوان بالإسماعيلية حرص على الدعوة لإقامة دور للتعليم الدينى مهاجما مدارس التعليم الحديث واصفا إياها بالمدارس المبتدعة التى يخرج منها الأبناء "وقد تسممت عقولهم بالأفكار الخبيثة الفرنجية وحشيت أدمغتهم بالآراء الإلحاديه وشبوا على التقليد والإباحية"(٤٧).

* * *

ويتحول الإعجاب بالمرشد الى مبالغات يتوقف عندها الباحث لا ليتساءل عن مدى صحتها، وإنما عن هذا الحماس فى المبالغة فى الحديث عن الشيخ.. فكاتب أمريكي -مثلا- يقول "لقد كانت شخصية حسن البنا جديدة على الناس، وعجب لها كل من رآها واتصل بها.. كان فيه من الساسة دهاؤهم، ومن القادة قوتهم ومن العلماء حججهم، ومن الصوفية إيمانهم، ومن الرياضيين حماسهم، ومن الفلاسفة مقاييسهم، ومن الخطباء لباقتهم، ومن الكتاب رصانتهم، ثم هو فوق كل هذا "يعرف لغات الأزهريين والجامعيين والمهندسين والصوفية وأهل السنة، ويعرف لهجات الأقاليم فى الدلتا وفى الصحراء وفى مصر الوسطى والعليا وتقاليدها. بل إنه يعرف لهجات الجزارين والفتوات وأهالي بعض أحياء القاهرة. وكان فى حديثه إليهم يروى لهم من القصص ما يتفق مع ذوقهم وفنهم، بل كان يعرف لغة اللصوص وقاطعى الطريق والقتلة وقد ألقى إليهم مرة حديثا (!) (٤٨).

وإذا كان البنا قد أخذ من الأزهريين لغتهم وحججهم ومن الصوفيين إيمانهم فإنه لم يقبل منهم ولا من غيرهم مشاركة له ولجماعته فى كونها "جماعة المسلمين" أى صاحبة الحق فى تمثيل مصالح مجموع المسلمين.. فالأزهريون قادتهم وجمهورهم فى نظر الشيخ "دينيون رسميون" وكانت لهجته تجاه رجال الأزهر لهجة عدائية دوما..وهو يحمل علماء الأزهر بسلبيتهم وعزوفهم عن خدمة الإسلام خدمة حقيقية جزءا من مسؤولية "تدهور أحوال الأمة الإسلامية"(٤٩). ولكن الشيخ كان حريصا على ألا يخوض معركة سافرة وصريحة ضد رجال الأزهر وعلمائه وإن أتى بعض أتباعه ليفجرهذا الصراع عنيفا معلنا أن فى مصر مجموعتين إسلاميتين: المجموعة الرسمية والمكونة من رجال الأزهر ومجموعة "الجمعيات الإسلامية" وهما لاتلتقيان(٥٠) ويقول محمد الغزالى، وهو أحد قادة الإخوان، "لقد نام علماء الأزهر وتبعهم المجتمع الإسلامى"(٥١).

بل إن الشيخ الغزالى يغالى فى هجومه على علماء الأزهر قائلا "أن إسلام

الأزهر هو الإسلام الذى يدعمه الاستعماريون". (٥٢).

وإذا كان الشيخ البنا يرى أن فشل الأزهر فى رسالته يرجع إلى أنه يهتم بتخريج علماء حفظوا مواد العقيدة عن ظهر قلب ولم يستوعبوها روحيا(٥٢) فإن محمد الغزالى قد تطرف إلى درجة القول بأنه "يعرف رجالا من شيوخ الأزهر يعيشون كما تعيش ديدان البلهارسيا والانكلستوما من دماء الفلاحين والبؤساء"(٥٤).

أما "الصوفيون" فقد لاينهم الشيخ البنا.. فهو منهم أولا وأخيرا كذلك عدد كبير من مريديه.. وإن كان قد حذرمنهم تحذيرات خفية.. وأتى الشيخ الغزالى ليكمل كعادته حلقة الهجوم.. فالصوفية فى نظره أو فى نظر جماعة الإخوان المسلمين "من بقايا عصور الإقطاع تستخدم لتخدير الجماهير"(٥٥).

وكأن الشيخ لم يكفه كل ما حازه من نفوذ وهيمنة على نفوس أتباعه، فلجأ بالإضافة إلى كل ما سبق إلى نسج هالات من الغموض والقداسة والخوارق حول نفسه.. ولم يكن المرشد بالرجل الذى يقول ذلك بطريقة فجة قد تأتى بعكس النتائج المرجوة بل يقول هذه المسائل عرضا.. ودون تكلف، ولهذا كانت تأتى فعلها فى نفوس الأتباع وتخلق حوله هالات من التقديس..

فكل الأمور مهما تعقدت تحل فى سهولة ويسر، وحلول المشكلات تأتنى عفو الخاطر بإلهام سماوى.. حتى اسم الجماعة يأتيه بنوع من الإلهام.. وكثيرا ما يستطيع رؤية المستقبل.. "رأى فى نومه وهو طالب أنه يراجع صفحات سئل فيها فعلا في امتحان الغد" بل أنه يحكي عن نفسه قصصا تفوق الخيال.. حول تلك العناية غير المرئية التى أحاطت به دوما تنجيه وتنقذه وترعاه، "وقع بيت عليه وعلى أخيه فلم ينجهما منه، إلا استناد السقف على حاجز السلم، وأنه وقع من ارتفاع ثمانية أمتار فأنجاه ملطم المونة، وأنه امتد حريق إلى ثيابه وهو صغير فأغاثه رجال المطافىء، وإن جمحت به فرس تحت حاجز كاد أن يطيح برأسه فألهمه الله فاستلقى

على ظهره حتى اجتاز الحاجز"(٥٦).

وإذا لم يكن من حق الباحث أن يتساءل عن مدى صحة كل هذه الروايات والمعجزات، فإن من حقه أن يتساءل بأى هدف حرص الشيخ البنا أن يروى كل هذ القصص لأتباعه..؟ وهذا سؤال هام لأنه يحدد نوعية العلاقة التى أراد الشيخ أن يقيمها بينه وبين أتباعه. فأى شيء كان الشيخ يريد من رواياته هذه إن لم يكن تعمده إضفاء هالات من التقديس حول نفسه.

أليس هو الرجل "الذى كان يحقق سيرة رسول الله فى نفسه" كما قال عنه أخوه عبد الرحمن(٥٧)، ولم يكن الشيخ حسن وأخوه عبد الرحمن وحدهما فى هذه المحاولة فأبوه أيضا يروى قصصا خيالية عن كرامات ابنه، الذى كان رضيعا فى الشهر السادس من عمره يستغرق فى النوم مع والدته وتجثم بجواره أفعى ممدودة الرأس إلى رأسه "وينجيك الله يا ولدى من شرها لإرادة سابقة فى علمه وأمر هو فيك بالغه"(٥٨).

وليس بإمكان أي باحث أن يتصور أن كل ذلك كان محض مصادفة.

وقبل أن ننتهى من فحص ملف الرجل.. نعتقد أن من حقه علينا أن نؤكد أنه كان يعرف من البداية أنه يسير هو وأتباعه فوق الشوك، وأن الذين لاينهم ولاينوه سوف يصطفون جميعا ضده وضد دعوته. ولعل وعيه بهذه الحقيقة يحسب له، ولعله يفسر لنا أيضا بعض أسباب إصراره على الغموض.. والخفاء والجهاز السرى والسلاح.. وإحكام قبضته على الجماعة.

يقول حسن البنا فى حديث له إلى أتباعه "سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة فى طريقكم، ويستجدون من أهل التدين من العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام، وينكر عليكم جهادكم فى سبيله، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوى الجاه والسلطان، وستقف فى وجوهكم كل الحكومات علي السواء، وستدخلون بذلك ولاشك فى دور التجربة والامتحان، فتسجنون،وتعتقلون، وتنقلون، وتشردون،

وتصادر مصالحكم وتفتش بيوتكم"(٥٩).

.. وقد كان

* * *

وحتى بعد اغتياله يظل طيفه محلقا فوق الجماعة وفوق أصدقائها وخصومها معا، ويظل الموقف منه معيار الموقف من الحركة كلها.

فعندما قامت ثورة يوليو وخلال شهر العسل الطويل نسبيا بينها وبين الإخوان المسلمين كان الموقف من حسن البنا هو الدلالة والمؤشر.

ففي الأيام الأولى للثورة زار اللواء محمد نجيب قبر الإمام الشهيد ووقف أمامه باكيا.

كذلك فقد قررت الثورة فتح ملف قضية اغتيال البنا.. وفي المحكمة وقف البكباشي محمد التابعي نائب الأحكام ليمجد الإمام الشهيد ويطالب برأس قاتليه: "إن للمغفور له الشيخ حسن البنا دعوة استشهد في سبيلها، تقوم على الإصلاح وترمي إلى التخلص من الاستعمار باعتباره رأس الفساد ومصدره"(٦٠).. لكن زمنا قليلا يمضي ثم تشهد نفس القاعة محاكمة الإخوان المسلمين وهجمات المدعي العام ضد الدعوة وضد مؤسسها.

وعندما يبدأ "شهر العسل" في الانتهاء يحاول جمال عبد الناصر أن يستخدم "الشيخ" ضد "الجماعة". ووسط حملات إعلامية عنيفة ضد "الهضيبي" المرشد الجديد وضد الجماعة ككل يتوجه جمال عبد الناصر في صحبة عدد من أعضاء مجلس الثورة وعدد من الإخوان المسلمين الموالين له لزيارةقبر "الأمام الشهيد" مترحما ومشيدا بالرجل وبأعماله..(٦١).

وتبقى شخصية الإمام الشهيد، برغم كل استفاضة في البحث، محلا لتساؤلات تبحث عن اجابات.

.. الجماعة

.. وكانت الظروف ناضجة تماما كى تنهض هذه المجموعة الصغيرة، وتنطلق، وتصبح كما أسميت بحق كبرى الحركات الإسلامية فى العصر الحديث.

كانت مصر تتململ، وترفض قبضة الحكم الأوتوقراطى، وحكومات عميلة تماما تزيح بقوة السراى والاحتلال حقوق حزب الأغلبية وتهدد الدستور الوليد، وحتى حزب الأغلبية هذا يخضع هو أيضا لأسلوب التهادن والتردد، والأزمة الاقتصادية تستحكم، والقضية الوطنية بغير حل.. والناس جميعا يستشعرون الرفض والحيرة معا.. "وكان تكالب السياسيين المحترفين على الحكم بأى ثمن وما أتبعه من كراهية الكثيرين للنموذج الدستورى القائم فرصة أمام الإخوان المسلمين لكى يجذبوا إلى صفوفهم مئات الآلاف من الأتباع"(١).

ومن هذا الإحساس العارم بالرفض وعدم الرضاء بما هو قائم نجحت دعوة الإخوان المسلمين(٢).

وكانت المعركة بين السراى والحكومة حول الأزهر تحتدم "ولفترة قصيرة (١٩٢٩-١٩٣٠) تنتزع الوزارة من السراى منصب شيخ الأزهر"(٣) ثم يعود القصر فينتزع الهيمنة على الأزهر.. ويتداخل الاحتلال أيضا وهكذا يبدو رجال الدين التقليديون فى مظهر العاجز.. الأمر الذى يحث المسلم المتحمس علي البحث عن جديد.

"والحقيقة أن المجتمع الحديث والدولة الحديثة قد وضعت المسلم المتدين وسط متناقضات عديدة"(٤) هكذا يقول أحد الباحثين ويستخلص من ذلك أحد أسباب نجاح دعوة الإخوان وانتشارها.

"وربما كانت جماعة الإخوان المسلمين أولى الهيئات المنظمة التى قدمت تصورا يستهدف تغيير النظام السياسى التقليدى فى مصر تغييرا شاملا"(٥). هكذا أكد

باحث آخر.. واستخلص أيضا أحد أسباب انتشارها.

لكن الإخوان المسلمين لم يحاولوا مجرد تعديل أو إصلاح النظام "بل قدموا أنفسهم كبديل قادر علي أن يلعب دورما يمكن أن يسمى بالسياسيين العلمانيين، ومن ثم كبديل لكل النموذج "المستورد" من أوربا لتنظيم المجتمع والحكومة، ورفضوا بشكل قاطع كل منجزاته ومؤسساته"(٦)، ولعل ذلك قد خلق الكثير من الصعوبات أمامهم.

.. وبعد هذه الأسطر التى عكست آراء عدد من الباحثين في وضعية جماعة الإخوان المسلمين نعود الى المجموعة الصغيرة من الرجال التى التفت حول الشيخ البنا في الإسماعيلية.. ونحاول أن نسير معها خطوة خطوة.

كانت البداية كما قلنا فى شهر ذى القعدة من عام ١٣٤٧هـ (مارس ١٩٢٨) (٧) واتخذت الجماعة مقرا لها فى أحد المنازل القديمة بالإسماعيلية. وعندما قرروا بناء مقر جديد فتحوا باب التبرعات، ويمكن القول أن أهم تبرع حصلوا عليه كان من شركة قناة السويس التى تبرعت لهم بخمسمائة جنيه(١).

كذلك اقترضت الجماعة عدة مبالغ من عدد من التجار واستطاعت بذلك أن تبنى مسجدا يضم مقر الجماعة ثم ألحقت به فيما بعد مدرسة للبنين ومدرسة للبنات وناد(٨). وأصبح هذا هو النمط الأساسى لمقار الجماعة.. مسجد ومقر مدرسة وناد، وربما مشروع اقتصادى لخدمة البيئة.

ويحتاج الأمر إلى أربع سنوات من العمل الدؤوب والجولات التى لا تنقطع فى المدن والقرى القريبة من الإسماعيلية حتى تنهض عدة شعب للجماعة على امتداد الجانب الشرقى للدلتا (بورسعيد-السويس-أبو صوير) وعلى امتداد الجانب الغربى حتى شبراخيت.. وكانت هناك صلات محدودة بالقاهرة(٩).

لكن هذا النشاط لم يمر بعيدا عن أعين البولس ولا المتشككين فى هذا النشاط. وانهالت التقارير تكيل التهم للشيخ فهو تارة عميل شيوعى، وتارة وفدى مناوىء

لحكومة صدقى، وتارة ثالثة جمهورى معاد للملك فؤاد، وتارة رابعة موظف إنتهك تعليمات الحكومة.. وتلفت هذه الشكاوى نظر الديكتاتور إسماعيل صدقى الذى يصدر أمره لوزارة المعارف بالتحقيق مع الشيخ. ويثبت التحقيق براءته. لكن الشيء الأكثر أهمية من البراءة كان اهتمام اسماعيل صدقى بالجماعة وتفكيره فى إقامة علاقات معها.. ضد خصومه(١٠).

ويتوقف بعض الباحثين عند عام ١٩٣٠ ودكتاتورية صدقى كعلامة طريق فى تاريخ الجماعة. فمن ناحية كان اجهاض التجربة الدستورية على يد صدقى "كفيلا بنشوء النزعات السياسية المتطرفة التى ترفض النموذج السياسى القائم ككل"(١١)، ومن جهة ثانية كانت فكرة الداهية صدقي فى تشجيع الجماعة وحثها للتعاون معه ومع السراى فى مواجهة الوفد.

والحقيقة أن الشيخ البنا لم يخف هذه العلاقة الخاصة التى نشأت بينه وبين إسماعيل صدقى وإن كان أكد أنه تلقى من صدقى عرضا بمساعدة مالية مغرية مقابل إعلان الإخوان المسلمين تأييدهم لصدقى ومناهضتهم لحزب الوفد، وأنه قد رفض هذا العرض الذى قدم له من خلال شقيقه عبد الرحمن(١٢).

والشيء الهام هنا فى نظر الباحث أن الداهية صدقى قد التقط الخيط، وسواء نجح فى إقامة علاقة خاصة مع الإخوان أم لم ينجح، فإن نجاحه الحقيقى كان يكمن فى مجرد الفكرة التى أصبحت محل اهتمام وتنفيذ لاحق من قبل أجهزة السلطة المختلفة.

وبعد أجازة العام الدراسى ١٩٣٢ انتقل حسن البنا إلى القاهرة بناء علي طلبه.. ليجد أن له مجموعة من الأعضاء تحاول هى الأخرى أن تنشط وليجد أن عبد الرحمن شقيقه الأصغر يرأس جماعة صغيرة اسمها "جماعة الثقافة الإسلامية"، وتندمج المجموعتان معا لتؤسسا أول شعبة للإخوان المسلمين بالقاهرة.

وهكذا تدب حياة جديدة في صفوف الجماعة بتواجدها فى قلب الحركة الإسلامية

والسياسية فى العاصمة.

وأصبح أغلب مؤسسى هذه الشعبة قادة لجماعة الإخوان المسلمين التى انطلقت لتوسع من نشاطها(١٣).

وإذا كان للأزمة الصغيرة التى حدثت فى شعبة الإسماعيلية والتى أشرنا إليها سابقا من أثر فإنها قد لقنت الشيخ درسا فى أن يتخير معاونيه فى قيادة الجماعة من أقرب الناس إليه، وأيضا فى أن تظل مسائل عدة مثل المالية ومواردها والعلاقات السياسية الهامة حكرا فى يديه وحده.

وأعلنت شعبة الإسماعيلية-بعد أن تخلصت من المنشقين- انتقال المركز العام للجماعة الى القاهرة حيث يوجد الإمام.. ويشهد المقر المتواضع بالقاهرة نشاطا جما كان محوره وعموده الفقرى الشيخ البنا. كان يومه ويوم الجماعة يسير كالتالى: فى الصباح الباكر يتوجه الشيخ إلى المركز العام، ثم يتوجه إلى المدرسة ليمارس نشاطه الوظيفى ثم يعود من المدرسة إلى المركز العام.. ثم يرتاح فى منزله قليلا ليعود مرة أخرى إلى المركز.. وطوال هذا الوقت كان الشيخ يوجه أعمال الجماعة التنظيمية والإدارية والثقافية، ويلقى المحاضرات، ويتحدث إلى الزوار الكثيرين الذين كانوا يأتون إلى المقر بدافع الرغبة فى المعرفة أو حتى بدافع الفضول. وقد خصص الشيخ الفترة بين صلاة المغرب وصلاة العشاء لإلقاء محاضرات فى تفسير القرآن، وكان معظم مستمعيه من سكان الحى من الحرفيين والتجار الصغار وبسطاء القوم الذين يصفهم أحد قادة الإخوان بأنهم كانوا قوما "بلا تعليم وبلا رغبة فى التعلم"(١٤) لكن هؤلاء القوم سرعان ما استجابوا لدعوة الشيخ وتكون منهم الوعاء الأساسى لعضوية الإخوان المسلمين.

فقد جذبت الجماعة أول ما جذبت "سكان المناطق الفقيرة الذين كانوا يعانون من الوحدة والغربة فى مدينة كالقاهرة، والمهاجرون الوافدون إلى العاصمة الذين وجدوا الراحة النفسية فى اجتماعاتها، وفى تأدية الصلوات الجامعة. وقد قامت فروع

الجماعة بالنسبة لهؤلاء مقام التجمعات الصوفية وطوائف العمال القديمة"(١٥).

ويمكن القول بأن القاعدة الأساسية للجماعة كانت فى هذه المرحلة مكونة أساسا "من أصحاب الحرف الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى الدنيا ومن صغار التجار"(١٦).

وبعد عام واحد من انتقال المركز العام إلى القاهرة كان للجماعة خمسون شعبة فى مختلف ارجاء مصر(١٧).

لكن الباحثين فى تاريخ الجماعة يلاحظون أن هذا الاتساع قد صاحبه تغيير فى التركيب الاجتماعى (الطبقى) لعضوية الجماعة، فمع التطورات السياسية والاقتصادية التى طرأت على المجتمع المصرى فى الثلاثينيات، ومع اتسام تصرفات قيادة حزب الوفد بالتهادن- إلى حد ما- فيما يتعلق بالقضية الوطنية (١٨) اندفعت قوى كانت فى الأساس من جماهير الوفد إلى صفوف الجماعات المتطرفة مثل الإخوان المسلمين ومصر الفتاة.. ويصف أحد الباحثين جمهور الحاضرين فى حديث الثلاثاء فيشير إلى وجود القوى التى أشرنا إليها فيما سبق والتى يميز أصحابها بأنهم يرتدون "الجلاليب" لكنه يؤكد "أن الغالبية الساحقة من الحاضرين كانت من الطلاب والموظفين والمدرسين والمهنيين" (١٩).

وهكذا تغير الزى السائد من "الجلابية" إلى "البدلة"، وكان ذلك إيذانا بتطور جديد فى علاقات الجماعة وأساليب عملها.

ورويدا رويدا تستقر الجماعة، وتنتقل بمقرها وجمهورها من أزقة القاهرة الضيقة إلى مناخ أرحب وجمهور أوسع، ويمتلىء المركز العام بالموظفين المتفرغين بعد الظهر وذوى المرتبات المدفوعة.. بما يوحى باتساع نشاط الجماعة وزيادة عضويتها.

وبدأت القاهرة ومدن القطر المختلفة تشهد رجالا يرتدون زيا جديدا عبارة عن "شال" يضعونه فوق الكتفين وعليه شارة الجماعة، وفى البداية كان لون الشارة أخضر ثم ما لبث أن أصبح أبيض. وكثيرا ما كان "الدعاة" من أعضاء الإخوان

المسلمين يزودون هذا الشال بجيب كبير يتدلى على الصدر يوضع فيه مصحفٌ ظاهر(٢٠).

وإذا كان هذا الزى- بما يتكلفه من مال ومن مظهر وقور- قد اقتصر على الميسورين من أعضاء الجماعة فأن تعليمات الجماعة لأعضائها كانت تحتم فى مطلع الثلاثينيات أن يضع العضو فى خنصر اليد اليمنى خاتما من الفضة ذى عشرة أضلاع ترمز إلى الآية الكريمة "قل تعالوا أتلو ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا" وبه سيفان متقاطعان ومصحف (٢١).

ويشير بعض الباحثين إلى أن هذا الزى الأخوانى كان أول استخدام مصرى لفكرة الزى الحزبى الموحد التى سرعان ما انتشرت فى مصر فى منتصف الثلاثينيات فى صورة القمصان الملونة والتى كانت امتدادا أو تقليدا لزى التنظيمات الفاشية والنازية التى اجتاحت أوربا فى ذلك الحين.

وعلى أية حال فإن اتساع عضوية الجماعة قد جعل من المستحيل إلزام الجميع بزى أو شارات معينة.. وهكذا نسيت هذه العادة.

ومع استقرار الجماعة تعقد مؤتمرها الأول فى مايو ١٩٣٣، وقد تركزت أعمال المؤتمر فى بحث النشاط الذى تمارسه البعثات التبشيرية المسيحية وكيفية مواجهتها. وقرر المؤتمر توجيه رسالة إلى الملك فؤاد يطالب فيها بضرورة اخضاع نشاط هذه البعثات الأجنبية لرقابة حكومية فعالة(٢٢).

وفى نفس العام يعقد الإخوان المسلمون المؤتمر الثانى لجماعتهم والذى خصص لدراسة مسائل التثقيف والدعوة، وقرر المؤتمر تأسيس شركة صغيرة لإنشاء مطبعة خاصة بالإخوان المسلمين (٢٣). وكالعادة كان البنا هو صاحب الفكرة وهو المحرك والمنظم فى تنفيذها.. وبجهد مكثف منه أثمرت نتائج المؤتمر الثانى مجلة أسبوعية هى "الإخوان المسلمون" لكنها لم تستمر طويلا.. ثم صدرت "النذير" كلسان حال للجماعة.. ولكنها ما لبثت أن انشقت عن الجماعة. لكن أهم ما أسفر عنه هذا

التوجه نحو الدعوة والإعلام هو سلسلة الرسائل التى كتبها حسن البنا شارحا فيها أهداف الجماعة وأساليبها ورؤيتها للمجتمع المصرى ولمشاكله وللدعوة الإسلامية وطرق تعزيزها. وقد كانت هذه "الرسائل" وظلت لأمد طويل- وربما حتى الآن- الأساس النظرى والفكرى لجماعة الإخوان المسلمين.

وهكذا قفز البنا بجماعته القفزة الأولى نحو الصعود.. وهو توسيع نطاق الدعوة والإعلام وتنشيط خطوط الاتصال بين الحركة والجماهير.

وبعد الأعلام يأتى التنظيم، هكذا كان الشيخ منطقيا فى تفكيره.. وهكذا تحددت مهام المؤتمر الثالث الذى عقد فى مارس ١٩٣٥ حيث بدأ المرشد يضع قواعد العمل التنظيمى. فبعد توسيع نطاق الدعوة والاتصالات والإعلام لا بد من ضوابط للعضوية، ولا بد من بناء حزبى محكم وإلا هددت الجماعة بأن تصبح مثل غيرها من الهيئات والأحزاب التى تواجدت فى ذلك الحين مجرد لافتة وجماهير- قلت أو كثرت- تنظيم هلامى غير محدد المعالم.

وصاغ الشيخ شروط العضوية ومراتبها ودور العضو فى كل مرتبة، وأهم من هذا أنه وضع النواة الأولى لتنظيم "الجوالة" الذى لعب فيما بعد دورا حاسما فى تاريخ الجماعة.

ويحدد المرشد كتابة وبشكل واضح وصارم شروط العضوية ومراتبها:

"على العضو الراغب فى الانضمام أن يتحلى بالأخلاق والسمعة الحسنة والسلوك المتين، ويكون لديه الاستعداد للطاعة التامة وتنفيذ ما يلقى عليه من أوامر. وهو فى هذه المرحلة يكون أخا مساعدا إذا أعلن استعداده ووقع استمارة العضوية وتعهد بسداد الاشتراك المالى.. ثم إذا أثبت حسن أدائه للواجبات من حفظ للعقيدة وتعهد بالتزام الطاعات وعكف عن المحرمات وحضر الاجتماعات الاسبوعية يصير أخا منتسبا ويرتفع بعد ذلك لأن يصبح أخا عاملا إذا ما أضاف لسابق الواجبات والصفات قدرة على دراسة عقيدة الإخوان، وتعهد بالورد القرآنى،

وحضر مجالس القرآن الاسبوعية وكذلك إذا ما اشترك فى صندوق الحج ولجنة الزكاة وانضم إلى فرق الرحلات ما دامت سنّة تسمح بذلك، وعليه فى هذه المرحلة أن يلتزم التحدث بالعربية الفصحى بقدر المستطاع، مع عمله الدائم على تثقيف نفسه فى الشؤون الاجتماعية العامة وحفظه للأربعين حديثا نبويا.. أما الدرجة الرابعة وهى أسمى الدرجات فهى درجة الجهاد وهى من حق الأخ العامل والذى يثبت لمكتب الارشاد بمحافظته ومواظبته على كل الواجبات السابقة ويصبح بذلك داعية مجاهدا. والداعية مرتبة سامية إذ لا بد أن يكون مؤمنا بفكرة يدعو إليها بالكتابة والخطابة والحديث العادى.. والعمل الجدى فى سيرته الخاصة والعامة بكل ما يستطيع من وسائل الدعاية، كما يتحلى بالبلاغة فيكون محدثا وقدوة يؤثر فى الناس بعمله وشخصه" (٢٤).

وهكذا وضع البنا أسس تنظيم حديدى محكم استطاع أن يخوض به التجربة التى حلم كثيرا بها.

وكانت "الجوالة" هى فكرة البنا فى بناء قوة ضاربة وفاعلة للتنظيم، ومن الجوالة جاءت فكرة الكتائب فى عام ١٩٣٧ التى اعتبرت تنظيما للصفوة أو للكادر الأساسى للجماعة.. والتى ربما كانت هى والجوالة البذور الأولية لفكرة الجهاز السرى.

كذلك وافق المؤتمر الثالث على "عقيدة الجماعة" والتى تقول:

"١- اعتقد أن الأمر كله لله، وأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم رسله للناس كافة، وأن الجزاء حق، وأن القرآن كتاب الله، وأن الإسلام قانون شامل لنظام الدنيا والآخرة، وأتعهد بأن أرتب على نفسى حزبا من القرآن الكريم، وأن أتمسك بالسنّة المطهرة وأن أدرس السيرة النبوية وتاريخ الصحابة.

٢- أعتقد أن الاستقامة والفضيلة والعلم من أركان الاسلام. وأتعهد بأن أكون مستقيما أؤدى العبادات وأبتعد عن المنكرات: فاضلا أتحلى بالاخلاق الحسنة،

وأتخلى عن الاخلاق السيئة، وأتحرى العادات الإسلامية ما استطعت، وأوثر المحبة والود على التحاكم والتقاضى، فلا ألجأ إلى القضاء إلا مضطرا، وأعتز بشعائر الاسلام ولغته وأعمل على بث العلوم والمعارف النافعة فى طبقات الأمة.

٣- أعتقد أن المسلم مطالب بالعمل والكسب والتكسب، وأن فى ماله الذى يكسبه حقا مفروضا للسائل والمحروم، وأتعهد بأن أعمل لكسب عيشى وأقتصد لمستقبلى وأؤدي زكاة مالى وأخصص جزءا من إيرادى لأعمال البر والخير وأشجع كل مشروع اقتصادى نافع، واقدم منتجات بلادى وبنى دينى ووطنى ولا أتعامل بالربا فى شأن من شؤونى ولا أتورط فى الكماليات فوق طاقتى.

٤-أعتقد أن المسلم مسؤول عن أسرته وأن من واجبه أن يحافظ على صحتها وعقائدها وأخلاقها. وأتعهد بأن أعمل لذلك جهدى وأن أبث تعاليم الإسلام فى أفراد أسرتى. ولا أدخل أبنائى مدرسة لا تحفظ عقائدهم وأخلاقهم وأقاطع كل الصحف والنشرات والكتب والهيئات والفرق والأندية التى تناوىء تعاليم الإسلام.

٥- أعتقد أن من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بإنهاض شعوبه وإعادة تشريعه، وأن راية الإسلام يجب أن تسود البشر وأن مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام. وأتعهد بأن أجاهد فى سبيل أداء هذه الرسالة ما حييت وأضحى فى سبيلها بكل ما أملك" (٢٥).

ولقد تعمدت أن أورد النص كاملا.. ولا يملك الباحث إلا أن يسجل ملاحظة واحدة وهى أن النص أخلاقى صرف ولا بأس من ذلك لكنه لا كلمة واحدة عن الاستعمار ولا عن القضية الوطنيه فى بلد يهيمن الاحتلال على مقدراته.. ولا كلمة دفاع واحدة عن الفقراء ولا حل واحد لمشكلة من مشكلات مصر أو شعبها وباختصار هو مجرد اقتباسات أخلاقية تصلح أهدافا لأى مسلم فى أى بلد وفى أى زمان.

لكن أخطر ما فى الموضوع هو قرار المؤتمر بأنه "على كل مسلم أن يعتقد أن هذا

المنهج كله من الإسلام وأن كل نقص منه نقص من الفكرة الإسلامية الصحيحة"(٢٦). ويلاحظ أحد الباحثين خطورة هذا المبدأ ويرى "أن الجماعة تصادر به الدين لمصلحتها وبهذا لا تصبح مجرد جمعية تطبق الدين كما يحاول غيرها أن يفعل، وإنما تؤكد أن منهجها وحده هو الإسلام الصحيح ومن ثم فإن من يقف ضدها كجماعة يكون خارجا على الإسلام ذاته.. إنه مبدأ يسعى للسيطرة على الإسلام لا للاتصاف به فقط"(٢٧). وبهذا فقط يمكننا أن نفسر حملات القتل والاغتيال التى نظمها أعضاء الجماعة ضد خصومها، فإن خصوم الجماعة هم ببساطة خصوم الإسلام ذاته، والخارجون عليها والرافضون لها ليسوا سوى مجرد رافضين "لجماعة المسلمين" والرافض لجماعة المسلمين جزاؤه القتل.

ويأتى المؤتمر الخامس فى عام ١٩٣٩ ليمثل انطلاقة جديدة. وفى هذا المؤتمر يحدد البنا الطبيعة الشاملة لجماعته فهى "دعوة سلفية، وطريقة سنية، وحقيقة صوفية، ومنظمة سياسية، وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية" (٢٨). وأكد البنا "أن جماعته ترفض التدخل فى الخلافات المذهبية التى بين الأعيان والأعلام والأحزاب والجماعات وأنها تكرس جهدها للتنظيم والعمل والسعى الدائب لكسب أعضاء جدد" (٢٩).

وإذ يحاول بعض أتباعه من الشبان "المتسرعين والقلقين" رفض المنهج المتأنى والحذر الذى يرسمه الشيخ بعناية وحرص فإنه يحدثهم قائلا أن الطريق ما زال طويلا وشاقا ويحدد لهم توقيت الهجوم العام وقواته.. "فى الوقت الذى يكون فيه منكم- معشر الإخوان المسلمين- ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسيا وروحيا بالإيمان والعقيدة، وفكريا بالعلم والثقافة، وجسميا بالتدرب والرياضة، فى هذا الوقت طالبونى بأن أخوض بكم لجاج البحار واقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإنى فاعل أن شاء الله" (٣٠).

هكذا يكون الجيش مستعدا.

وقد يلاحظ القارىء أننا لم نشر للمؤتمر الرابع للجماعة.. وقد عقد هذا المؤتمر في عام ١٩٣٦ وخصص للاحتفال بتتويج الملك فاروق، ولذلك قصة أخرى لعلنا نوردها في فصل قادم.

* * *

نحن الآن نفتح صفحة جديدة..

صفحة ما بعد المؤتمر الخامس..

كل ما قبل ذلك كان تحضيرا وإعدادا.. أما اليوم فهو القول الفصل.. هو بدء "التنفيذ"، كان مجرد إعداد للثلاثمائة كتيبة استعدادا لخوض لجاج البحر، واقتحام عنان السماء.

ولعله من الضروري هنا أن نلقي نظرة على البناء التنظيمي الذي ابتدعه وأقام أسسه بنجاح تام الشيخ حسن البنا.

كانت الجوالة هي أول عمل تنظيمي خاص أقامه البنا، ولعلها كانت في البداية محاولة "لبلورة" النشاط الرياضي والاجتماعي الذي اهتم به الشيخ غاية الاهتمام مقتديا بالحديث الشريف "المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف" وبالحكمة البليغة "العقل السليم في الجسم السليم" (٣١).

وفي أعقاب المؤتمر الثالث للجماعة (١٩٣٥) زاد الاهتمام بصورة مكثفة بفرق الجوالة.. واعتبرت تنظيما مستقلا ذات هيكل مستقل تابع مباشرة للمركز العام.. ولعلها أصبحت في ذلك الحين محط اهتمام أكبر من الشيخ فقد بدأت القمصان الملونة خضراء (مصر الفتاة) وزرقاء (الوفد) تملأ شوارع القاهرة والمدن الآخرى تستخدم الردع السياسي والردع المضاد.

وكان لا بد لجماعة كالاخوان من فريق للردع خاص بها.. ولعل الشيخ كان أكثر من أتقن ذلك من قادة العمل السياسي المصريين.

وفي عام ١٩٣٩ عيَّن البنا واحدا من أخلص رجاله- هو محمود لبيب (ضابط

سابق بالجيش) قائدا عاما لفرق الجوالة وكوّن لها مجلس قيادة من سبعة أشخاص.

وباختصار كانت فرق الجوالة هى الوعاء الذى يستوعب أخلص شباب الجماعة وأكثرهم ولاء.. ويصقلهم ويدربهم، ويعوّدهم على الطاعة التامة والتفانى المطلق.. ولعل الشيخ وهو يصوغ جنينيات هذا الوعاء، كان يدرك أن ثمة خطوة أخرى قادمة هى اختيار أخلص هؤلاء الخلصاء.. وأنشط هؤلاء النشطاء فى وعاء سرى تماما هو "الجهاز الخاص".. لكن لذلك قصة أخرى.

والمهم أن فرق الجوالة قد نشطت، واتسعت وامتد عملها إلى مجالات عدة فى الريف والمدينة ابتداء من محو الأمية ومقاومة الكوليرا وخدمة البيئة إلى ردع الخصوم السياسيين إلى المشاركة فى الاحتفالات العامة كجيش خاص بجماعة الإخوان المسلمين.. وفى عام ١٩٤٨ كان عدد أعضاء فرق الجوالة من الإخوان المسلمين . . .ر. ٤ عضو.

ولقد اثارت فرق الجوالة هذه الكثير من الجدل.. فالهيئة العامة للكشافة قاومت فى بداية الأمر نشاطها فقانونها يؤكد أن "الكشاف" لا يتداخل فى السياسة.. والأحزاب الأخرى قاومتها واعتبرتها نهجا "فاشستيا" فى التنظيم.

وبرغم ذلك فقد نجح الإمام فى أن يبرز شباب جماعته فى صورة زاهية تماما فقد كانوا حريصين دوما على خدمة الجمهور، وقدموا بالفعل خدمات هامة وخاصة فى أوقات المحن العامة كوباء الكوليرا والملاريا.

ومع "الجوالة" كانت "الكتائب".. "كتائب أنصار الله". فالجوالة للرياضة والشباب والخدمة العامة وأما "الكتائب" فهى مجموعات تضم كل منها أربعين عضوا من الأعضاء النشطين فى الجماعة.. ويلتقون معا ليلة كل أسبوع حيث يقضون أكثر الليل فى العبادة وتلاوة القرآن.. وتفسيره وقراءة الأوراد. وكان الهدف الاساسى الذى وضعه الشيخ لهذه الكتائب هو ربط العضو بالجماعة، وتطوير علاقته بها من علاقة "انتماء" إلى علاقة "إيمان" فهو يعبد الله فى إطارها وبين

صفوفها.. ولعل فكرة هذه الأمسيات الدينية، ذات العبادة المكثفة قد واتت الشيخ من خلال انتمائه السابق للصوفيين.. كذلك كانت الكتائب وعاء يختبر فيه الرجل رجاله.. ويفرز من بينهم من هو أكثر إخلاصا وولاء.. وكان شعار الكتائب " العمل- الطاعة- الصمت" (٢٢).. لكن لماذا "الصمت"؟.. وأى حاجة للصمت فى ليال ليس فيها سوى التعبد وذكر الله.. ربما كان الرجل ينتقى من بين أخلص خلصائه.. رجالا لعمل جديد لعله "الجهاز الخاص".

وبعد فترة.. استنفدت "كتائب أنصار الله" غرضها بالنسبة للمنظم الفذ الذى استشعر أنه قد انتقى ما شاء من رجال.. وأنه قد آن الأوان لوضع نظام يشمل أعضاء الجماعة جميعا.. وكانوا قد اصبحوا بضع مئات من الألوف، وكان نظام الأسر.

وقد بدأ تنفيذ هذا النظام فى عام ١٩٤٣ فى ظل التزايد الواسع للعضوية وما صاحب بعض فترات الحرب العالمية من ضغوط على الجماعة (٣٣). وفى بداية الأمر سمى "نظام الأسر التعاونى" ثم أصبح اسمه "نظام الأسر". وتقوم الفكرة التى وضعها الشيخ البنا على أساس تجميع الأعضاء النشطين فى كل شعبة وتقسيمهم إلى مجموعات كل مجموعة لا تزيد عن خمسة أعضاء (أصبحت عشرة فيما بعد)(٣٤) وتسمى المجموعة "أسرة" وتنتخب كل أسرة رئيسا يسمى "نقيبا" ويقوم بتمثيل مجموعته أمام قيادة الفرع.وتعتبر الأسرة وحدة متكاملة مسؤولة مسؤولية جماعية عما تكلف به. وتكون كل أربع أسر "عشيرة" يرأسها "نقيب" الأسرة الأولى من أسر العشيرة. وتكون كل خمس عشائر "رهط" و"الكتيبة" تضم خمسة "رهوط"(٣٥).

وهكذا وصل البنا إلى الطموح التنظيمى الذى يريد.. والذى حلم به، فقد نجح نظام الأسر فى أن يحيل الجماعة كلها إلى شبكة متصلة الحلقات متماسكة الفعل ورد الفعل، قادرة على أن تستجيب- وعلى الفور- لإرشادات وتوجيهات القائد..

وفى المركز العام كان "قسم الأسر" تحت إشراف مباشر من "المرشد" وحركة "الأسر" أقوى جهاز فى الجماعة.. بل وأقوى جهاز سياسى منظم فى مصر كلها.

والأسرة تعقد اجتماعات أسبوعية حيث تمارس معا العبادات، وتقرأ القرآن والأوراد، ويقدم كل عضو حسابا عن نشاطه وعمله وماليته. وكان البنا يحث الإخوان "على أن يعززوا علاقات الإخوة فى إطار الأسرة الإخوانية". فاجتماعات "الأسرة" الاسبوعية تعقد خارج الشعبة ويستحسن أن تعقد فى منازل أعضائها بالتناوب، وبخلاف الاجتماعات الأسبوعية كان على الأسرة أن تنظم أمسية إسلامية كل شهر.. ويستحسن أن تقضيها فى مكان خلوى حيث ينامون ويقرأون الأوراد ويصلون معا ويتناولون طعامهم معا.. والأسرة تصلى الجمعة معا وتحل مشكلاتها المالية بينها.. وعلى أساس نظام "التكافل" الإسلامى إذ تحتفظ الأسرة بصندوق تعاونى تضم إليه تبرعات أعضائها وترسل الأسرة خمس إيرادها إلى الشعبة لتمول منه المشاريع الاجتماعية التى تديرها الشعبة.

وقد حرص "البنا" على تعزيز نظام "الأسر" كسبيل لارتباط العضو بالجماعة ليس فقط سياسيا وإنما اجتماعيا واقتصاديا.. فقد حرص "البنا" على أن تصبح الجماعة موئل العضو وأسرته ودرعه ومحط آماله وكان يروى دوما كيف فقد أحد أعضاء الجماعة مورد رزقه فقدم له أخا له فى الأسرة "نصف مرتبه، فلما سئل: كيف تعيش بنصف راتب؟ أجاب: وكيف يعيش أخى بلا دخل؟".

وقد أوصى البنا الإخوان بأن يقيموا نظام "الأسر" على أساس أعمدة ثلاثة: التعارف- التفاهم- التكافل- مستلهمين الآية الكريمة "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا" والحديث الشريف "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" (٣٦). وتتجلى براعة البنا كمنظم فى أنه قد ربط بالجماعة وأهدافها كل عضو فيها.. ومنحه القدرة على العمل فى إطارها فأصبحت "الإخوانية" أسلوبا للحياة (٣٧).

.. هكذا يكون الجيش مستعدا.. الأعضاء منتظمون فى "الأسر" تشدهم إلى

المرشد برباط وثيق، والشباب الأكثر حيوية والأكثر إخلاصا منتظمون فى فرق "الجوالة" يتدربون ويتعودون الطاعة التامة والتفانى فى الإخلاص لبيعتهم للمرشد وفوق هذا هناك "الجهاز الخاص" المدرب والمسلح والمجهز تجهيزا عاليا ليكون أداة الردع التى لا يعرف أحد عنها شيئا سوى المرشد نفسه.. وبهذا يحكم المرشد قبضته تماما على الجماعة كلها.

.. وكما حاول البعض أن يتهكم.. كان الأمر حقيقة "إذا عطس الإمام فى القاهرة.. قال الإخوان فى كل مصر.. يرحمكم الله".

* * *

وإلى المجال الصعب بالنسبة لأى مسلم "سلفى".. وهو مجال العمل وسط النساء وتنظيمهن.. وصلت اهتمامات البنا. فمنذ البدايات الأولى فى الإسماعيلية اهتم البنا بالعمل وسط "الإخوات" محاولا برغم تمسكه "بالحجاب" وبضرورة "استقرار المرأة فى البيت" أن يجد لجماعته موضع قدم فى الحركة النسائية. ذلك أن البنا كان يؤكد وباستمرار أهمية الدور الذى تلعبه "الأسرة الإسلامية" فى تنشئة جيل مسلم، فكيف يمكن تصور "أسرة إسلامية" بغير "أخوات مسلمات"؟

وهكذا كان من بين مشاريعه الأولى وهو لم يزل بعد فى الإسماعيلية تأسيس "مدرسة أمهات المؤمنين"، وفى إبريل ١٩٣٣ أصبحت هذه المدرسة أول فرع رسمى للإخوات المسلمات (٣٨).

واستمر العمل وسط النساء تعرقله التوجهات السلفية للجماعة تجاه قضية تحرير المرأة وحقها فى العمل وتجاه الحجاب وقضية الأحوال الشخصية، وتعرقله أيضا مقاومة وتأفف بعض أعضاء الجماعة من العمل وسط "الحريم"، وهكذا مضت سنوات عشر كاملة على تأسيس الفرع الأول للإخوات المسلمات بالاسماعيلية قبل أن تتكون قيادة مركزية "للإخوات المسلمات" بالمركز العام.. وبدفع خاص من جانب الشيخ البنا تحقق الإخوات المسلمات نجاحا يعتبر بمقاييس الاربعينيات وبمقاييس

العمل النسائى أكبر من كبير.. فقد وصل عدد الإخوات المسلمات فى عام ١٩٤٨ رقما عاليا جدا هو خمسة آلاف عضوة (٣٩).. لكن الملاحظة الهامة هى أن الإخوان إذ حققوا فى الجامعات نجاحا باهرا وسط طلاب الجامعات فى الاربعينيات إلا أن عدد الطالبات المحجبات فى الجامعة كان ضئيلا جدا إلى درجة ملفتة للنظر.. إذ يبدو أن "الفتيات المتعلمات كن يتصورن دعوة الأخوان دعوه سلفية تعود بالمرأة إلى عصر الحريم" (٤٠).

وفى أيام "المحنة الأولى" (١٩٤٨- ١٩٥٠) لعبت الاخوات المسلمات دورا هاما فى رعاية أسر المعتقلين وفى تأمين الاتصال بين سجناء الأخوان فى مختلف السجون،وبينهم وبين من بقى من الإخوان فى الخارج.

ومن صفوف الإخوات المسلمات لمعت بعض أسماء.. وبرز أحد هذه الأسماء (زينب الغزالى) ليلمع فى قمة قيادة الدعوة.

* * *

وإذ يستعد الجيش لمرحلة "التنفيذ" فلا بد من جهاز إعلامى قوى يمكنه من أداء مهامه.. والبنا الذى يرفض الغرب وحضارته.. وكل منجزاتها حرص على أن يوصى الإخوان بأن "يتعلموا من الغرب فنون الدعاية" (٤١).

وكانت المطبعة الصغيرة التى أسسها البنا بعد المؤتمر الثانى للجماعة مستمرة فى طبع رسائله إلى الإخوان والتى أصبحت سلاحا إعلاميا يحقق للشيخ الهيمنة الفكرية على الجماعة.. والهيمنة الفكرية للجماعة على قطاعات كبيرة من التيارات الإسلامية.. ورويدا رويدا تنمو المطبعة الصغيرة بفضل الاهتمام الدائب من المرشد لتصبح واحدة من أهم المشروعات الاقتصادية للجماعة (٤٢).

وبرغم البداية المتواضعة فقد نجح البنا فى أن يصدر أول مجلة إخوانية تحمل دعوته إلى الجمهور.. وكانت مجلة "الإخوان المسلمون" الاسبوعية التى صدرت لتعلن أنها صوت دعوة الحق والقوة والحرية وكانت المجلة مملوكة لواحد من كبار

السلفيين الذين أثروا تأثيرا كبيرا فى الإمام عندما كان طالبا.. هو الشيخ محب الدين الخطيب صاحب المكتبة السلفية. وبجنيهان فقط كانا كل ما يمتلكها الشيخ حسن فى جيبه أغرى الشيخ محب الدين الخطيب على مشاركته فى إصدار هذه المجلة باسم "الجماعة".. وصدر العدد الأول فى مايو ١٩٣٣ لتكون أول مجلة تصدر عن الجماعة ولتستمر فى الصدور أربعة أعوام كاملة (٤٣).

ومع مرحلة "التنفيذ" كان لا بد للجماعة من سلاح اعلامى جديد.. "النذير" التى كان لها من اسمها الكثير والتى كانت "إعلانا" صريحا وصارما من الشيخ لكل سياسيى مصر بأن "الإخوان المسلمين" قد اقتحموا ميدان السياسة.

لكن "النذير" تخرج مع المنقسمين على الجماعة.. هى ورئيس تحريرها وصاحب امتيازها لتصبح فى عام ١٩٣٩ لسان حال المنشقين الذين أسموا أنفسهم "شباب سيدنا محمد" (٤٤). ويستخدم البنا علاقاته الوثيقة بالشيخ رشيد رضا وبأسرته، ليحصل على مجلة "المنار" التى تعثر صدورها بعد وفاة الشيخ رشيد عام ١٩٣٥ فأصدرها البنا باسم جماعته منذ عام ١٩٣٩ حيث أصدر منها ستة أعداد.. إلى أن ألغت الحكومة ترخيص المجلة كجزء من ضغطها على جماعة الإخوان وألغت فى نفس الوقت مجلة إقليمية كانت تصدر عن الجماعة باسم "التعارف" (٤٥).

لكن شهر العسل يعود سريعا.. ويجد المرشد سبيلا للصلح مع الحكام.. وفى عام ١٩٤٢، وكجزء من المصالحة العامة، وكتعبير عن مصالحة جديدة بين الوفد والإخوان تنهض الجماعة من جديد لتصدر فى اغسطس ١٩٤٢ مجلتها الأسبوعية "الإخوان المسلمون" والتى صدرت فى بداية الأمر كل اسبوعين.. وفى مايو ١٩٤٦ صدرت "الإخوان المسلمون" يومية.. وواصلت صدورها حتى حل الجماعة فى ديسمبر ١٩٤٨.

وفى نوفمبر ١٩٤٧ أصدرت الجماعة مجلة شهرية للدراسات الإسلامية باسم "الشهاب" لعلها أقرب ما تكون إلى "منار" الشيخ رشيد رضا.. كذلك اصدرت

الجماعة مجلة طلابية كانت توزع أساسا على طلاب الجامعات (٤٦).

* * *

وإذ رفض البنا التعليم الحديث باعتباره انعكاسا غربيا مرفوضا يعلم التلاميذ الضلال والعلمانية، وإذ رفض التعليم الأزهرى باعتباره مجرد حفظ لموضوعات دينية وأنه خال من الاهتمام الروحى والوجدانى.. فقد حلم بتعليم من نوع جديد. وكعادته عندما يقتحم أى ميدان يبدأ بمشروع صغير ثم يبذل من طاقته وجهده ما يجعل أى صغير كبيرا.

وقد بدأت المؤسسة التعليمية للإخوان المسلمين منذ الأيام الأولى فى الإسماعيلية كنموذج يقدمه "الإمام" لنوعية جديدة من التعليم تستهدف نهضة الإسلام.. وتستهدف نقد التعليم الحديث ودحضه باعتباره "تعليما علمانيا" (٤٧).

وفى عام ١٩٣٥ شكلت الجماعة وفدا لزيارة رئيس الوزراء ووزير المعارف العمومية وممثلى الأحزاب السياسية للمطالبة بتعديل أسس التعليم تعديلا جذريا بحيث يقوم على أسس إسلامية حقة (٤٨). وقد سجلت الجماعة أكثر من مرة انتقادها المرير للحكومة المصرية لكونها حكومة بلد إسلامى وتسمح فى نفس الوقت للبعثات المسيحية بافتتاح مدارس ولأن مدارس الحكومة تدرّس تاريخ أوربا ولا تدرس تاريخ الإسلام (٤٩). ونلاحظ أنه فى عام ١٩٤٨ خاضت صحف الجماعة وشعبها معركة عنيفة ضد المدارس الكاثوليكية. وقد أرسل الأب هنرى عيروط إلى جريدة الإخوان المسلمين رسالة رد على هذا الهجوم لكن الجريدة لم تنشر هذه الرسالة. وأخيرا نجح الأب عيروط فى مقابلة الشيخ حسن البنا، ونشرت جريدة "الإخوان المسلمون" موضوعا عن هذه المقابلة ركزت فيه على ضرورة اتحاد رجال الأديان ضد الإلحاد والملحدين (٥٠).

وفى عام ١٩٣٨ وعندما طلب وزير المعارف العمومية إلى شيخ الأزهر تقريرا عن توحيد نظامى التعليم "الأزهرى والحديث" أسهم الشيخ حسن البنا فى هذا الأمر

بتقرير تفصيلى وجهه فى شكل رسالة إلى الوزير أكد فيها أن هزيمة "العلمانية" لن تكون بغير إتقان رجال الدين لمختلف فروع العلوم والمعرفة. ومن ثم فقد أكد البنا أنه لا يريد تعليما إسلاميا صرفا، ولا علمانيا صرفا وإنما مزيج من الاثنين (٥١).

وفى عام ١٩٤٦ بدأ البنا يولى شبكة التعليم الأخوانية اهتماما خاصا حيث تكونت "لجنة" تأسيس المدارس الابتدائية والثانوية للبنين والبنات "ثم تكونت لجنة الشؤون الثقافية" (٥٢). ودعا البنا أنصاره للتبرع.. وانهالت التبرعات.. ويلاحظ أن أحدى القوائم قد ضمت تبرعا بخمسة الاف جنيه مع وعد تبرع بألف جنيه آخرى لكل مدرسة تؤسسها الجماعة.. وفى عام ١٩٤٦ كان وزير المعارف محمد حسن العشماوى صديقا شخصيا للشيخ حسن البنا فوجه رسالة رسمية للجماعة يدعوها إلى المساهمة فى مشاريع الوزارة لمحو الأمية وتعميم التعليم. وقدمت الوزارة معونة للجماعة ٧٥ قرشا مقابل كل تلميذ يدرس فى مدارسها ثم قدمت لها الكتب والأدوات اللازمة لمدارسها مجانا، ثم قررت الوزارة تغطية نفقات هذه المدارس بالكامل.. وقد دعمت هذه المساعدات ميزانية شبكة التعليم الإخوانية وفوق ذلك قدمت لها اعترافا رسميا. ثم عمد البنا إلى تأسيس شركات مساهمة لتأسيس المدارس وقد نجحت هذه الفكرة أيضا.

واتسعت شبكة المدارس الإخوانية إلى درجة أن الشيخ البنا قد أكد أن كل شعبة من شعب جماعته الألفين أسست مدرسة أو أكثر (٥٣). ولا بد لنا من أن ندرك أثر ذلك فى انتشار الجماعة ونفوذها فى صفوف التلاميذ وأولياء الأمور والمدرسين والمدرسات.

.. وأسهمت الجماعة أيضا فى مختلف أوجه النشاط الاجتماعى. وقد أشرنا إلى دور فرق الجوالة الإخوانية فى مقاومة الملاريا والكوليرا، كذلك فقد وجه البنا جماعته لتأسيس قسم طبى عام ١٩٤٤.. ثم افتتح الشيخ البنا عيادة طبية وأجزاخانة ومستشفى صغير بلغ عدد المترددين عليه ٥١٫٣٠ مريض فى عام

١٩٤٧ ووصلت ميزانية القسم الطبى فى عام ١٩٤٨ إلى . . .ر٢٣ جنيه.

وفى ميدان الخدمات الاجتماعية بدأت الجماعة نشاطا ملحوظا، وفى عام ١٩٤٦ كان لها ٢ . ١ فرعا للخدمات الاجتماعية زادت فى ١٩٤٨ إلى . . ٥ فرع.

وحتى تستطيع هذه الفروع الاستفادة من المعونات المالية الكبيرة التى تقدمها وزارة الشؤون الاجتماعية لمثل هذا النشاط- والذى يتعين عليه وفقا للقانون ألا يرتبط بأى جماعة سياسية- كونت الجماعة فرعا مستقلا عنها للاشراف على هذا النشاط.

وهكذا امتدت يد الجماعة إلى مختلف جوانب الحياة فى المجتمع المصرى وأصبحت مؤسساتها التعليمية والصحية والاجتماعية ركائز بالغة الأهمية تعزز مكانتها وتدعم ماليتها، وتقوى جذورها وسط الجماهير.

* * *

والسؤال الملح والمحير هو: كيف استطاع البنا أن يمول كل هذه المشروعات.. وكيف استطاع أن يدبر الموارد المالية الكافية لجماعة تمتد شعبها لتغطى كل أنحاء مصر.. ولفرق الجوالة بملابسها ومعداتها، وللمدارس، والمستشفيات والمشاغل والمصانع والشركات والمؤسسات.. وهذه المجموعة الهائلة من المتفرغين السياسيين والإداريين.. وفوق هذا وذاك.. للجهاز السرى بمخابئه وأسلحته وأفراده.

وعند صدور قرار حل الجماعة لاحظ الجميع أن إجمالى أصول الجماعة.. من ممتلكات وشعب واثاثات وشركات ومدارس ومصانع ومزارع ومشاغل ومستشفيات.. الخ قد وصل رقما خياليا بالنسبة لحزب سياسى أيا كانت جماهيريته خصوصا إذا ما كان التركيب الطبقى لهذه العضوية ينزع نحوالبرجوازية الصغيرة (الطلاب، الفلاحين، الحرفيين، صغار الموظفين) وهؤلاء جميعا ليسوا فى مستوى مالى يمكنهم من تغطية هذه النفقات.

ومنذ البداية ونحن نلاحظ سلسلة من علامات الاستفهام:

* تبرع شركة قناة السويس الاستعمارية للجماعة (وهو أمر أكده الشيخ البنا نفسه).

* اقرار الشيخ البنا إن إسماعيل صدقى قد عرض عليه معونة مالية مقابل خدمات سياسية من الجماعة (وإن كان البنا قد أكد عدم قبوله لهذه المساعدة).

* إن معظم الخلافات التى ثارت فى صفوف الجماعة قد اتخذت من موضوع التمويل ومصادره مادة للهجوم على الشيخ البنا (فمنذ انقسام الإسماعيلية وحتى انقسام شباب سيدنا محمد ثم انقسام السكرى كانت المسائل المالية عنصرا مشتركا).

* إن الشيخ البنا إذ أحكم قبضته على كل أوجه نشاط الجماعة، انفرد تماما وبشكل خاص بموضوع المالية.

* إن كثيرا من حملات التبرع التى كان ينظمها الشيخ البنا كانت تغطى سريعا.. وبطاقات تفوق الإمكانيات المالية المحدودة لأعضاء غالبيتهم العظمى من محدودى الدخل.. وأن الكثيرين من الإقطاعيين والرأسماليين قد قدموا تبرعات مالية وعينية للجماعة مبررين ذلك بتشجيع الجماعة على محاربة الشيوعية(٥٤).

* إن اتهامات كثيرة قد ترددت فى أن تمويلا خاصا قد تعاطته الجماعة من الإنجليز تارة ومن الأمريكيين تارة أخرى(٥٥).

وبالرغم من كثرة ترديد الاتهام فى العديد من الأبحاث والمصادر.. إلا أن الباحث المدقق يكتفى بطرح هذه التساؤلات ما لم يجد إجابة مؤكدة.. ومعها يستمر أيضا فى طرح سؤال هو: من أين إذن كل هذا السيل المتدفق من التمويل؟

ولكى نؤكد أن هذا السؤال الأخير فى محله تماما، يكفى أن نقدم نموذجا من استثمارات جماعة الإخوان المسلمين:

- شركة الإخوان للصحافة ورأسمالها ...ر٥ جنيه.
- شركة الإخوان للطباعة ورأسمالها ...ر٧ جنيه.
- شركة الإعلانات العربية، ويقال أن رأسمالها قد بلغ ...ر١٠ جنيه(٥٦).

-شركة المعاملات الإسلامية وقد بلغ رأسمالها عام ١٩٤٦ ...ر٣٠ جنيه(٥٧).

- الشركة العربية للمناجم والمحاجر ورأسمالها ...ر٦٠ جنيه.
- شركة الإخوان المسلمين للغزل ورأسمالها ...ر٨ جنيه.
- شركة التجارة والأشغال الهندسية ورأسمالها ...ر١٤ جنيه(٥٨).
- شركة التوكيلات التجارية بالسويس (لم نصل إلى رقم رأسمالها).
- شركة مزرعة العركى (وكانت تمتلك ..٨ فدان) (٥٩).

من أين أتت الجماعة بكل هذه الأموال؟

سؤال يفرض نفسه.. فالأرقام كبيرة جدا خصوصا إذا ما أضفنا إليها الأصول الأخرى كالمدارس والمقار والمشاغل.. الخ.

والإجابة المباشرة صعبة.. إلا إذا وجد الباحث الجرأة فى استصدار أحكام قاطعة مستندا فقط إلى الشبهات القوية وليس أمامنا سوى أن نواصل البحث.. فلعلنا فى فصل قادم نجد المزيد من الضوء نسلطه حول منطقة "الغموض" هذه فى تاريخ الرجل وتاريخ الجماعة.

هوامش الفصل الثانى

١- مذكرات الدعوة والداعية- ص٤٩.

٢- طارق البشرى- المرجع السابق- ص٢٣٨.

٣- "إسرائيل"- ٣١-٧-١٩٣١.

٤- يلاحظ أن انهيار التجربة الدستورية السريع فى الداخل، وتفاقم الأزمة الاقتصادية على نطاق المعسكر الرأسمالى كله، وإصرار الكثير من المفكرين وحتى الليبراليين منهم على رفض الاشتراكية.. لم يترك أمامهم سوى "الإسلامية" مخرجا وأملا.. ويبدو ذلك من نزوع الكثيرين من أمثال د. محمد حسين هيكل وعباس العقاد ود. طه حسين وتوفيق الحكيم نحو البحوث والكتابات الإسلامية.

٥- فتحى العسال- حسن البنا كما عرفته. ص٥٤.

٦- مذكرات الدعوة والداعية- ص٢٢.

7- Khadduri - Ibid, P. 74.

٨- المرجع السابق، ص٧٠.

٩- لمزيد من التفاصيل عن جماعة الشبان المسلمين راجع:

Heyworth - Dumme, J. - Religious and Political Trends in Egypt, (1950) PP. 11- 14.

10 - Khadduri - Ibid. P. 70.

١١- مذكرات الدعوة والداعية، ص ٧٣- ٧٤.

١٢- موسى إسحق الحسينى. المرجع السابق، ص١٧.

وأيضاً: عبد الباسط البنا، تاج الإسلام وملحمة الإمام، ص١٨.

١٣- د. يونان لبيب رزق- الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢. مركز

الدراسات السياسية والاستراتيجية (الأهرام) (١٩٧٧)- ص ٨٨.

١٤- مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٦.

١٥- المرجع السابق، ص ١٤٢.

١٦- السيد محمد عشماوى- تاريخ الفكر السياسى المصرى ١٩٤٥- ١٩٥٢ رسالة دكتوراه غير منشورة- ص٢٠٢.

١٧- الاعتصام، مايو ١٩٧٦.

١٨- حسن البنا- بين الأمس واليوم ص٢١.

19 - Gibb, W.A.R, Modern Trends in Islam (1947) P. 7.

٢٠- حسن البنا- بين الأمس واليوم، ص٩.

٢١- السيد محمد عشماوى- المرجع السابق ص. ٤٠.

٢٢- آمال محمد كامل بيومى- التيارات السياسية فى مصر ١٩٤٥- ١٩٥٢. رسالة ماجستير غير منشورة- ص٢٥.

٢٣- الاهرام ٢٠ يناير ١٩٣٠.

الرجل

١- مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين (١٣٥٧ هـ) (من خطاب لمحمود الجندى جمعة عضو مكتب الارشاد العام).

٢- الدعوة، ١٥-٢-١٩٥٥- حسن العشماوى مقال: ماذا أقول عن حسن البنا؟

٣- الدعوة، ١٥-٢-١٩٥٥- عبد الرحمن البنا مقال: الرجل الذى لم يحمل ضغنا.

٤- الهلال- إبريل ١٩٧٧- مقال: رأى كاتب أمريكى فى حسن البنا- بقلم

روبير جاكسون- ترجمة أنور الجندى.

٥- مذكرات الدعوة والداعية، ص. ١٠.

٦- الهلال- إبريل ١٩٧٧- رأى كاتب أمريكى فى حسن البنا، المرجع السابق.

٧- الرسالة ، ٢٨-٤-١٩٥٢.

8 - Mitchell - Ibid. P. 297.

٩- فتحى العسال، حسن البنا كما عرفته. المرجع السابق.

١٠- موسى اسحق الحسينى، المرجع السابق، ص٥٤.

١١- أبو الحسن الندوى، مذكرات سائح فى الشرق العربى (١٩٥٤) ص٢٦.

١٢- أحمد أنس الحجاجى، الرجل الذى أشعل الثورة (١٩٥٢) ص٤.

١٣- مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٤٦.

١٤- المرجع السابق، ص١١٦.

١٥- المرجع السابق، ص ١٢٤.

١٦- المرجع السابق، ص١٥١.

١٧- المرجع السابق، ص١٤٢.

١٨- المرجع السابق، ص١٤٣.

١٩- طارق البشرى، المرجع السابق ص٣٦٧.

٢٠- مذكرات الدعوة والداعية، ص٢٠٦.

٢١- محمد شوقى زكى، الإخوان المسلمون والمجتمع المصرى- دار العهد الجديد للطباعة (١٩٥٤).

٢٢- قانون النظام الأساسى لهيئة الأخوان المسلمين العامة، م ١٩، ص ١٦.

٢٣- الجمهورية، ٢٣-٩-١٩٥٤.

٢٤- لطفى عثمان، قضية مقتل النقراشى باشا- القاهرة (١٩٥٠) ص ٣٧.

٢٥- الدعوة، ١٢- ٢- ١٩٥٢. مقال صالح عشماوى.

٢٦- محكمة الشعب- الجزء الأول- المحاكمات التى تمت من ٩- ١٣ نوفمبر ١٩٥٤، محاكمة محمود عبد اللطيف، شهادة هنداوى دوير ص ٣٣.

٢٧- الإخوان المسلمون (الاسبوعية) ٢٦- ١٠- ١٩٤٦- حديث الاسبوع.

٢٨- حسن البنا، رسالة التعاليم.

٢٩- أنور الجندى، الإخوان المسلمون فى ميزان الحق- ص ٦٩.

٣٠- قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين وشعبها طبقا للتعديل الذى أقرته الجمعية باجتماعها غير العادى (٣٠ يناير ١٩٤٨) ص٧.

٣١- د. حسين فوزى النجار، الإسلام والسياسة. دار الشعب- القاهرة (١٩٧٧) ص ١٧٤.

٣٢- أبو الأعلى المودودى، نظرية الإسلام السياسية- القاهرة (١٩٧٧) ص ٢٩- ٣٠.

٣٣- إسحق موسى الحسينى، المرجع السابق ص ١١٤.

٣٤- أنور السادات، أسرار الثورة المصرية- ص ٦٦.

٣٥- طارق البشرى، المرجع السابق، ص ٦٩.

٣٦- أنور الجندى، الإخوان المسلمون فى ميزان الحق، ص ٤٢.

٣٧- مذكرات الدعوة والداعية، ص ٩٨.

٣٨- عبد الباسط البنا، تاج الإسلام وملحمة الإمام، القاهرة (١٩٥٢) ص٢٦.

٣٩- عبد الخبير الخولى قائد الدعوة الإسلامية، حسن البنا (١٩٥٢)، ص٢١.

٤٠- محمد لبيب البوهى، الإيمان والرجل- القاهرة (١٩٥٠) ص ٥٩.

41- Mitchell - Ibid- P. 189.

٤٢- الهلال، أبريل ١٩٧٧- رأى كاتب أمريكي.. المرجع السابق.

٤٣- المرجع السابق.

44- Mitchell - Ibid, P. 190.

٤٥- الدعوة، ٢٢- ٤- ١٩٥٢.

٤٦- مذكرات الدعوة والداعية، ص ٩٦.

٤٧- المرجع السابق، ص ١٣٨.

٤٨- الهلال- مايو ١٩٧٧. مقال: حسن البنا في رأى كاتب أمريكي.

٤٩- مجلة الشباب، ١٤- ١١- ١٩٤٧، ص ٣. وراجع أيضا أحمد أنس الحجاجي، رسالة من المريخ، ص ٥٦.

٥٠- محمد الغزالي، الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين (الطبعة الثالثة ١٩٥٣) ص ٢٦.

٥١- محمد الغزالي، في موكب الدعوة- (١٩٥٠)- ص ١٢.

٥٢- محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي- القاهرة (١٩٥٠)- ص ١٢.

٥٣- عبد المجيد الباجوري، حسن البنا. القاهرة- (١٩٥٢)- ص ١٢.

وراجع أيضا: عبد القادر عودة، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه (١٩٥٢) ص ٢٢.

٥٤- محمد الغزالي، الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين- المرجع السابق ص ٢٧.

٥٥- المرجع السابق ص ٤٧.

٥٦- الإخوان المسلمون- العدد الممتاز الصادر في عام ١٩٤٨ بمناسبة مرور عشرين عاما على تأسيس الجماعة.

٥٧- فتحي العسال، المرجع السابق، ص ١٢٠.

٥٨- المرجع السابق، ص ١٢٧.

٥٩- حسن البنا. بين الأمس واليوم.

٦٠- محاكمات الثورة- الكتاب الأول- محاكمة إبراهيم عبد الهادى، ص ١٧٩.

٦١- الجمهورية،-١٣- ٢- ١٩٥٤.

الجماعة

1- Vatikiotis- The Modern History of Egypt - op-cit. P. 323.

2- Khadduri - op. cit - p. 73.

3- Grunebaum - op. cit - p. 186.

4- Ibid - p. 247.

5- Wheellock, Keith - Nasser's New Egypt. London (1960) - p. 3.

6- Vatikiotis - op. cit. p. 323.

٧- هكذا أورد الشيخ حسن البنا التاريخين معا، لكن أحد الباحثين فى تاريخ الجماعة وهو روزنتال فى مقاله "الإخوان المسلمون فى مصر" المنشور فى مجلة "عالم الإسلام" عدد أكتوبر ١٩٤٧ "اكتشف عند مقارنة التقويمين الهجرى والميلادى أن ذى القعدة ١٩٤٧هـ يوافق شهرى أبريل- مايو ١٩٢٩. ونلاحظ أيضا أن الجماعة قد احتفلت بعيد تأسيسها العاشر فى يناير ١٩٣٩ مما يرجح أن تاريخ التأسيس هو عام ١٩٢٩ فعلا. لكن الجماعة عادت فاحتفلت بالذكرى العشرين لتأسيسها فى سبتمبر ١٩٤٨ الأمر الذى عاد بنا إلى ترجيح عام ١٩٢٨ خاصة وأنه هو التاريخ المذكور

في المادة الأولى من قانون النظام الأساسي للهيئة العامة للإخوان المسلمين"، ص ٥.

٨- مذكرات الدعوة والداعية، ص ٩٦- ١١٠.

٩- المرجع السابق، ص ٨٤- ١٠٨.

10- Mitchell - op. cit. p. 9.

11- Vatikiotis - op. cit. p. 262.

١٢- مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٠٩.

١٣- المرجع السابق، ص ١٠٨.

١٤- لبيب البوهي، الإيمان والرجل- ص ١٠.

15- N. Safran, Egypt in Search of political Community - (1961) p. 202

١٦- ليوناردو بايندر، الثورة العقائدية في الشرق الأوسط- تعريب خيري حماد- دار القلم بالقاهرة (١٩٦٦)، ص ٧٨.

١٧- د. اسحق موسى الحسيني، المرجع السابق ص ٢١.

١٨- لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع: د. رفعت السعيد، مصطفى النحاس- دار القضايا- بيروت (١٩٧٦).

19- Peters Donald, The Moslem Brotherhood: Terrorists or Just Zealots - Reporter, VIII (17 Mar. 1953), p. 8.

٢٠- عبد الباسط البنا، المرجع السابق.

٢١- مذكرات الدعوة والداعية، ص ٢١٧.

٢٢- عبد الباسط البنا، المرجع السابق، ص ٢٦.

٢٣- مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٤٥

٢٤- حسن البنا، تذكرة الداعي- مقال منشور بمجلة "الإخوان" الشهرية، العدد التاسع- بدون تاريخ.

٢٥- د. يونان رزق، المرجع السابق، ص ١٠٧.

٢٦- مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٨٣.

٢٧- طارق البشرى، المرجع السابق ص ٥٢.

٢٨- المؤتمر الخامس، ص ١٤.

٢٩- المرجع السابق، ص ١٦.

٣٠- المرجع السابق، ص ٢٤.

٣١- محمد شوقي زكي، المرجع السابق ص ١٢١.

٣٢- الدعوة، ١٥- ٤- ١٩٥١.

33- Mitchell - op. cit. p. 196.

٣٤- نظام الأسر: نشأته وأهدافه، ص ١٨.

٣٥- المرجع السابق، ص ١٨.

٣٦- المرجع السابق، ص ١٥.

٣٧- رضوان محمد رضوان، المأثورات.

٣٨- أحمد أنس الحجاجي، روح وريحان- المرجع السابق ص ٢٠٠.

٣٩- لمزيد من التفاصيل راجع: الأخوات المسلمات، الرسالة الأولى- القاهرة- (١٩٥١).

40- Mitchell - o[. cit. p. 173.

٤١- حسن البنا، الرسائل الثلاث. ص ١١.

٤٢- الدعوة، ١٢- ٢- ١٩٥٢.

43- Mitchell - op. cit. p. 185.

٤٤- مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٤٩.

45- Heyworth - Dunne - op. cit. p. 57.

46- Vatikiotis - op. cit. p. 361.

47- Mitchell - op. cit. p. 284.

٤٨- حسن البنا، الرّسائل الثلاث، ص ١١٧.

٤٩- عبد القادر عودة، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه.

٥٠- الإخوان المسلمون، ٥- ٨- ١٩٤٨.

٥١- الإخوان المسلمون، ١٧- ٧- ١٩٤٦.

٥٢- الإخوان المسلمون، ١٠- ٧- ١٩٤٦.

٥٣- حسن البنا، قول فصل- ص ٣٤.

54- Mitchell - op. cit. p. 182.

55- Ibid - p. 182.

56- Heyworth - Dunne - Ibid. p. 57.

57, 58- Mitchell, op. cit. p. 275.

٥٩- المصور، ١١- ١١- ١٩٥٥.

الفصل الثالث

الصعود.. هبوطا..

وإذ يعزز الشيخ البنا صفوف جماعته، وينتقل بها فى هدوء ويسر وبلا ضوضاء من مرحلة لمرحلة محققا نجاحا كبيرا ليس فقط فى إقامة بناء تنظيمى محكم، وإنما أيضا فى إخفاء هويته عن الجميع.. متباعدا عن أى اشتباك، محاذرا من أن يعادى أحدا أو يعاديه أحد.

إذ ينجح الشيخ فى اجتياز مرحلتى الدعوة والإعداد وإذ تقترب سفينته من شاطىء "التنفيذ" يلبس الشيخ ثيابا جديدة، وتبدو جماعته فى طور جديد تماما.

.. "إلى الآن أيها الإخوان لم تخاصموا حزبا ولا هيئة، كما أنكم لم تنضموا إليهم، ولقد تقول الناس عليكم فمن قائل أنكم وفديون نحاسيون، ومن قائل أنكم سعديون ماهريون، ومن قائل أنكم أحرار دستوريون، وأنكم بالحزب الوطنى متصلون، أو لمصر الفتاة منتسبون، إلى غير ذلك، وإنكم لبريئون، فما اتبعتم غير رسوله زعيما، وما ارتضيتم غير كتابه منهاجا وما اتخذتم سوى الإسلام غاية، فدعوا كلام الناس جانبا وخذوا فى الجد والزمن

كفيل بكشف الحقائق"(١).

ويحين الحين.. فلابد أن تكشف الجماعة عن هويتها السياسية، لكن الشيخ الشديد الحذر ظل دوما حريصا علي تغليف كل موقف، وعلى إضفاء غمامة من الغموض علي جماعته.

"يقولون نحن فى حيرة من أمر الإخوان المسلمين أهى طريقة صوفية أم جمعية خيرية، أم حزب سياسى وأى شيء يقصدون، وفى أى طريق يسيرون، أما نحن الإخوان فقد تجاهلنا هذه المسميات وأخذنا فى الطريق الأول الذى لا يصلح أمر الناس إلا عليه.. الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسول الله، ونهجنا منهج الإسلام ووسيلتنا إيمان ومحبة وعمل"(٢).

ويمضى الشيخ يوسع من قاعدة جماعته ونفوذها.. مكتفيا بشعارات عامة قد لا يختلف عليها أحد. فى عام ١٩٢٩ كان لها أربع شعب أصبحت خمسا فى عام ١٩٣٠ ثم عشرا فى عام ١٩٣١ ثم ١٥ فى عام ١٩٣٢.. ثم تأتى مرحلة-سنتحدث عنها طويلا فيما بعد-يقفز فيها عدد شعب الجماعة إلى ٣٠٠ شعبة فى عام ١٩٣٨. أنها مرحلة التقاء الثالوث "علي ماهر-الشيخ المراغى-حسن البنا" فى محور واحد مناهض لحزب الوفد وموال للسراى. ويستمر الصعود.. ففى عام ١٩٤٠ تصبح الشعب ٤٠٠ شعبة.. حتى تصل إلى ألفى شعبة فى عام ١٩٤٨.

ويقول الشيخ البنا فى شهادة له أمام القضاء أن عدد أعضاء جماعته فى عام ١٩٤٥ كان (حسب الإحصاء نصف مليون عضو) (٣). ولا يمضى سوى وقت قليل-بضعة أشهر فقط-حتى يعلن الشيخ البنا في حديث له لمجلة آخر ساعة "فى مصر ألف وخمسمائة شعبة تضم مليونا من الإخوان ولنا شعب أخرى فى الشرق كله تجعل منا مليونا ونصفا من الإخوان العاملين عدا الإخوان المناصرين وهم كثيرون"(٤). (ولعلنا هنا نلحظ الاختلاف الكبير فى

الأرقام بما يوحى ببعض المبالغة من جانب الشيخ ومحاولة للتظاهر بالقوة).

لكن جريدة الإخوان تعود فتقول أن شعب الإخوان"تعدو الألفين وخمسمائة، وعدد أعضائها يربو على نصف مليون". بل إن الشيخ البنا نفسه يعود للتواضع مرة أخرى فيقول فى شهادة له أمام محكمة أخرى "أن جماعة الإخوان المسلمين تتكون من نحو ألف شعبة منبثة فى البنادر والقري ويتراوح عدد أفراد كل شعبة ما بين ٥٠ و ٢٠٠ عضو وبذلك يكون مجموعهم ما بين ٥٠٠,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠ من مختلف الطبقات، عدا الطلبةفهم لا يدخلون ضمن الإحصاء إذ لا يمنحون حق العضوية.. وقد توزع عليهم نشرات الجماعة للعلم بها"(٦).

ومرة أخرى يتكرر رقم النصف مليون على لسان الشيخ البنا فيقول فى آخر رسائله "قول فصل" والذى كتب بعد أن صدر قرار حل الجماعة.. أن عدد أعضاء الجماعة نصف مليون عضو ونصف مليون من الأنصار والأصدقاء(٧).

ولكن بعض الباحثين يقدم رقما عشوائيا يصل إلى ٢ مليون عضو(٨).

وعلى أية حال فإن البنا-وأيا كان عدد الأعضاء الذين التفوا حوله-قد أعطى نفسه الحق فى أن يتحدث باسم "٧٠ مليون عربى و ٣٠٠ مليون مسلم"(٩).

والذى لا جدال فيه.. أن جماعة "الإخوان المسلمين" كانت واحدة من أكثر القوى السياسية نفوذا وأحسنها تنظيما وأن الإخوان كانوا بالنسبة لأصدقائهم ولخصومهم على السواء ملء السمع والبصر.

ويشهر حسن البنا سيفه، مقتحما ميدان السياسة.. متسائلا فى تحد وربما فى سخرية أيضا "هل اطمأنت الجنوب فى المضاجع؟ هل جفت الجفون من المدامع؟ هل حوربت الجريمة واستراح المجتمع من شر المجرمين؟ وهل استغنى

الفقراء، وأسبغت الملايين التى تفوق الحصر بطون الجائعين؟ هل ساقت هذه الملاهى والمفاتن التى ملأت الفضاء وسرت "مسرى الهواء العزاء إلى المحزونين؟".

والجواب جاهز عند الشيخ وقاطع أيضا وهو لا.. "فالأمة فى قلق واضطراب وحيرة وارتباك وقد يئست من صلاحية هذه المناهج والنظم" ثم يعلن "أن واجبنا أن تقود هذه النفوس الحائرة ونرشد هذه المشاعر الثائرة"(١٠).

.. وهكذا يقتحم الشيخ البنا ميدان السياسة معلنا أنه سيقود "النفوس الحائرة".. ولكن السؤال الكبير ستحاول الصفحات القادمة الإجابة عليه هو..يقود من؟. وإلى أين؟.

سياسة.. بلا برامج

.. ولم تكن الأسماء بغير مدلول.

فالشيخ الذى أتقن فن استخدام الكلمات يعرف كيف ينتقيها.

"النذير" كان الإسم الذى اختاره حسن البنا لمجلته التى قرر أن يقتحم بها ميدان معركة "التنفيذ" ويعلن بها نفسه كقوة سياسية جديدة.

وقد صدر العدد الأول من "النذير" فى مايو ١٩٣٨، وفى افتتاحيته أعلن البنا أنه وجماعته سوف ينتقلان "من دعوة الكلام وحده إلى دعوة الكلام المصحوب بالنضال والأعمال". وإذ يعدد البنا القوى السياسية فى مصر فإنه يؤكد لأتباعه أنهم لن يقفوا بعد الآن موقفا سلبيا بل "ستخاصمون هؤلاء جميعا فى الحكم وخارجه خصومة شديدة لديدة إن لم يستجيبوا لكم"(١).

نحن سياسيون.. كانت هى صيحة الشيخ البنا الذى ظل ولفترة طويلة يناور بحثا لجماعته عن مكمن تعيش فيه وتنمو.. "فالإسلام الذى يؤمن به

الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركنا من أركانه.. ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد، وقد جعل النبى الحكم عروة من عرى الاسلام، والحكم معدود فى كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع. فالإسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء، لا ينفك واحد منهما عن الآخر"(٢) وهؤلاء الذين يظنون أن تعاليم "الإسلام إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحى مخطئون فى هذا الظن، فالإسلام عبادة وقيادة ودين ودولة، وروحانية وعمل، وصلاة وجهاد، ومصحف وسيف، لا ينفك واحد من هذين عن الآخر"(٢).

ويستند البنا فى دعواه هذه إلى منطق عدد من الدعاة الإسلاميين.. وخاصة أبو الأعلى المودودى الذى كانت له بالجماعة علاقات فكرية وعملية وثيقة.. يقول المودودى "الإسلام نظام جامع محكم أسس على مبادىء حكيمة متقنة، ومن أركانه الكثيرة المهمة إلى الجزئيات الصغيرة الدقيقة كلها ترتبط بتلك المبادىء ارتباطا منطقيا، وكل وضع فيه للحياة الإنسانية بمختلف شعبها من النظم، إنما قد أخذ روحه وأقتبس جوهرة من تلك الأصول الأولية، ومن هذه المبادىء والأصول تخرج الحياة الإسلامية بمختلف فروعها، ولذلك فإن أردنا أن نعرف شعبة من شعب الحياة الإسلامية معرفة صحيحة صادقة فلا محيد من أن نرجع إلى أصلها فإننا لن نتمكن من الدخول إليها من غير ذلك الباب، ولن نعرف حقيقتها وماهيتها إلا بالإمعان فى أصولها وقواعدها"(٤).

ثم يؤكد المودودى فى كتاب آخر "إن كلمة الدين فى القرآن تقوم مقام نظام بأكمله يتركب من أجزاء أربعة هى:

١ – الحاكمية والسلطة العليا.

٢ – الطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والسلطة.

٣ - النظام الفكرى والعملى المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية.

٤ - المكافأة التى تكافئها السلطة العليا على أتباع ذلك النظام والإخلاص له"(٥).

ولقد تمسك البنا بهذا الموقف، لكن الغريب أنه أسبغ على الملك الفاسد فاروق وعلى طاغوت القصر الملكى صفة "الحاكمية" بما تكفله لها هذه النظرية من سلطات تستوجب "الطاعة والإذعان".

على أية حال.. لقد آن الأوان لكى تكشف الجماعة عن هويتها السياسية وبدأت تخوض حربا إعلامية تبرر فيها نهجها الجديد، "أتحسب أن المسلم الذى يرضى بحياتنا اليوم ويتفرغ للعبادة ويترك الدنيا والسياسة للعجزة والآثمين والدخلاء والمستعمرين يسمى مسلما؟ كلا إنه ليس بمسلم فحقيقة الإسلام جهاد وعمل ودين ودولة"(٦). وهى تستند إلى دور الرسول فى قيادة الدولة الإسلامية الأولى. "لقد كان رسولنا الكريم يوقع المعاهدات ويباشر المفاوضات ويراسل الملوك ويسير الجيوش فى الوقت الذى كان فيه رجلا يصلى بالناس ويقيم شعائر الإسلام فهل كان فى هذا رجلا سياسيا؟ نعم. كان كذلك ونحن من بعده نسير على منهاجه ونعتقد أن السياسة على قواعد الإسلام وإعلاء كلمة الله من صميم فكرتنا". (٧).

بل أن الشيخ البنا نفسه وهو الذى حاذر الأقتراب من السياسة طوال السنوات العشر الأولى من دعوته يقول "أستطيع أن أجهر فى صراحة بأن المسلم لا يتم إسلامه إلا إذا كان سياسيا بعيد النظر فى شؤون أمته مهتما بها غيورا عليها.. وأن على كل جمعية إسلامية أن تضع فى رأس برنامجها الإهتمام بشؤون أمتها السياسية وإلا كانت تحتاج نفسها إلى أن تفهم معنى الإسلام"(٨).

والإسلام عند الإخوان "وطن" و"جنسية". يقول عبد المجيد حسن-قاتل

النقراشي باشا- في أقواله أمام المحقق "الإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، وسياسة وقوة، وثقافة وقانون بمعنى أنه فى عهد المسلمين الأوائل، ما كانش فيه حاجة اسمها سياسة، فكان الحاكم هو الإمام وهو الحاكم فى الوقت ذاته، وهو قائد الجيوش، يتفرغ للسياسة والدين على أن السياسة جزء من الدين"(٩).

وهذه الكلمات هى مجرد انعكاس لتعاليم الشيخ البنا التى تقول "أيها الناس الإسلام فكرة وعقيدة ونظام ومنهاج لا يحده موضع ولا يقيده جنس، ولا يقف دونه حاجز جغرافى ولا ينتهى بأمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها"(١٠).

لكن البنا كعادته لا يوصد أى باب، بل يترك لنفسه منفذا.. ولهذا يلجأ دوما-وفى مسألة العلاقة بالسياسة بالذات-إلى التعمية والغموض ويتعمد التعميم والألغاز "هل نحن طريقة صوفية، جمعية خيرية، مؤسسة اجتماعية، حزب سياسى، نحن دعوة القرآن الحق الشاملة الجامعة.. نحن نجمع بين كل خير"(١١). لكنه لا يلبث أن يقول "أن الإخوان دعوة سلفية، طريقة صوفية، هيئة سياسية، جماعة رياضية، رابطة علمية ثقافية، شركة اقتصادية، فكرة اجتماعية"(١٢). ثم يعود البنا إلى إنكار كلماته، ليلتوى بالألفاظ فى اتجاه معاكس " أيها الإخوان أنتم لستم جمعية خيرية،ولا حزبا سياسيا،ولا هيئة موضعية الأغراض محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد، ونور جديد، وصوت داو"(١٣).

ونعود مرة أخرى إلى الألفاظ التى لا تحمل مدلولا محددا "روح جديد" "نور جديد" "صوت داو". ولا يملك الباحث سوى الحيرة.. هل كان الأمر يحتمل كل هذا التخبط أم أنه تخبط مخطط ومقصود.. فإذا ما حاصر السؤال المحدد "الشيخ" أجاب فى براءة "ليس هناك شيء اسمه دين وشيء

اسمه سياسة، هذه بدعة أوربية"(١٤). ولا يكون أمام أي باحث مهما كان محايدا إلا أن يفترض أن الشيخ كان يتعمد وبشكل ظاهر الخلط والمراوغة.. وتصف باحثة غربية هذا الأسلوب بأنه "أسلوب ذو فاعلية واقتدار فهو يؤكد على الطابع الديني للجماعة إذا ما جابهه في الحكومة رئيس قوي، ولكنه لا يلبث أن ينغمس في الصراعات السياسية إذا ما وجد أمامه رئيسا ضعيفا للحكومة"(١٥). ويأتي باحث مصري ليعلق على هذا الموقف فيقول: "وهكذا استطاع البنا أن يراوغ الحكومات والأحزاب والرأى العام بوجهى الدعوة، وكان هذا الغموض يحل مشكلة أخرى للجماعة. فهى تنظيم سياسى، أى حزب يسعى للسلطة بينما تنادى بالقضاء علي الحزبية وإلغاء كل الأحزاب.. ثم كان هذا الغموض أيضا يعفى الجماعة من تحديد الأهداف الواضحة فيما يتعلق بالقضايا السياسية الجوهرية التى تواجه الأمة كالمسألة الوطنية، ومشاكل نظام الحكم الداخلى، ويعفيها من تفسير الموقف العملى الذى تتخذه فى كل مناسبة، ويمنحها القدرة على أن تطرح للناس موضوعا أو مشكلة مغايرة تماما لما يشغل الجميع من مشاكل سياسية حادة فى أية لحظة"(١٦).

ولعله من المفيد.. وقبل أن نخوض مع الشيخ حسن البنا بحر السياسة المتلاطم الأمواج المختلط المواقف أن نشير إلى معارضات قوية ذات وزن إسلامى حقيقى حاولت أن تفند فكرة الشيخ وجماعته من قضية الدين والسياسة.

يقول الباحث المدقق حسين فوزي النجار "ويضع محمد مبادىء للحكم والسياسة، ولكنه لا يضع نظاما للحكم ولا يتخذ فى السياسة قاعدة أو أسلوبا إلا ما يتفق مع مبادىء الأخلاق وهدى الرسالة وخير المسلمين"، ويرد على مقوله الشيخ حسن البنا من أن النبى كان يجمع بين مهمة رجل الدين ورجل الدولة فيقول "من الخطأ أن تقول أن محمدا كان يسوس أمور الدين

إلى جانب قيامه بشؤون الجماعة الإسلامية، فإذا حق لنا أن نقول أنه قام مع الصحابة بسياسة المسلمين فما كان في أمور الدين إلا مبعوثا واختاره الله لتبليغ رسالته إلى العالمين"(١٧). ويقول "لقد تحولت الجماعة الإسلامية غداة التآمها بالمدينة إلى جماعة سياسية بحكم ما واجهت من ظروف حياتها الجديدة، ولعل ذلك كان من أسباب الخلط بين فكرتى الدين والدولة فى الإسلام ولم يجمع النبى بينهما، ولم يأت فى القرآن ما يشير إلى إقامة الدولة، وإن ورد فيه ما يشير إلى الأمة الإسلامية بمعنى الدعوة إلي الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر"(١٨). ويؤكد على أن "التشريع الإسلامى تشريع للحياة وللحضارة وليس تشريعا للدولة"(١٩).

.. فقط أردنا الإشارة إلى أن دعوى الشيخ لم تمر بغير معارضة من الباحثين الإسلاميين.. ولنعد، إلى مقولته عن الدين والسياسة.. ولنسجل ملاحظاتنا سريعا على مواقفه العملية.

فالبنا إذ يعلن نفسه كزعيم سياسى.. ويقدم جماعته كهيئة سياسية لا يستنكف من أن يحرم الآخرين جميعا من حق العمل السياسى.. "لقد آن الأوان أن ترتفع الأصوات بالقضاء على نظام الحزبية فى مصر، وأن يستبدل به نظام تجتمع فيه الكلمة وتتوفر جهود الأمة حول منهاج قومى إسلامى صالح"(٢٠).

والشيء الذى قد يبدو محيرا للباحث المحايد هو أن البنا كان يؤكد أن الأحزاب والنظام الحزبى ليسا ضروريين لقيام حكومة تمثل الشعب إذ يمكن لهذه الحكومة أن تقوم بدون حزبية ذلك لأن الأحزاب تقسم الأمة ولا تتفق مع النهج الإسلامى(٢١).

وإذ يدعو البنا صراحة إلى حل كل الأحزاب القائمة فإنه لا يجد غضاضة فى أن يطالب الجميع بأن يفسحوا له الطريق وحده "فحل الأحزاب السياسية

سيتلوه قيام حزب واحد على أساس برنامج إسلامى إصلاحى"(٢٢). ولعله يبدو غريبا أن يمعن البنا فى فكرة تصفية كل الأحزاب السياسية ما عدا حزبه إلى درجة الاستشهاد بتجربة الحزب الواحد فى روسيا وتركيا وكلاهما دولتان لا ترضى جماعة الإخوان عن نهجهما(٢٣).

وتستمر علامات الاستفهام وعلامات التعجب في التراكم.

ولا نملك إلا أن نمضى مع زحلة الشيخ السياسى لنسجل ملاحظتنا.

فالبنا يقدم نفسه كحزب سياسى يريد السلطة.. بل ويؤكد أكثر من مرة أنه لن يسعى إلى السلطة وإنما السلطة هى التى ستسعى إليه "فنحن لا نسعى للحكم، ولكن هو الذى سيسعى إلينا فيما نعتقد.. وحينئذ نفكر فى تحديد موقفنا منه.. أنقبله أم نرفضه!"(٢٤)، لكنه مع ذلك لا يقدم أى برنامج سياسى، بل لعله قد تهرب كثيرا من تحديد أى موقف سياسى واضح من أية قضية قومية أو وطنية أو اجتماعية. وإذا ما سئل كأى زعيم سياسى عن برنامجه أجاب "نحن مسلمون وكفى، ومنهاجنا منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفى، وعقيدتنا مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله وكفى"(٢٥). ثم هو لا يزيد الأمر تفصيلا، فإذا أبدى البعض شكوكه حول إمكانية العمل السياسى دون برنامج سياسى.. اتهمه الشيخ بأنه "مريض القلب، سىء الظن، غير سليم القلب، فهو يطعن ويتجنى ويتلمس للبراءة العيب، وكلا الأمرين وبال على صاحبه وهلاك للمتصف به".

غير أن الأمر ليس بهذه السهولة.. إذ لا يمكن لرئيس جماعة سياسية أن يقتحم ميدان العمل السياسى معلنا أن الإسلام "طاعة وحكم ومصحف وسيف" دون أن يدفع الجميع إلى التساؤل من سيستعمل السيف؟ وضد من؟ ولعل التساؤلات بدت فى محلها تماما عندما استخدم السيف بالفعل أسلوبا فى تعاملات الجماعة مع خصومها.

والإخوان لا ينكرون حقيقة أنهم جماعة سياسية بغير برنامج سياسى.

يجيب واحد من قادة الإخوان المسلمين-هنداوى دوير- فى شهادة له أمام المحكمة.. ردا علي سؤال المدعى: ألم تضعوا أبحاثا عن كيفية الحكم بالإسلام؟ قائلا "أيام الأستاذ البنا طلبت منه أن يكتب فى هذا فقال لى.. أذكر بالضبط أنه قال لى أن إحنا شبعنا كتب وكتابات. وأن المكتبة الإسلامية مليئة،وأن مهمتنا مش إننا نعمل كتب بل مهمتنا إننا نعمل رجالة".

"ويعود المدعى ليسأله: يعنى مفيش تحديد ولا نص؟

فيجيب: الواقع أن الإخوان لم يعدوا هذا الدستور. وأنا قلت لحضراتكم أننى قلت للأستاذ البنا إحنا عاوزينك تفضى شوية على أساس أنك تكتب لنا إية اللى يطبقه الإخوان.. وأذكر أنه قال فى مناسبة ما أن الناس يجتمعون على مبادىء لا على تفاصيل،. لأننا إذا دخلنا فى التفاصيل فسنختلف ونتفرع ولا ننتهى إلى خير كثير.. وإن إحنا ماشيين على مبادىء إسلامية ولو تعرضنا للتفاصيل فيمكن يجىء فقيه ويختلف معنا وجايز نستهلك فى مسائل فرعية"(٢٦).

ويؤكد قائد آخر من قواد الجماعة.. هذه الفكرة، ويؤكد أن انعدام البرنامج كان أمرا مقصودا. يقول منير الدلة عضو مكتب الإرشاد العام فى شهادته أمام محكمة الشعب خلال محاكمة الأستاذ المرشد حسن الهضيبى:

"وكيل النائب العام هل لجمعية الإخوان برنامج لنظام الحكم؟

- الشاهد: ليس لجمعية الإخوان برنامج مفصل لنظام الحكم.

- وكيل النائب العام: على أى أساس تقوم دعوتهم؟

- الشاهد: الجمعية أو الهيئة تنادى بالدعوة الإسلامية، وتدعو إلى الفكرة العامة الإسلامية، الفكرة الإسلامية كفكرة عامة، ولا تضع نظاما أو

نظام محدد دقيق يسمى نظام الحكم الإسلامى. ولكنها ترسم خطوطا عريضة إذا تحققت وجد نظام الحكم الإسلامى، ويمكن أن يوجد داخل هذه الخطوط عدة أنظمة تبقى كلها إسلامية، إذا كان متوفر فيها الشروط العامة التى يضعها الإسلام. أما اختيار نظام معين وتسميته أنه نظام إسلامى فهذه فكرة دقيقة، وهذا هو ربما من الأسباب التى دعت الجمعية بألا ترسم صورة وتفرضها بتسميتها أنها نظام الحكم الإسلامى واكتفت ببيان الدعوة الإسلامية أو الأسس الإسلامية فى الناحية السياسية مطالبة به في منحى الحياة العامة.

- وكيل النائب العام: ونظام الحكم فى مصر هل يخالف الإسلام؟

- الشاهد: الإسلام يضع القواعد العامة، والحكم يبقى إسلامى إذا كان فيه شورى بأى صورة من الصور ومفيش صورةمحددة. وما دام قائما على العدالة ومسؤولية الحاكم عن أعماله الفردية هذه المعانى لو تتوافر يبقى نظام إسلامى.. وإذا استكمل الوضع الدستورى فى الوضع الحالى أى لما يستكمل نظام الشورى بإعادة الحياة النيابية يبقى الوضع الإسلامى"(٢٧).

ونتوقف أمام أكثر من علامة إستفهام ترد فى شهادة عضو مكتب الإرشاد العام.

* لا نظام إسلامي واحد محدد بل "يمكن أن يوجد داخل هذه الخطوط عدة أنظمة تبقى كلها إسلامية"!.

"اختيار نظام معين وتسميته أنه نظام إسلامى فكرة دقيقة"!

* نظام الحكم الذى كان قائما فى مصر عام ١٩٥٤ نظام إسلامى فقط تنقصه "الشورى" !

ولعله من حق الجماعة علينا أن نفحص هذه الافكار فلقد تكون كلاما أرسل من سجين رهن القيد، كما اعتاد الكثير من الإخوان أن يفعلوا فى

اعترافاتهم.. ولهذا فلعله من الضرورى أن نتلمس حقيقة "النظام الإسلامى" الذى دعا الإخوان المسلمون إليه.

يقول الشيخ حسن البنا فى رسالته الحاسمة إلى الزعماء المصريين فى عام ١٩٣٨ والمعنونة "نحو النور": "لا بد من جديد فى هذه الأمة، هذا الجديد هو تغيير النظم المرقعة المهلهلة التى لم تجن منها الأمة غير الانشقاق والفرقة.. هو تعديل الدستور المصرى تعديلا جوهريا توحد فيه السلطات". ثم إذا به يتوعد بأنه ما لم يستجب الزعماء لمطلب توحيد السلطات هذا "فإذا أبوا فجاهدوهم به جهادا كبيرا" (٢٨).

وفى رسالة المؤتمر الخامس يقول البنا "أن من نصوص الدستور المصرى ما يراه الإخوان المسلمون مبهما غامضا يدع مجالا واسعا للتأويل والتفسير الذى تمليه الغايات والأهواء، فهى فى حاجة إلى وضوح وإلى تحديد وبيان. هذه واحدة والثانية هى أن طريقة التنفيذ التى يطبق بها الدستور.. طريقة أثبتت التجارب فشلها وجنت منها الأمة الاضرار لا المنافع فهى فى حاجة شديدة إلى تحوير وإلى تعديل يحقق المقصود ويفى بالغاية.. ولا بد أن تكون فينا الشجاعة الكافية لمواجهة الأخطار وللعمل على تعديلها. أما الأمثلة التفصيلية والأدلة الوافية ووصف طرائق العلاج والإصلاح ففى رسالة خاصة إن شاء الله" (٢٩).

لكن البنا سرعان ما يتراجع خوفا من أن يتهم بمناهضته للدستور فيقول "إن الدستور بروحه وأهدافه العامة لا يتناقض مع القرآن من حيث الشورى وتقرير سلطة الأمة وكفالة الحريات. وأن ما يحتاج إلى تعديل منه يمكن أن يعدل بالطريقة التى رسمها الدستور ذاته" (٣٠).

بل هو يواصل تراجعه.. إلى درجة تثير الدهشة "ما كان لجماعة الإخوان المسلمين أن تنكر الاحترام الواجب للدستور باعتباره نظام الحكم المقرر فى

مصر، ولا أن تحاول الطعن فيه أو إثارة الناس ضده وحضهم على كراهيته، ما كان لها أن تفعل ذلك وهى جماعة مؤمنة مخلصة تعلم أن إهاجة العامة ثورة، وأن الثورة فتنة، وأن الفتنة فى النار" (٣١).

لماذا كل هذه القعقعة إذن؟ ولماذا الحديث عن الجهاد وعن النظام الإسلامى وعن التغيير الجذرى.. إذا كان النظام القائم سواء فى عهد "جلالة الملك" فاروق (صديق الإخوان) أو فى عهد جمال عبد الناصر (عدوهم) مقبول من جانبهم.. ولا ينكرون "الاحترام الواجب له، باعتباره نظام للحكم المقرر".

لقد خشى الشيخ البنا من التصادم مع السلطة وخشى من الثورة فأوقع نفسه بنفسه بين شقى الرحى، يريد ولا يريد، طالب بنظام إسلامى وبالجهاد بحد السيف من أجل تحقيقه، ثم يقبل ما هو قائم "ولا يحاول الطعن فيه أو إثارة الناس ضده".

والدهشة لم تتملكنا وحدنا من هذا الموقف المتناقض.. فالباحث الأمريكى ريتشارد ميتشل يعرب عن دهشته قائلا "دعا البنا إلى النظام الإسلامى، لكنه استخدم هذا التعبير استخداما مطاطا وأحيانا عنى به الدولة الإسلامية، وعلى أية حال فقد قال البنا وأكد الهضيبى من بعده هما وعدد من كتاب الإخوان أن النظام الدستورى البرلمانى القائم فى مصر يمكنه إذا ما أدخلت عليه بعض إصلاحات، يمكنه أن يلبى المتطلبات السياسية للدولة الإسلامية". ويواصل ميتشل تعليقه قائلا "وإذا كان هذا صحيحا فإن النشاط السياسى للإخوان المسلمين إنما يهدف إلى شىء آخر غير الإطاحة بالنظام القائم" (٣٢).

لكن باحثا امريكيا آخر يرى أن كل هذه الأقوال "كانت مجرد ستار من الدخان يخفى سعى الإخوان للانقضاض على النظام، ذلك أن أحدا لا يختلف فى أن النظام المطبق فى مصر لا يجعل منها دولة إسلامية" (٣٣). والأمر

لا يقتصر فقط على الدستور وإنما يمتد أيضا إلى "القانون"، فقد أكد الإخوان في أكثر من موضع وبلسان جهابذة القانون من قادتهم أن القانون المطبق في مصر- باستثناء بعض النصوص- يتفق مع نصوص الشريعة ولا يتناقض مع مبادئها العامة (٣٤). وقد أكد هذا الموقف بتفصيل واف واسهاب الاستاذ حسن الهضيبي أثناء محاكمته عندما قال أنه عندما كان يطبق القانون المدني وهو قاض لم يكن يناقض الشريعة الإسلامية.

ويعود ريتشارد ميتشل إلى التساؤل- وهو محق تماما- "إذا ما كان الأمر كذلك، فلماذا إذن إصرار الإخوان على تطبيق الشريعة الإسلامية؟" (٣٥).

وإذا كان البنا قد حاذر أشد الحذر من إبداء رأيه في التطبيق التفصيلي للشريعة الإسلامية حرصا على ألا يؤدي بخوضه في هذا الأمر إلى الفرقة والخلاف.. أو إلى التصادم مع النظام القائم أو حتى القول باحتمال هذا التصادم.. فإن بعض اتباعه من قادة حركة الإخوان ومفكريها قد حاولوا حل التناقض القائم بين الشريعة الإسلامية وبين النظام القائم ولكن لصالح هذا النظام وتبريرا له.. فالمذاهب هي مجرد اجتهادات، وهي ذات قيمة تاريخية في الماضي، وإرشادية في الحاضر، لكن المسلمين لهم كامل الحرية في التصرف في أمور دنياهم ووفقا لظروفهم.

ويؤكد سيد قطب- كبير مفكري الإخوان بعد وفاة الشيخ البنا- أن السلطات الممنوحة لولي الأمر تعطيه حق التشريع مهتديا بمسألتين: المصلحة المرسلة وسد الذرائع (٣٦). ولا بد لنا من أن نعيد ونكرر تساؤلنا.. فيم إذن كل الضجة عن العودة للنظام الإسلامي وعن جاهلية النظام الذي كان قائما في الاربعينيات أو فيما بعدها.. إذا كان الإخوان المسلمون قادرون دوما على التلون بأفكارهم ومبادئهم فهي تارة تتفق مع ما هو قائم، وتارة تطالب بإدخال تعديلات طفيفة عليه، وتارة ترفضه لأنه جاهلي وضلال، وكل ضلالة

فى النار، ولا مبرر ولا معيار لقفز الجماعة من موقف سوى المصلحة الآنية.. الأمر الذى يثير ريبة الباحث فى مدى جدية الشعارات التى ترفعها الجماعة أو تدعو لها.

وحتى التعديلات التى طرحها الشيخ البنا على البناء الدستورى فى ظل النظام الملكى لم تكن تتعدى "موضوع الشورى".. فما هو رأيه فى الشورى؟ إنه يرى أن أهل الشورى يكونون إما من رجال الدين وإما من الرجال المتمرسين على القيادة مثل رؤساء العائلات والقبائل.. ولا تكون الانتخابات مقبولة إلا إذا ما أسفرت عن اختيار أناس من هذين الصنفين (٣٧).

وهكذا يرتد الشيخ حسن البنا بتعديله المقترح إلى ما هو أسوأ من قانون الانتخابات المطبق ويعود به إلى المفاهيم الإقطاعية وشبه الإقطاعية المتخلفة والتى لا تثق فى جمهور المواطنين الذين أكد الإسلام حقوقهم المتساوية مع الآخرين- سواسية كأسنان المشط- وإنما تركز ثقتها وطموحها فى رؤوس العائلات الكبيرة وشيوخ القبائل.. الخ!

وعند الإخوان المسلمين "فإن الشعب ليس حرا فى اختيار نظام الحكم الذى يريد فالمواطنون معرضون للخطيئة ما لم يلزموا أنفسهم بحكومة تقوم على اسس دينية"(٣٨).

وليس هذا غريبا فأبو الأعلى المودودى يرفض الفكرة الديمقراطية من أساسها بل ويعتبر أن منح السلطة للجماهير وحتى للأغلبية المطلقة من هذه الجماهير هو مفسدة ومروق.. ولنتابع كلمات الفيلسوف المعتمد من جماعة الإخوان المسلمون "أن المبدأ الرئيسى للديمقراطية الجديدة أن الناس بيد أنفسهم حكمهم وتشريعهم، وإلى أنفسهم كل التصرف فى القوانين، يضعونها كما يشاءون". وإذ يستنكر المودودى ذلك فإنه يوجه إهانته المباشرة لمجموع الشعب قائلا "ومن البديهى أنه إذا كانت قوانين الحياة الجماعية كلها

تابعة للرأى العام وكانت الحكومة كالعبد لإله هذه الديمقراطية الجديدة، فلا يمكن لسلطات القانون والسياسة أن تصون المجتمع عن الانحلال الخلقى، وماذا أقول بل هى تعود بنفسها عونا على إفساد المجتمع ودفعه إلى المهالك.

ولا يكون للحق والخير والصلاح مقياس غير كثرة الأصوات، بحق هذا الجانب أو ذاك. وأن اقتراحا مهما بلغ خبثه وضرره أن كان قد نال من رضى العامة ما يكسبه ٥١ صوتا فى المائة فلا شىء يمنعه من أن يسمو إلى مرتبة الشرع" (٣٩).

ولا نملك سوى علامة استفهام آخرى؟.

و"النذير" الذى اقتحم الميدان شاهرا سيفه، يواصل تراجعه خوفا من أى تصادم. وفى بداية ١٩٤٥ يدعو البنا الجمعية العمومية للإخوان المسلمين ويقترح بنفسه إدخال تعديلات على قانون النظام الاساسى فيضاف إلى المادة الرابعة من الباب الثانى فقرة تقول "يؤثر الإخوان دائما التدرج والتطور والعمل المنتج والتعاون مع كل محب للخير والحق، ولا يريدون بأحد سوءا مهما كان دينه أو جنسيته أو وطنه".

وفى عام ١٩٤٨ يخطو الرجل خطوة أخرى إلى الخلف إذ اقترح بنفسه تعديل المادة الثالثة من قانون النظام الاساسى بحيث أضاف إليها "يعتمد الإخوان فى تحقيق أغراضهم على وسائل الدعوة والتربية والتوجيه والعمل وكل وسيلة أخرى مشروعة" (٤٠).

ولا بد من وقفة تأمل.. فهل كان التراجع حقيقيا؟ أم أن الشيخ كان يطبق مبدأ "الحرب خدعة" وأنه فى الوقت الذى كان يسلح فيه جيشه السرى الخاص بالقنابل والديناميت والمدافع ويستعد به لأكبر حملة إرهاب شهدها تاريخ مصر الحديث كان يحاول أن يبث الطمأنينة فى قلوب خصومه؟.. إذا جاز لنا

الترجيح فاننا نرجح الاحتمال الأخير.

ونعود مرة أخرى نحاول أن نبحث فى موضوع البرنامج المفتقد.

الشيخ يعد ويعد بأنه سيقدم برنامجا ولا يفى بوعده، وقد قرأنا له فى صفحات سابقة أكثر من وعد لم يف به.. وها هو وعد آخر، ففى رسالته "إلى أى شيء تدعو الناس" أشار المرشد إلى قضايا العصر قائلا أن العالمية والقومية والاشتراكية والرأسمالية والبلشفية والحرب وتوزيع الثروة والصلة بين المالك والمستهلك كلها خاض فيها الإسلام". ثم عاد الشيخ فقال "إن المقام لا يسمح بالتفصيل بأن الأمر يحتاج لجولات وعد أن يفصل فيها القول" (٤١).. ولم يف البنا بوعده أبدا "ذلك أن البنا كان دائما غامضا فى حديثه عن الاقتراحات التفصيلية والمتعلقة بالحكومة الإسلامية، وأنه لم يحدث مطلقا أن شرح نواياه بوضوح" (٤٢).

ولا يبقى أمام الباحث الراغب فى الوصول إلى الحقيقة، المصمم على فك طلاسم الغموض المفتعل سوى أن ينبش فى المواقف العملية.. بحثا عن البرنامج الفعلى الذى اختاره البنا بنفسه. فإذا كان البرنامج كوثيقة سياسية لم يكتب أبدا بواسطة الشيخ فإن مجموع خطواته العملية يشكل برنامجه الفعلى.

فلنسر خطوة خطوة مع الشيخ نتأمل تصرفاته ومواقفه من الأحداث والطبقات والقضايا لعلنا نفهم حقيقة برنامجه الذى أراد وعن عمد وإصرار أن يخفيه.

إن الشيخ البنا ينصح أتباعه قائلا "اشغلوا الناس عن الفكرة الباطلة بالفكرة الصحيحة" (٤٣)، أى إنه يتعمد ألا ينقد ما فى أفكار الغير من خطأ وإنما ينقدها من خلال تقديم بديل.

فما هو البديل الذى قدمه الشيخ البنا؟

نفيا لدستور ١٩٢٣ نادى الإخوان "القرآن دستورنا".

ونفيا للزعامات السياسية (النحاس باشا أساسا) نادوا "الرسول زعيمنا".

ونفيا للمصرية والنضال المصرى رفعوا أعلام "الخلافة الإسلامية".

ونفيا للنضال المشترك مع الشعوب الأخرى ينادى البنا "أن الدور عليكم فى قيادة الأمم وسيادة الشعوب وتلك الأيام نداولها بين الناس" (٤٤).

ونفيا لأى نضال اجتماعى ضد ثراء الأثرياء الرأسماليين يقول الشيخ البنا "أما موقف الإسلام من الاغنياء وأصحاب رؤوس الاموال، فليس بيننا وبينهم إلا أداء الزكاة" (٤٥).

وفى مجابهة المؤامرات الاستعمارية الصهيونية ضد فلسطين والعرب حرف الإخوان المعركة وهى فى أوجها إلى معركة بين مسلمين ويهود.. وشنوا هجماتهم ضد اليهود المصريين وكأنهم يحضونهم حضا على الهجرة إلى إسرائيل (٤٦).

وهكذا الموقف مقابل الموقف.. ونترك الحكم بين الموقفين لغيرنا. لكن الشىء الأساسى فى بلد شبه مستعمر كمصر الأربعينيات كان الموقف من القضية الوطنية. وهنا نجد أن الإخوان قد اتخذوا موقفا "مرنا" للغاية إذا جاز لنا التحرج من استخدام ألفاظ أخرى.

فالتعمية تسود هنا أيضا.. فالاستعمار (من حيث المبدأ) ليس سوى هجمة "صليبية". وهنا يفرغ النضال ضده من المفاهيم الوطنية والقومية والاقتصادية والاجتماعية ويصب فقط فى طاحونة العداء الديني.. الذى يفرق بين المسلمين والمسيحيين من أبناء الوطن الواحد.

ولقد أثار الكثيرون من خصوم الإخوان قصصا عن علاقات مستمرة بين المرشد (البنا ثم الهضيبى) والسفارة البريطانية.. ولسنا نريد أن نزج بأنفسنا فى مجال ترديد تهم بغير أدلة.. لكن أحد الباحثين المقبولين من جانب

الإخوان- والذى أفردت مجلة الدعوة مؤخرا صفحات كاملة لتقريظه- وهو الباحث الامريكى ميتشل يقول "بعد الإفراج عن البنا فى اكتوبر "تشرين الأول" ١٩٤١ قامت اتصالات بين السفارة البريطانية والإخوان المسلمين ولا أحد يعلم من قام بهذا الاتصال ولا متى تم"(٤٧). لكن الإخوان أنفسهم يعترفون بهذا الاتصال ويبررونه بأن الاتصال قد تم بناء على طلب الإنجليز الذين خشوا من التقارب بين الإخوان والقصر! وتمضى جريدة الإخوان المسلمين قائلة دون إحساس بأى حرج أنه بعد مناقشة أفكار وبرنامج الجماعة أبدى الطرف الإنجليزى استعداد السفارة البريطانية لتقديم مساعدة مالية للجماعة لمساعدتها على أداء رسالتها وتؤكد الجريدة أن البنا قد رفض ذلك (٤٨).

لكن باحثا آخر (Heyworth - Dunne) يؤكد استنادا إلى ما أسماه مصدر أخوانى كان على علاقة بالسفارة البريطانية أن حسن البنا قد ألمح خلال الاتصالات ومن خلال عناصر وسيطة "أنه على استعداد للتعاون، وأنه سيكون ممتنا لو أن مساعدة مالية قد قدمت له" ويعود الباحث إلى التأكيد بأن مساعدات كبيرة قد قدمت لجريدة الجماعة وخاصة فى غضون عام ١٩٤٧ وأن أحمد السكرى كان معنيا بهذا الأمر وأنه قد طلب فى إحدى المرات أربعين ألف دولار وسيارة كمقابل لمساعدة الجماعة للمخطط البريطانى (٤٩). ويشير باحث ثالث إلى موقف الإخوان من أحداث عام ١٩٤٢ وكيف أنهم تخلوا عن مواقفهم القريبة من المحور ورفضوا الاشتراك فى المظاهرات التى هتفت "إلى الأمام يا روميل" ويؤكد بعد ذلك أن "المساعدة المالية كانت قد قدمت وقبلت" (٥٠). وكعادتنا فى هذا البحث فإننا لا نريد أن نمسك إلا بما هو ملموس ومؤكد، فلنأخذ بما هو متيقن منه. المؤكد أن الشيخ البنا قد اعترف أكثر من مرة كتابة أن جهات متعددة قد عرضت عليه أموالا لمساعدته على تنفيذ "برنامجه".. أكد أن الطاغية إسماعيل صدقى قدم هذا العرض،

وأكد أن السفارة البريطانية قدمت العرض.. وأكد أنه قد رفض العرضين.

حسنا.. ولنأخذه بأقواله، ولنفترض أن العرضين قد رفضا.. لكن يبقى السؤال المحير هو لماذا يتحمس طاغية كإسماعيل صدقى وسفارة تمثل الاحتلال الكريه إلى قلب كل مصرى وكل مؤمن لتقديم معونات مالية للإخوان المسلمين لمساعدتهم على تنفيذ "برنامجهم"؟

أي برنامج هذا؟ وما مدى انطباقه على مصالح الإسلام والمسلمين ومصر والمصريين! مجرد تساؤل نتركه بغير رد.

لكن الوقائع الملموسة، والمواقف العملية لجماعة الإخوان المسلمين تؤكد أنه لا صدقى ولا السفارة الإنجليزية كانوا سذجا عندما قدموا عروضهم.

فعندما بدأ الطاغية صدقى رحلة خيانته عام ١٩٤٦، وعندما وقف الشعب المصرى كله ضده.. كان الإخوان يؤكدون فى كل مكان تأييدهم لصدقى.. ومستخدمين دون حرج الآية الكريمة "واذكر فى الكتاب إسماعيلا أنه كان صادق الوعد وكان صديقا نبيا".

وعندما خطى صدقى خطوة جديدة على طريق الخيانة الوطنية وبدأ مفاوضاته حول المعاهدة التى استحقت لعنات الشعب المصرى كله (معاهدة صدقى- بيفن) أيده الإخوان واستخدموا واقعة "صلح الحديبية" فى تبرير تصرفاته (٥١).

ويروى شاهد عيان معروف بحياده ودقته- هو صلاح الشاهد- ما يؤكد ذلك فيقول أن صدقى عندما توصل إلى اتفاقية صدقى- بيفن "توهم أن الإخوان المسلمين قاعدة شعبية ذات وزن فاستدعى المرشد العام بعد وصوله من لندن بساعتين، وأطلعه على مشروع الاتفاقية قبل أن يطلع عليه النقراشى وهيكل المشاركين له فى الحكم، وحصل على موافقته على المشروع.. ولما اشتدت المظاهرات الشعبية ضد هذه المعاهدة طلب صدقى باشا من المرشد

العام أن يركب سيارة سليم زكى باشا مساعد الحكمدار المكشوفة ليعمل على تهدئة الجماهير واستجاب المرشد العام لطلب صدقى باشا" (٥٣). ونتوقف أمام هذه الشهادة.

- اية علاقة هذه التى تربط بين الطاغية الخائن صدقى وبين المرشد العام، والتى تجعل المرشد أقرب إليه من شركائه فى الحكم.. النقراشى وهيكل.

- أن البنا قد وافق على المعاهدة التى رفضتها مصر كلها والتى لم تزل وحتى الآن رمزا للخيانة الوطنية والتفريط فى حقوق الوطن.

- أن المرشد قد سمح لنفسه بأن يركب سيارة البوليس ليعمل على تهدئة المتظاهرين المعارضين لاتفاقية الخيانة.

أما واقعة ركوب المرشد لسيارة سليم زكى فهى مؤكدة وصوره تملأ صحف تلك الأيام.. أما الواقعتان الأوليان فقد أوردناهما.. على مسؤولية "الشاهد".

لكن الملاحظ أن شهر العسل لم يدم طويلا.. وأن الإخوان قد حاولوا التوجه نحو أمريكا. وكتاب الزعيم الإخوانى مصطفى مؤمن "صوت مصر" مليء بالوقائع والأدلة.. والتوجه نحو أمريكا "أيها الأمريكيون.. أنتم الشعب الحر.. وقواد الديمقراطية" (٥٣).

وعلى هذا المنوال يمضى الكتاب كله.

ولقد كان "شهر العسل" الإخوانى-البريطانى مبررا من الجانبين، فالإخوان لم يعتبروا أن النضال ضد الاحتلال البريطانى محور عملهم السياسى كأى حزب وطنى آخر بل على العكس من ذلك كانوا حريصين دائما على التأكيد بأن محور النضال هو الحكومة الإسلامية وليس إجلاء المستعمر.

يقول الباحث الوثيق الصلة بحركةالإخوان د. اسحق موسى الحسينى "إن تحرير وادى النيل كله من النفوذ الأجنبى كان مطلبا يلى في الأهمية لدى

الإخوان مطلب إقامة الحكومة الإسلامية"(٥٤).

وبينما كانت مصر كلها تغلى بالنضال ضد الاستعمار، والمظاهرات تملأ الشوارع مطالبة بالجلاء، والجامعة تلتهب بالعمل الثورى ضد الاحتلال وعملائه نجد مؤتمر طلاب الإخوان ينحرف بالقضية كلها نحو ضرورة التركيز على "استرجاع الخلافة الضائعة"(٥٥).

وفى رسالة "نحو النور" يورد البنا ما أسماه بالموبقات العشر.. ويضع الاستعمار على رأسها ثم يورد خمسين مطلبا من المطالب العملية للدعوة تحت عنوان "بعض خطوات الإصلاح العملى" ولم يرد بها مطلب واحد يتعلق بالقضية الوطنية أو بالجلاء أو بالاستقلال أو بمقاومة الاستعمار، كل ما هناك عبارة تقول "تقوية الروابط بين الأقطار الإسلامية جميعا وبخاصة العربية منها تمهيدا للتفكير الجدى العملى فى شأن الخلافة الضائعة"(٥٦). وفي العيد العاشر للجماعة (١٩٣٨) أكد حسن البنا أن الإخوان يعطون الأولوية لاسترداد الخلافة. وفى رسالته "إلى أى شيء ندعو الناس" تحدث البنا عن الوطن الإسلامى قائلا أنه ما يسمو عن حدود الوطنية الجغرافية والوطنية الدموية إلي وطنية المبادىء(٥٧).

ولعل من حقنا أن نسأل هل كان الإخوان بكل ما علقوه من آمال على الملك الفاسد فاروق كما أكد البنا نفسه عندما قال "إن لنا فى جلالة الملك المسلم أيده الله أملا"(٥٨) وبكل ما قام بينهم وبين القصر من علاقات سنشير إلي بعضها فى صفحات قادمة.. هل كانوا وهم يتحدثون عن الخلافة الضائعة يلوحون بها للملك الفاسد؟.. أم أى خليفة آخر كانوا يريدون؟

وما يدفعنا لهذا السؤال هو إصرارالإخوان ومرشدهم على أن القضية المحورية كانت استعادة الخلافة، ولم يقولوا أى خليفة يريدون، بل ولم يسعوا إلى أى تغيير "داخلى" يمكن من قيام خليفة مسلم حقا وصالح حقا.

أما أن يترك "الداخل" كما هو.. بل يمتدح الملك ويصفق له ويحتفل بعيد ميلاده وعيد جلوسه احتفالات يسودها التملق.. ثم تكون المهمة الأولى استعادة الخلافة الضائعة، فهو أمر يثير الدهشة.. ولا يمنحنا الفرصة لأية إجابة أخرى.

وإذا كان شعار "الخلافة الإسلامية" يوضع فى مجابهة "الوطنية" ويتخطاه فى الأولوية لدي الإخوان، فقد وضعوه أيضا فى مجابهة القومية العربية. يقول أبو الحسن الندوى "وظل هذا الصفاء قائما ودامت هذه الثقة لا يضعفها شيء مادام العرب مخلصين للإسلام متجردين له.. لا يعدلون بالقومية الإسلامية قومية وبرسالة الإسلام والدعوة إليه رسالة ودعوة، ولا يتحمسون لغير الإسلام. فلما تغيرت أخلاقهم فى العهد الأخير، وقامت فيهم الدعوة إلى القومية العربية وتبنوا واحتضنوا دعوات أخرى وتحمسوا لها تزعزعت ثقة الشعوب غير العربية بهم، وتغيرت نظرتها ونظرة العالم إليهم"(٥٩).

ويسير حسن البنا على نفس النهج فهو يقبل العروبة "كرابطة حضارية وليس كقومية" وهو يرى فى العروبة "وحدة روحية بسريان الإسلام فى عنق أبنائها جميعا"(٦٠).

وحتى القضية الفلسطينية كانت الجماعة تنظر إليها بمنظار دينى وليس بمنظار قومى. يقول طارق البشرى "وقد استطاعت حركة الإخوان المسلمين أن تخاطب هذا الجانب فى المصريين وأن تمتص رد الفعل المعادى للصهيونية لصالحها، لا باعتبار أن المعركة بين الصهيونية والحركة الوطنية العربية، ولكن باعتبارها معركة بين اليهود والإسلام، وأحيت بهذا ما كان قد انحسم من قضايا الخلافة والجامعة وبنت لنفسها باسم الدين ركيزة فى مواجهة الحركة الوطنية، وأثارت ثنائية مفتعلة فى حياة مصر السياسية.. ثنائية الدين والوطن"(٦١).

أما موقف الإخوان من قضايا العالم والسياسة الخارجية فقد كان مثيرا للدهشة إذ يقول ميتشل أنهم كانوا يرون فى استمرار الحرب الباردة عنصرا مفيدا للإسلام والأمة الإسلامية إذ يتيح لها الفرصة فى الوساطة بين المعسكرين الرأسمالى والشيوعى(٦٢). ويثير الدهشة أيضا ما كتبه سيد قطب أحد قادة الإخوان من أن المسلمين بحاجة مؤقتا إلى المعكسر الشيوعى ليخيفوا به الطغاة والمستغلين(٦٣).

ولنمض مع الجماعة والشيخ مرة أخرى محاولين أن نستشف "البرنامج" من خضم التعاملات والمواقف اليومية. وإذ استخلصنا مجمل مواقف الإخوان من القضية الوطنية والقومية العربية.. بما يحدد "نهجهم" و"برنامجهم" فى هذا الصدد، فلنتجه إلى المشكلات الداخلية لمصر.. وإلى القضايا الاجتماعية الملحة.

وإذا كان الشيخ البنا قد أورد فى مأثوراته مجموعات بين الأدعية ليرددها الإخوان منها "اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر"(٦٤) فقد رأينا كيف انتهى الأمر بأن كل ما هو مطلوب من الرأسماليين هو أداء الزكاة.

وفى "مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى" يطالب حسن البنا "بإحلال رأس المال المحلى محل رأس المال الأجنبى" وهى خطوة لا بأس بها، لكنها كانت أيضا مطلبا للرأسماليين الذين يريدون الانفراد بالسوق.. وعندما يناقش المشكلة الزراعية يطالب بتحديد حد أقصى للملكية الزراعية (لا يورد هذا الحد) على أن يقوم الملاك "ببيع" ما يزيد عن هذا الحد بأسعار معقولة ومقسطة علي آماد طويلة لفقراء ومعدمى الفلاحين(٦٥).

ولا بأس بهذا أيضا لكننا نلاحظ تخلفه حتى عن النظرات الإصلاحية التى كانت سائدة فى صفوف كبار الملاك فى مصر الأربعينيات مثل مشروعات مريت غالى ومحمد خطاب. ولعل الجماعة لم تحتمل حتى مثل هذه

المواقف المتواضعة، فإذا بها عندما يحين الجد وتبدأ ثورة يوليو ١٩٥٢ فى تطبيق إصلاحها الزراعى تتراجع عن موقفها القديم وتقدم مقترحات أكثر تخلفا.

ويلاحظ أحد الباحثين أن "ثمة تناقضا يحكم الفكر الاقتصادى للبنا فهو يسمح للأفراد بامتلاك واستغلال الثروة (رأس المال) لكنه فى نفس الوقت يحرم الفائدة" ذلك أن البنا "يرى أن الفائدة مثلها مثل الربا محرمة كما هى محرمة فى روسيا"(٦٦).

ولنأت الآن إلى نقطة جديدة.. ما هو موقف البنا من الطبقة العاملة ومشاكلها وصراعاتها؟ وللوهلة الأولى يلاحظ الباحث فى أدبيات الإخوان عبارات لغوية مؤثرة مثل: وفد على دار المركز العام كثير من العمال ينزفون سخين الدمع ويعرضون ما يقاسون.. إن أحوالهم تفتت الأكباد وتدمى القلوب(٦٧)، ولكنه يلاحظ أيضا أن الشيخ البنا يقول فى محاضرة أعدها لقسم العمال بالجماعة أن على العمال أن يتذكروا دوما واجبهم نحو "الله ونحو أنفسهم ونحو صاحب العمل"(٦٨).

والحقيقة أن قسم العمال فى الجماعة قد نشط نشاطا واسعا وحاول إقامة نقابات عمالية تستوحى أفكار ومبادىء الجماعة. وفى منتصف الأربعينيات أثمرت هذه الجهود نفوذا ملحوظا فى صفوف عمال النقل، وتنشر جريدة الإخوان أن عمال النقل قد قرروا تأسيس نقابة تعمل "على هدى رسالة الإخوان المسلمين"(٦٩). وكان للجماعة بعض النفوذ فى صفوف عمال البترول بالسويس وعمال النسيج(٧٠).

وبرغم أن نفوذ الإخوان وسط الطبقة العاملة لم يكن كبيرا إلا أنه من المفيد أن نلقى بعض الضوء على كيفية توجيه الشيخ والجماعة للعمال الأخوانيين.

إن أي دارس لتاريخ الحركة العمالية المصرية يكتشف على الفور حقية هذا الدور.. وهو أن الإخوان وعمالهم كانوا فى جبهة خصوم حركة الطبقة العاملة.

فقد قاوموا حق "الإضراب" الذى كان سلاح العمال الوحيد فى ظل مجتمع يخيم عليه استغلال رأسمالى بشع وحكم عميل ذلك أنهم اعتبروا أن الامتناع عن العمل والإضراب "هو أمر مخل بروابط الأخاء بين المسلمين ومثير للجفاء بين فرقهم"(٧١).

وفى شبرا الخيمة حيث نظم العمال إضرابهم الكبير الذى يعتبر نقطة تحول فى تاريخ النضال العمالى ناور العمال الإخوانيون فشاركوا فى الإضراب بهدف تخريبه من الداخل فلما فشلوا انسحبوا منه وحاولت جريدة الإخوان، أن تبرر ذلك قائلة "لابد للعامل فى هذه المنطقة (شبرا الخيمة) من سلاحين هما قوة الإيمان وحسن الخلق فتقوم الصلة بين العامل وصاحب العمل على الاحترام والعطف المتبادلين وهذه هى أنجح الوسائل".. وإذ يدهش البعض من إقحام الإيمان والخلق كأسلحة وحيدة للعمال فى معركتهم ضد الرأسمالية تبرر الجريدة ذلك وتحذر من خطر اليسار "الإخلاص هو العلاج الحاسم.. فكتابنا بيميننا وكتابهم بشمالهم". ومن الانسحاب من الإضراب إلى تخريبه إلى إبلاغ البوليس عن قيادته، الأمر الذى دفع القيادات العمالية من الوفديين والشيوعيين إلى توجيه حملات إعلامية ضد جماعة الإخوان متهمين إياها "بالعمل فى خدمة الرأسماليين والمستغلين وفى خدمة الطاغية صدقى وحكومات الأقلية"(٧٣).

والحقيقة أن موضوع قيام الإخوان (عمالا وغير عمال) بإبلاغ السلطات عن نشاط القوى المعادية لهم والتجسس عليها قد تردد بكثرة، بل وقد اعترف به الإخوان أنفسهم.

يقول أحد قادة الإخوان- صلاح الدين على أبو الخير- فى شهادته أمام محكمة الشعب "أن قسم الأخبار فى الجماعة كان يقوم بجمع الأخبار المهمة التى تهم الجماعة.. وبرضه نشوف أى حاجة أفرض فيه خلية شيوعية مثلا.. وأنا أعرف أن الإخوان ضبطوا عدة خلايا"(٧٤)، ولكن جهودهم فى هذا الصدد قد تركزت فى مجال النشاط العمالى حيث كانت أعين واهتمامات أجهزة الأمن والسراى وكل القوى الرجعية مركزة أيضا(٧٥).. الأمر الذى أضر بنشاط الإخوان فى صفوف العمال ضررا بليغا ووصل به قرابة عام ١٩٤٨ إلى ما يشبه التصَفية(٧٦).

كذلك كان تناول الإخوان القضايا الملحة بالنسبة للعمال تناولا شديد التخلف.. فبعد الحرب العالمية الثانية وعندما وصل عدد العمال المتعطلين إلى بضعة مئات من الألوف شكل قسم العمال بالإخوان لجنة خاصة أسميت "لجنة شؤون المتعطلين".

درست الأمر ثم قدمت عدة مقترحات غريبة، كان الأغرب منها أن تتبناها صحف الجماعة وتروج لها.

وتتلخص المقترحات فى إعادة العمال الذين نزحوا من قراهم أبان الحروب للعمل فى المدن.. إلى موطنهم الأصلى(٧٧)! ثم العمل على حصر الموسرين "فى كل منطقة وتأسيس شركات مساهمة لإنشاء مصانع على أن يقتطع من أجور العمال مبالغ تحول إلى أسهم بأسمائهم"(٧٨) وقد حاول الإخوان تنفيذ مشروع كهذا فى شبرا الخيمة لم يكتب له النجاح.

ولابد لنا من الإشارة إلى أن شركات ومزارع ومصانع ومشاغل ومحاجر ومناجم ومؤسسات جماعة الإخوان المسلمين كانت تهدف من بين ما تهدف إلى إقامة نقاط ارتكاز وجذب للعمال المشتغلين فيها.

ومن الطريف أن حق المرأة فى العمل قد علق البحث فيه من وجهة نظر

الجماعة علي "حل مشكلة البطالة عند الرجل".

.. وأخيرا لقد رفض البنا أن يكتب برنامجا لجماعته، لكنه- فى واقع الأمر- ومن خلال الممارسات العملية صاغ برنامجه.. وهو- فى اعتقادنا- ملىء بما يستوجب النقد، وربما ما هو أكثر من الأنتقاد.

الانتماء لمن.. ؟

.. "فاعلم فقهك الله- أولا أن دعوى الإخوان المسلمين دعوة عامة، لا تنتسب إلى طائفة خاصة ولا تنحاز إلى رأى عرف عند الناس بلون خاص، ومستلزمات وتوابع خاصة، وهى تتوجه إلى صميم الدين ولبه، وتود أن تتوحد وجهة الأنظار والهمم حتى يكون العمل أجدى والإنتاج أعظم وأكبر، فدعوة الإخوان دعوة بيضاء نقية غير ملونة بلون، وهى مع الحق أينما كان، تحب الإجماع وتكره الشذوذ، وأن أعظم ما منى به المسلمون الفرقة والخلاف وأساس ما انتصروا به الحب والوحدة ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، هذه قاعدة أساسية وهدف معلوم لكل أخ مسلم وعقيدة راسخة فى نفوسنا، نصدر عنها وندعو اليها"(١).

بهذا تكلم الشيخ البنا فى رسالته "دعوتنا".

وهو يقول أيضا "لقد انعقد الإجماع على أن الأحزاب المصرية هي سيئة هذا الوطن الكبرى، وهى أساس الفساد الاجتماعى الذى نصطلى بناره الآن... وبما أن الأحزاب هى التى تقدم الشيوخ والنواب وهى التى تسير دفةالحكم فى الحياة النيابية، فإن من البديهى ألا يستقيم أمر الحكم، وهذه حال من يسيرون دفته... وإذا كان الأمر كذلك فلا ندرى ما الذى يفرض على هذا الشعب الطيب المجاهد المناضل الكريم هذه الشيع والطوائف من الناس

التى تسمى نفسها الأحزاب السياسية. إن الأمر جد خطير.. ولا مناص بعد الآن من أن تحل هذه الأحزاب جميعا"(٢).

وهو يقول كذلك "أحب أن أقول لإخواننا من دعاة الأحزاب ورجالها: أن اليوم الذى يستخدم فيه الإخوان المسلمون لغير فكرتهم الإسلامية البحتة لم يجىء بعد ولن يجىء أبدا وإن الإخوان لا يضمرون لحزب من الأحزاب أيا كان خصومة خاصة به، ولكنهم يعتقدون من قرارة نفوسهم أن مصر لا يصلحها ولا ينقذها إلا أن تحل الأحزاب كلها وتتألف هيئة وطنية عاملة تقود الأمة إلى الفوز وفق تعليم القرآن الكريم. وبهذه المناسبة أقول أن الإخوان المسلمين يعتقدون عقم فكرة الائتلاف بين الأحزاب، ويعتقدون أنها مسكن لا علاج.. والعلاج الحاسم الناجع أن تزول هذه الأحزاب مشكورة، فقد أدت مهمتها وانتهت الظروف التى أوجدتها، ولكل زمان دولة ورجال كما يقولون"(٣).

هكذا تحدث حسن البنا.. لكن الكلمات شىء والأفعال شىء آخر..

فالدعوة توجهت نحو القصر الملكى تدعمه وتشد أزره وتحاول جاهدة ودون جدوى أن تزين وجه الملك الفاسد. والهجوم على الحزبية والأحزاب سرعان ما أسفر عن تحالف مع أكثر القوى رجعية فى المجتمع المصرى.. محور على ماهر- المراغى لفترة ومع اسماعيل صدقى لفترة أخرى.. ثم مع أحزاب الأقليات لفترة ثالثة.

ولكن.. أليس من الأفضل أن نسير مع التحالفات السياسية للشيخ خطوة خطوة؟.. وأليس من الأفضل أن نلقى بقعة صغيرة من الضوء علي واحد من أقرب وأهم حلفائه- على ماهر باشا- تحدد لنا موقعه وموقع الحلف معه.. من قضية الوطن وقضية الإسلام؟. فقط أردنا بإيراد كلمات الشيخ السابقة أن نضعها فى مجابهة مواقفه العملية.. ونزن بعد ذلك مدى الصدق فى

الكلمات.. والمواقف.

* * *

توفى الملك فؤاد، وأتى لحكم مصر شاب صغير السن، بلا خبرة ولا تجارب ولا قدرات ونجح فى أن يسيطر عليه واحد من أعتى السياسيين المصريين وأكثرهم طموحا وذاتية.

على ماهر:

* الذى يقول عنه دافيد كيلى رجل المخابرات البريطانية العتيد ومستشار دار المندوب السامى البريطانى فى مذكراته: "وقع فاروق فى مرحلة مبكرة من عمره تحت نفوذ علي ماهر باشا الذي أصبح صاحب النفوذ الأول فى السراي. وكان على ماهر رجلا ذكيا جدا ولكنه كان طموحا، وكان طموحه يستهلكه. ولهذا فقد وضع نصب عينيه على الفور أن يصب فى الملك الجديد نفس الكراهية التى كانت تفيض بها نفس أبيه نحو الوفد"(٤).

* والذى يقول السفير البريطانى عنه في تقرير له إلى وزارة خارجيته:

".. وعلى الرغم من أنه بقى الجانب الأكبر من عام ١٩٣٧ بعيدا عن المناصب الحكومية، فان الملك فاروق كثيرا ما كان يستشيره بصفة غير رسمية، وكان على ماهر قد حاز ثقة الملك من قبل، وهكذا فإنه بعمله داخل الكواليس استطاع أن يحقق لنفسه نفوذا كبيرا على سياسة القصر"(٥).

* والذى يعترف هونفسه أمام المحكمة أنه كان صديقا للإنجليز وأنه كان "على ولاء تام لهم والمجاملات الشخصية كانت لأقصى الحدود.."(٦).

* وعندما تصاعد المد الفاشى.. وتصور البعض أن "الألمان قادمون" تهيأوا لاستقبال السيد الجديد. من هؤلاء كان على ماهر.. يقول الدكتور

الطيب الناصر فى مذكراته، أن الكونت ماتزولينى آخر وزير مفوض لإيطاليا الفاشية فى مصر أبلغه أنه "اتفق شخصيا مع على ماهر على أن تثور مصر على الإنجليز فى الوقت المناسب لتمهيد السبيل لجيوش المحور"(٧).

* وتنفيذا لهذا المخطط وفى أعقاب الهجوم العنيف الذى قاده الجنرال روميل باتجاه مصر واستولى على بنى غازى يوم ٢٩ يناير ١٩٤٢، هاجت فى مصر مظاهرات أغلبها من الأزهريين (أتباع الشيخ المراغى حليف على ماهر الحميم) تهتف "إلى الأمام يا روميل" وتهتف أيضا "على ماهر رجل الساعة".

* ويقول جورج كيرك "إن المخابرات البريطانية اكتشفت فى الوثائق الألمانية أن على ماهر كان يحصل على مبالغ مالية عن طريق بنك درسدنر"(٨).

.. هذا هو على ماهر الذى دخل الشيخ البنا السياسة من بابه الخاص والذى كان أول حليف سياسى لجماعة الإخوان المسلمين.. والذى قاد البنا بيديه نحو التبعية للسراى والملك والعداء للوفد والقوى الديمقراطية.

. وهكذا كان على ماهر باشا أول من وعى- من المسؤولين- نصيحة إسماعيل صدقى باشا بالتعاون مع الإخوان واستخدامهم.

وكانت البداية أثناء الاستعدادت لتولية الملك الشاب على العرش. فقد اقترح الأمير محمد على إقامة حفل دينى تتم فيه مراسيم تولية الملك. والحقيقة أن هذا الاقتراح لم يكن سوى جزء من المخطط الشامل لعلى ماهر والشيخ المراغي باحتواء الملك وتقديمه فى صورة الملك الصالح المسلح بالدين فى مواجهة الوفد المسلح بتأييد الشعب.. ورفض رئيس الوزراء مصطفى النحاس ذلك معلنا أن هذا "إقحام للدين فيما ليس من شؤونه وإيجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية"(٩). ووقف النحاس أمام مجلس النواب

يتحدى هذا المخطط قائلا "الإسلام لا يعرف سلطة روحية، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وبين عباده.. وليس أحرص منى، ولا من الحكومة التى أتشرف برئاستها على احترام وتنزيه الإسلام، كما أنه ليس أحرص منا على الالتزام بأحكام الدستور، ولكن الاحتفال بمباشرة جلالة الملك لسلطته الدستورية شىء آخر فهو مجال وطنى يجب أن يتبارى فيه سائر المصريين مسلمين وغير مسلمين"(١٠).

وهنا يبرز- ولأول مرة- الدور السياسى للشيخ حسن البنا ولجماعته.. والتوقيت هام للغاية لأنه كما يحدد المهمة.. يحد إطارها وبواعثها ومحركيها.

يعقد الإخوان المسلمون مؤتمرهم الرابع لهدف وحيد هو الاحتفال باعتلاء جلالة الملك العرش! ولأول مرة أيضا تبرز فى الميدان جوالة الإخوان المسلمين "لتلعب أول أدوارها الهامة كقوة للنظام والأمن"(١١). وبعد احتفالات طويلة ومليئةبالبهجة تجمع الإخوان عند بوابات عابدين هاتفين "نهبك بيعتنا وولاءنا على كتاب الله وسنة رسوله"(١٢).

وفى مناسبة أخرى.. وعندما اختلف النحاس باشا مع القصر، خرجت جماهير الوفد تهتف "الشعب مع النحاس" فسير الشيخ البنا رجاله يهتفون "الله مع الملك". وتباهى الإخوان كثيرا بأن الملك قد خرج فى شرفة قصره ست مرات ليحيى مظاهرتهم هذه"(١٣)، وتقول جريدة البلاغ "أن الملك كان بالغ السعادة بشعار الله مع الملك وكان يردد نعم الله معنا"(١٤).

والحقيقة أن البنا لم يكن جديدا على فكرة التقرب من العرش فهو يروى بنفسه أنه عندما حقق معه فى عام ١٩٣٠، ثبت من التحقيق أنه كان يملى على طلبته فى دروس الإملاء موضوعات يتوخى فيها الثناء على الملك فؤاد وتعداد مآثره، وأنه دفع العمال يوم زيارة الملك للمدينة إلى التجمع لتحيته

"حتى يفهم الأجانب فى هذا البلد أننا نحترم ملكنا ونحبه". ويمضى الشيخ البنا قائلا أن أحد رجال البوليس كتب تقريرا بهذه المناسبة أشاد فيه بأثر الجماعة الروحى فى تقويم من لم تنفع معهم وسائل التأديب البوليسية واقترح "أن تشجع الحكومة الجماعة وتعمل على تعميم فروعها فى البلاد حتى يكون فى ذلك أكبر خدمة للأمن والإصلاح(!)"(١٥).

وإذا لم يكن غريبا أن يكتب رجل البوليس ذلك عن جماعة الإخوان، فهل كان غريبا أن يتباهى به الشيخ كتابة وصراحة؟

ولم تكن جوالة الإخوان وحشودها لتحية "الفاروق" وحده وإنما أيضا لتحية على ماهر. فعند عودته من مؤتمر المائدة المستديرة الذى عقد فى لندن (مارس- آذار- ١٩٣٩) لبحث قضية فلسطين كانت حشود الجوالة والإخوان فى انتظاره هاتفة له(١٦).

لكن النحاس باشا كان يرى أن إقحام الإخوان المسلمين فى السياسة. وتصاعد دعواهم فى هذا الوقت بالذات، تعبير عن مؤامرةأوسع وأخطر، فهو يقول فى خطاب في ٢ يوليو (تموز) ١٩٣٨:

"عامل آخر من عوامل الأزمة.. فلقد أراد أصحاب المؤامرة أن يجعلوها محبوكة الطرفين فتآمروا على استخدام الدين فى الدعاية ضد الحكومة، وكان أن ظهرت بوادر هذاالتآمر قبل سفرنا إلى مونترو لحضور مؤتمر إلغاء الامتيازات الأجنبية فقد قامت ضجة تنادى بأنه يجب جعل الشريعة الإسلامية أساسا للتشريع المصرى وأن تطبق قواعدها تمام التطبيق، وأن يفصل بين الطلاب والطالبات فى الجامعة. وكان الغرض من ذلك وضع العراقيل، وإقامة الحوائل فى سبيل اتفاقنا على سريان تشريعنا المصرى على الأجانب المقيمين بيننا. فمما لا جدال فيه أن هذا التطبيق، وما يشتمل عليه من قواعد مقررة فى شريعتنا السمحة، كقطع يد السارق وجلد الزانى لا يقبل

ممثلو الدول الأجنبية الموافقة عليه بحال من الأحوال. ولقد كان من شأن هذه الدعاية أن تقف حجر عثرة فى سبيل إلغاء الإمتيازات الأجنبية، وينال المتآمرون من وراء ذلك ما يرجونه"(١٧).

.. وفى هذه الآونة بالذات بدأ الشيخ البنا هجومه على الأحزاب والحزبية ونادى بحلها جميعا وعمل على تعزيز سلطات الملك وحاول أن يمنحه ما ظل القصر مفتقدا إياه طوال حياته من تأييد جماهيرى.. الأمر الذى شجع فاروق على محاولة تدبير "انقلاب دستورى" اختار له عن عمد ذكرى رأس السنة الهجرية حيث وجه خطابا بالراديو أعلن فيه توليه لزمام كل الأمور قائلا "إن ثقتى وتوكلى على الله هو الذى يلهمنى تصريف الأمور ويوجهنى الوجهة الصحيحة"(١٨). ومع الهجوم علي الدستور فى مصر لاحت بوادر الموالاة للمحور وعملائه. ولعل الدور الذي لعبه الشيخ البنا وجماعة الإخوان فى هذا الصدد هو الذى دفع كاتبا إسلاميا كعباس العقاد إلى أن يكتب غاضبا "فى مصر دعوة دكتاتورية ليس فى ذلك جدال، والذين يقومون بهذه الدعوة ويقبضون المال من أصحابها هم الذين يشنون الغارة على الدول الديمقراطية ويثيرون الشعور عليها باسم الدين وباسم سورية وفلسطين، ولا يثيرون الشعور على الدول الأخرى باسم الدين وباسم ألبانيا وبرقة وطرابلس والصومال.. ويسير علينا أن نعرف بعدما تقدم من أين تتلقى تلك الجماعات المتدينة أزوادها ونفقاتها، ولماذا تتوجه بالعوة المزيفة إلى هذه الوجهة التى لا وجهة غيرها أمام تلك الجماعات لخدمة المطامع الديكتاتورية.. إنها جاسوسية مأجورة تتوارى بالإسلام للإيقاع ببلاد الإسلام، لأن نجاح الدعوة الديكتاتورية لن ينتهى إلى مصلحة المسلمين ولا إلى سيادة المسلمين وإنما ينتهى إلى ضياع المسلمين"(١٩).

وفى ظل مباركة التيار الدينى (الشيخ المراغى- الشيخ حسن البنا)،

بتحريض وتخطيط من على ماهرالذى أصبح فى نهاية الثلاثينيات ومع صعود نجم الهتلرية بؤرة النشاط الموالى للمحور، حاول فاروق هو الآخر أن يلعب لعبة التقارب من المحور.

وفي يوم ٢٣ فبراير ١٩٣٩ كتب الكونت شيانو وزير خارجية إيطاليا فى مذكراته الخاصة أنه "تلقى نبأ (من) أتوليكو السفير الإيطالى فى برلين عن مقابلة جرت بينه وبين مراد سيد أحمد باشا وزير مصر المفوض في برلين، استفسر فيها الوزير المصرى باسم مليكه.. عما إذا كان المحور سيكون على استعداد لمساندته إذا أعلنت مصر حيادها وترتب على ذلك تدخل مباشر أو غير مباشر من جانب بريطانيا العظمى"(٢٠). واستمرت الاتصالات بين القصر والمحور وتعددت وسائلها، وفى ١٤ أبريل ١٩٤١ اتصل يوسف باشا ذو الفقار (والد الملكة فريدة- وسفير مصر فى طهران) بالسفير الألمانى ورجاه أن يبلغ هتلر. "أن فاروقا وشعبه لا يرغبون فى الحرب مع ألمانيا.. وأن فاروقا وشعبه يأملون فى رؤية القوات الألمانية منتصرة ومحررة لهم من الاحتلال البريطانى"(٢١) بل إن فاروقا كان يتجسس لصالح الألمان، ففى يوم ٢٩ يونيو ١٩٤١ أرسل فاروق برقية إلى السفير المصرى فى طهران يطلب منه أن يبلغ السفير الألمانى "أن لديه معلومات تشير إلى أن الإنجليز سيحتلون مناطق البترول الإيرانية لكى يحموها من الهجوم الألمانى من ناحية روسيا والهجوم ضد العراق وإيران"(٢٢).

واستعدادا لهذا التحول الخطير من الولاء لإنجلترا إلى الولاء لألمانيا كان يتعين إيجاد حزب ذى جماهيرية ما، ونفوذ ما، يستطيع أن يدعم هذا التحول وأن يخلق له سندا شعبيا.

وكان عزيز المصرى باشا صديق على ماهر الحميم وحليف المحور صاحب فكرة ميلاد حزب جديد.. يوحد بين الحزبين المشاركين مع جناح القصر- على

ماهر- المحور فى مخططه والخاضعين فى نفس الوقت لنفوذ علي ماهر ولنفوذه شخصيا وهما الإخوان المسلمين ومصر الفتاة ويخلق حزبا إسلاميا منظما على النمط الفاشي مدعوما بنفوذ القصر وبإعلانه العصيان على الإنجليز.. أعداء الوطن(٢٣). واستعدادا لذلك غير أحمد حسين اسم حزبه ليرتدى هو أيضا مسحة إسلامية.. ويبدو أن الضغط على البنا كان شديدا إلى درجة جعلته يفرد فى "رسالة المؤتمر الخامس" بابا خاصا بعنوان "الإخوان ومصر الفتاة" قال فيه "وأن كثيرا من الناس يود أن لو اتحدت جماعة مصر الفتاة مع الإخوان المسلمين وهذا شعور ما من شك فى أنه جميل نبيل فليس أجمل من الوحدة والتعاون على الخير، ولكن من الأمور ماليس يفصل فيه إلا الزمن وحده.. فلنترك للزمن أداء مهمته وإصدار حكمه وهو خير كفيل بالصقل والتمييز". لكن البنا يستدرك "وليس معنى هذا أن الإخوان سيحاربون مصر الفتاة بل أنه ليسرنا أن يوفق كل عامل للخير وإلى الخير، ولا يحب الإخوان أن يخلطوا البناء بهدم، وفى ميدان الجهاد متسع للجميع"(٢٤).

وعلى أية حال فقد أدت هذه العلاقة الحميمة بين الشيخ البنا ومحور القصر على ماهر- المراغى- عزيز المصرى الى تداعيات عدة.. فهى من ناحية مكنت البنا من أن يقفز بجماعته إلي سطح الأحداث.. وفى عام واحد أو عامين تضاعف عدد شعب الجماعة إلى أكثر من عشرة أضعاف وامتلكت مجلة ناطقة باسمها، وتشكلت فرق جوالتها لتمارس مهام الردع وحفظ النظام، وحشدت لمظاهرات كانت أول مظاهرات فى تاريخ مصر الحديث تهتف بحماس بحياة الملك.

لكن للتداعيات وجهها الآخر.

فقد اعترضت مجموعة هامة من أعضاء الجماعة وكوادرها القيادية فى

عام ١٩٣٩ على هذا الانغماس السياسى المناوىء لمصالح الجماهير ورفضوا أن يهتفوا بحياة ملك يعرفون جيدا كم هو فاسد ورفضوا الانغماس فى مؤتمرات مشبوهة يحركها سياسى مشبوه مثل على ماهر.. وقيل أن بعض هؤلاء المتمردين كان وفدى النزعة.. ففى المرحلة الأولي من الجماعة والتى كانت تكتفى فيها بإظهار نزعة دينية خالصة لم يكن هناك ما يمنع ذوى الميول الوفدية من الانتماء إليها، أما أن تصبح الجماعة أداة لضرب الوفد لصالح القصر فذلك أمر آخر.. وهكذا "وجه المتمردون إنذارا الى الشيخ البنا بطرد أحمد السكرى لاتجاهاته السياسية ويقطع الجماعة كل اتصالاتها السياسية خاصة مع علي ماهر"(٢٥). لكن البنا يرفض الأنذار، ويصدر قرارا بطرد كل معارضيه من صفوف الجماعة، بل ويهددهم بإبلاغ البوليس ضدهم إذا هم أذاعوا أسرار الجماعة (أية أسرار؟ ولماذا يحميها البوليس؟وكيف يستعين زعيم بالبوليس ضد معارضين له من صفوف حزبه؟)، والحقيقة أن هناك من الشواهد ما يثبت أن البوليس كان يحمى حسن البنا بتعليمات من السلطات العليا(٢٦). وتقول باحثة أخرى (إن هذه الأيام قد شهدت أكثر فأكثر الطابع الديكتاتورى لتصرفات الشيخ حسن البنا تجاه أعضاء الجماعة، وأصبح واضحا أنه ينوي أن يوجه بنفسه ووحده دفة العمل السياسى للجماعة"(٢٧). وقد كوّن المنقسمون جماعة "شباب سيدنا محمد" وخرجت معهم مجلة "النذير" وظلوا لفترة يرددون معلومات عن مساعدات مالية تلقاها البنا من على ماهر(٢٨).

ويكتب أحد زعماء الانقسام محمود أبو زيد عثمان فى مجلة النذير يحدد فيه أسباب انقسام مجموعته فيتهم الشيخ البنا بأنه:

١ - موال للقصر الملكى وعلى ماهر.

ب- يتلاعب بأموال الجماعة.

جـ- يرفض تطبيق مبدأ الشورى.

د- يحمى بعض الشخصيات غير الأخلاقية (الشيخ عبد الحكيم عابدين)(٢٩).

ومن التداعيات أيضا أن الإنجليز بدأوا يشعرون بخطر التقاء الجماعة والشيخ مع مخطط الموالين للمحور.. ثم بدأت السفارة البريطانية فى تسليط عيونها على تحركات الشيخ، ووضعته فى موضع الخصومة، خصوصا بعد أن تمكنت من الإطاحة بوزارة على ماهر.. ويروى د. محمد حسين هيكل باشا في مذكراته أن السلطات البريطانية أبلغت حسين سرى باشا رئيس الوزارة أن حسن البنا يعمل لحساب الإيطاليين ورأت ضرورة الحد من نشاطه "ورأى سرى باشا أن ينقل الرجل من القاهرة إلى بلد ناء بالصعيد يكفل هذا الغرض فحدثنى فى الأمر، وطلب إلى نقله إلى قنا ولم أجد بأسا من إجابة طلبه"(٣٠). لكن أمر النقل ألغى فورا بضغط من القصر.

"علي أن السلطات البريطانية لم تلبث أن عادت فطلبت اعتقال حسن البنا وأحمد السكرى فى ١٩ أكتوبر ١٩٤١، كما ألقى القبض ايضا على عبد الحكيم عابدين وغيره من الإخوان المسلمين"(٣١).

وهكذا تبدأ المحنة الأولى فى تاريخ الشيخ وجماعته، لكنها محنة قصيرة فللبنا أصدقاء حميمون ذوو نفوذ.. فقد أفرج عن البنا ورجاله بعد بضعة أيام. ويقول جورج كيرك المعروف بسعة اطلاعه أن الإفراج قد تم "بضغط من القصر الذى ساد الاعتقاد أنه يمده (البنا) بمعونة سخية"(٣٢).

وثمة شاهد عيان يقدم معلومات هامةعن واقعة الإفراج المفاجىءوعن ملابساتها. يروى« أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة أنه لما قامت الحرب أودع أحمد حسين وزملاؤه فى معتقل الزيتون، وأوقف كل نشاط لهم. وأن

حسن البنا وقادة الإخوان اعتقلوا فى مستهل الحرب كغيرهم. فما راع المعتقلين إلا أن حضر المعتقل حامد جودة (وزير السعدى فى وزارة حسين سرى ١٩٤١) واجتمع بحسن البنا عدة ساعات، ثم ما لبث البنا أن أفرج عنه بعد بضعة أيام. ويفسر أحمد حسين هذا الإفراج الغريب بأنه كان تعبيرا عن رغبة حزب السعديين فى استغلال حركة الإخوان فى دعم نفوذ الحزب. وقال أن الشيخ خرج من المعتقل وقد ازداد جاها ونفوذا.. ومضى فى دعوته حرا طليقا يجوب البلاد يؤلف الشعب وينظم الجماعات، واشتهر فى البلاد أن الإخوان المسلمين فى حماية الحكومة وفى حماية السعديين بصفة خاصة(٣٣). وثمة شهادة أخرى لأحد أقطاب حزب مصر الفتاة هو محمد صبيح الذى أكد (فى مناقشة له مع د. عبد العظيم رمضان) أن فاروقا قد حمى الإخوان وضغط للإفراج عنهم(٣٤).

وخرج البنا ليقيم حوارا مع السفارة البريطانية.. الأمر الذى يؤكده الجميع بما فيهم البنا نفسه وإن اختلف البعض حول نتائجه.

وقبل أن نغلق ملف "المحنة الأولى" تبقي ملاحظتان:

الأولى أن العلاقة بين البنا والقصر لم تمنع البنا من إقامة علاقة وثيقة مع ولى العهد المناوىء لفاروق ولنهجه فى التقارب مع المحور، والذى كان على الدوام متفانيا فى الإخلاص للإنجليز.. وكتعبير عن علاقة حميمة أهدى ولى العهد مكتبة إسلامية ضخمة للمركز العام للإخوان المسلمين فى الحلمية الجديدة(٣٥).

والملاحظة الثانية يؤكدها أحمد حسين فى مرافعته السابقة وهى أن البوليس لم يكن يعتبر جماعة الإخوان المسلمين مجالا لنشاطه، فلم يتعقب نشاطهم ولم يجمع عنهم أية معلومات، فقد كان مطمئنا إليهم كل الاطمئنان. وقال أحمد حسين أنه عند صدور قرار حل جماعة الإخوان المسلمين كان

البوليس في فزع شديد لأنهم لم يكونوا قد اتخذوا أى إجراء وقائى ضد نشاطهم بل أن أحمد حسين يروى واقعة غريبة فيقول أنه قابل يوما هو وحسن البنا عبد الرحمن عمار (مدير الأمن العام ثم وكيل وزارة الداخلية الموالي للسعديين) وأن الشيخ واجه عمار بأنه كان عضوا فى جماعة الإخوان فلم ينف عمار ذلك، وقد طلب أحمد حسين عبد الرحمن عمار للشهادة أمام المحكمة وواجهه بهذه الواقعة(٣٦).

وتأتى أحداث ٤ فبراير ١٩٤٢ ويأتى الوفد إلى الحكم.

وكان الوفد فى هذه الأيام يعانى من أثر قبوله للحكم على "أسنة رماح الإنجليز" كما قال خصومه، ويعانى من هجمات شديدة تتهم حكمه بالفساد، ويعانى من تسلل غالبية إقطاعية إلى صفوف قيادته تحت زعامة شاب إقطاعى مليء بالنشاط والحيوية هو فؤاد سراج الدين، ويعانى فوق هذا وذاك من انقسامات تهدده.

وهكذا كانت بعض أجنحة الوفد مهيأة تماما للالتقاء مع خصم الأمس الشيخ البنا.

والحقيقة أن الجناح الليبرالى للوفد كان يرفض وبشدة أى تداخل للدين أو الجماعات الدينية في السياسة، وكان مصطفى النحاس باشا ذا حساسية خاصة تجاه هذا الأمر.. وعندما التقى النحاس باشا بأحمد حسين رئيس مصر الفتاة صاح فى وجهه بانفعاله المعروف قائلا "أنت دسيسة وهناك من دفعك إلى هذا العمل، وإلا فمن أين تأتى بالمال الذى تصرفه علي الحركة؟" ثم بدأ يناقشه فى مبادىء مصر الفتاة قائلا "أن فيها بعض المبادىء الخطرة التى لا أكاد أفهمها خذ مثلا "الله" التي وضعتها فى أول شعارك فلست أراها إلا شعوذة، لأن وضع "الله" فى برنامج سياسى هو شعوذة"(٣٧).

أما الجناح اليمينى فى الوفد والذى كان يجد لنفسه فى ذلك الحين قوة

قائدة هو فؤاد سراج الدين باشا "فقد كان يعتبر أن حركة الإخوان المسلمين تمثل أداة مفيدة ضد الضغوط الاجتماعية المتزايدة خاصة وأن الشيوعيين قد ازداد نشاطهم خلال فترة الحرب؛ وهكذا فإن سراج الدين قد استغل منصبه كوزير للزراعة لتشجيع الإخوان على توسيع نشاطهم فى الريف"(٣٨).

وهكذا، وعلي أكتاف سراج الدين باشا ومجموعة إقطاعيى الوفد وثب الشيخ البنا نحو الريف، لكن العلاقة بين الوفد والإخوان متعرجة تعرج المنطلقات الاجتماعية المختلفة داخل الوفد ذاته.

ففى ٧ فبراير١٩٤٢ أعلن النحاس باشا رئيس الوزارة حل البرلمان وإجراء انتخابات جديدة، وكان المؤتمر السادس للإخوان والذى عقد فى يناير ١٩٤١ قد أعلن أن الوقت ناضج تماما كى يخوض مرشحو الإخوان المسلمين المعركة البرلمانية. ورشح البنا نفسه فى دائرة الإسماعيلية، لكنه ما لبث أن سحب ترشيحه على أثر مقابلة عاجلة بينه وبين رئيس الوزراء(٣١).

ويقال أن البنا قد طلب "ثمنا"عاليا مقابل سحب ترشيحه وكان الثمن:

أ- إطلاق حرية النشاط أمام الجماعة.

ب- وعد من الحكومة باتخاذ إجراء ما ضد بيع المشروبات الروحية وضد بيوت البغاء المصرح بها رسميا(٤٠).

وفى نهاية عام ١٩٤٢ عاد النحاس إلى التصادم مع الإخوان فأغلق مقارهم جميعا ما عدا المركز العام، ثم عادت العلاقات إلى التحسن على أثر زيارة قام بها بعض قادة الوفد للمركز العام(٤١).

خلاصة الأمر لقد وضح مبدأ التحالف بين الوفد والإخوان في فترة محددة تماما هى فترة تولى الوفد الحكم.. ليس قبلها وليس بعدها (فتحالفات الإخوان كانت دوما مع من هم فى الحكم)، كما أن هذه التحالفات كانت محلا لصراعات داخل الوفد ذاته: "الليبراليون" ضدها وكبار الملاك معها.

يقول ريتشارد ميتشل الباحث المعتمد من جماعة الإخوان "أن جماعة الإخوان قد جسدت نظرة تقليدية للإسلام وقدمته كحصن واق من أية هزات جذرية اجتماعية أو اقتصادية، إن هذه النظرة تفسر جزئيا موقف الصداقة الذى اتخذه الوفد- أو بالأحرى الجناح اليمينى منه- حيال الجماعة عامى ٤٣- ١٩٤٤، ولعلها تفسر أيضا مواقف الصداقة التى اتخذها القصر وحكومات الأقليات تجاه الجماعة"(٤٢).

وما إن أقيل الوفد وجاءت سلسلة حكومات الأقلية حتى غير البنا دفة تحالفاته.. فحاول مرة أخرى أن يعزز علاقته بالقصر، وإذ فقد قناة الاتصال التى تمثلت فيما سبق فى على ماهر- المراغى اللذين لم يعودوا مقربين من القصر، كان البنا يبحث بدأب عن قناة اتصال جديدة بينه وبين الملك، ويروى أنور السادات أن الشيخ البنا قد ألح عليه إلحاحا شديدا أن يحاول ترتيب اتصال مع الملك عن طريق يوسف رشاد، وأن يوسف رشاد قد قابل البنا بناء علي تفويض من الملك، ويضيف السادات أن يوسف رشاد قد أفهمه فيما بعد، أن عام ١٩٤٦ قد شهد رضاء تاما من الملك عن الشيخ البنا وجماعته(٤٣).

ومع التقلبات المختلفة للسياسة كان الشيخ يحاول المناورة بمهارة.

لقد استفاد كغيره من خصوم الوفد من حادث ٤ فبراير(٤٤) ثم استفاد من الجناح اليمينى من الوفد ثم عاود تحالفه مع حكومات الأقليات.

وفى عام ١٩٤٥ أجري أحمد ماهر باشا انتخابات لم تكن نظيفة وقد رشح فيها البنا وخمسة من أتباعه أنفسهم وفشلوا جميعا.

ولعل البنا قد شعر بالحاجة إلى إعادة تعزيز صفوف جماعته فى أعقاب هذا الفشل.

فعقد مؤتمرا جديدا للجماعة، ويلاحظ أن الحكومة قد سمحت بالمؤتمرفى

الوقت الذى حرمت فيه أية اجتماعات سياسية لأى حزب آخر. وقد أقر المؤتمر مقترحات البنا بشأن قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين العامة والذى يمثل لائحة النظام الداخلى للجماعة.. وبهذا القانون عزز المرشد العام قبضته بحزم على كل مقدرات الجماعة.

وتجيء أحداث ١٩٤٦، حيث يرتفع المد الثورى عاليا وتلتهب مصر كلها مطالبة بالجلاء التام. وكانت الجماعة محورا من أهم محاور النضال الوطنى فى ذلك الحين.. كذلك كانت المراكز العمالية المهمة مثل شبرا الخيمة وغيرها.

وفى شبرا الخيمة وخلال أيام الإضراب الكبير شاهدنا فى صفحات سابقة موقف جماعة الإخوان وأعضائها، فكيف كان الأمر فى الجامعة؟

لقد اتجه التأثير السياسى فى الجامعة إلى ثلاث شعب: الوفد بنفوذه التقليدى فى صفوف طلاب الجامعات ثم الإخوان المسلمون والشيوعيون بتأثيرهما اللامع والمتزايد خلال عامى ٤٦- ١٩٤٧.

وقد حاولت القوى الوطنية بمختلف فصائلها أن توحد صفوف الجامعة باتجاه برنامج وطنى وكانت البداية دعوة لمؤتمر عام بكلية الطلب فى ٧ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٥ لكن الإخوان المسلمين وفي محاولة لإفشال هذا المؤتمر سارعوا بعقد مؤتمر خاص بهم قالوا أنه قد حضره . . . ٦٠ طالب ووجهوا باسم هذا المؤتمر رسالة إلى رئيس الوزراء قالوا أنها تعبر عن "أرض مصر الخضراء" ثم حضروا إلى مؤتمر ٧ أكتوبر مطالبين الجميع بالموافقة على مقررات مؤتمرهم فلما رفض الحاضرون وجدوا فى ذلك حجة كافية للانسحاب(٤٥).

واستمر الحلف الوطنى يبلور نفسه فى الجامعة فى إطار "اللجنة التحضيرية للجنة الوطنية للطلاب" والتي مثلت الطلاب من الوفديين

والشيوعيين وغيرهم.. بينما بقى الإخوان المسلمين خارج إطارها يحاولون العمل فى خط مناوىء.

وشهدت الجامعة تحركين.. تحرك ومظاهرات القوى الوطنية مؤتلفة فى "اللجنة الوطنية للطلاب" وتحرك الإخوان المسلمين فى اتجاه مضاد (٤٦).

وخلال الإعداد المكثف ليوم الإضراب العام فى ٢١ فبراير ١٩٤٦ أوفدت "اللجنة الوطنية للطلبة والعمال" التى تكونت من إتحاد اللجنة الوطنية للطلاب مع القيادات العمالية الوطنية، مندوبين لمقابلة الشيخ البنا ودعوته للاشتراك فى الإعداد لهذا اليوم، لكن الشيخ راوغهم ثم رفض فى حسم على أساس "أن الإخوان غير جاهزين". ومع ذلك فقد كان الإخوان جاهزين تماما قبلها بأيام (١١ فبراير) لتسيير مظاهرة يقودها زعيمهم الطلابى (مصطفى مؤمن) لتتجه فى حراسة البوليس نحو قصر عابدين وتردد شعارات موالية للملك(٤٧). وكان الإخوان جاهزين تماما للاحتفال بعيد جلوس الملك فى مايو ١٩٤٦ احتفالات مبالغ فيها إلى حد كبير.. ففى هذا العام الذى سجلت فيه الجماهير الشعبية بدمائها وشهدائها رفضها للاحتلال ولعملائه فى القصر الملكى ومجلس الوزراء.. أقام الإخوان مهرجانات كثيفة فى مختلف أنحاء القطر احتفالا بجلوس الملك، وشارك البنا وأعضاء مجلس الارشاد العام فى هذه الاحتفالات المتحدية لمشاعر المصريين جميعا. وتنشر جريدة الإخوان "جاءنا من المحلة الكبرى أن استعراضا جميلا مؤلفا من خمسمائة وألف من جولة الإخوان المسلمين هناك أقيم بعد ظهر أمس ابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة"(٤٨). وفوق ذلك فقد حاول الشيخ البنا صرف الأنظار بعيدا عن القضية الوطنية معلنا أن المشكلة الأساسية هى استعادة الخلافة الضائعة. ولعله بذلك كان يغرى الملك أيضا إذ يقدم له وعدا بعمامة الخلافة.

وهكذا تتعزز العلاقة بين القصر الملكى والإخوان.. وتصل إلى

درجةالتشاور مع البنا قبل استدعاء إسماعيل صدقى(٤٩) ليتولى رئاسة أكثر الوزارات خيانة وهمجية فى تاريخ مصر الحديث.

وفى فبراير ١٩٤٧ يخطو الشيخ البنا أولى خطواته على عتبات قصر عابدين مدعوا لأول مرة إلى وليمة ملكية. وبقدر ما كان عاما ٤٦- ١٩٤٧ عامى التباعد بين الإخوان وبين الخط الوطنى،وبقدر ما كان الإخوان يتورطون فى مباركة خطوات لايمكن لوطنى أن يباركها كما شاهدنا فى صفحات سابقة من مباركه معاهدة صدقى- بيفن ومن علاقات البنا الوثيقة بالطاغية صدقى.. بقدر ما كان الثمن سخيا.

يقول ريتشارد ميتشل "وعلى أية حال فإنه طوال عامى ٤٦- ١٩٤٧ من الواضح أن جماعة الإخوان كان ينظر إليها باعتبارها أداة لمناهضة الوفد والشيوعية. ويبدو أن البنا قد حصل من صدقى على مجموعة من التسهيلات الرسمية(أ) شجعته على القيام بهذا الدور. ومن بين هذه التسهيلات: ترخيص بإصدار جريدة يومية رسمية للجماعة هى "الإخوان المسلمين" التى صدرت في مايو ١٩٤٦، وكذلك تراخيص ورق طباعة بالسعر الرسمى بما يعنى توفير حوالى ٢٠ أو ٣٠ بالمئة من أسعار السوق السوداء، وأيضا امتيازات هامة لفرق الجوالة التى تقرر منحها زيا رسميا وأدوات ومعدات بأسعار مخفضة أو رمزية ومنحها أرضا لإقامة معسكراتها عليها. كذلك حرص صدقى على تعيين محمد حسن العشماوى وهو أحد الأصدقاء المقربين للشيخ البنا وزيرا للمعارف العمومية.. ومن الأرجح أن المعونة المالية قد قدمت للجماعة من خلال وزارتى المعارف والشؤون الاجتماعية بوصفها مساهمات أو إعلانات حكومية للخدمات التعليمية والاجتماعية والخيرية التى تقوم بها الجماعة"(٥٠).

وكان طبيعيا أن يتجاوب الإخوان أكثر فأكثر مع سياسة صدقى فى مقابل

هذه التسهيلات، فجند الإخوان جوالتهم وكل قواهم لمحاربة كل من خاصم صدقى وسياسته الخائنة.

وتركز هجوم الإخوان فى شعبتين "الوفد" و"الشيوعيين".

يقول أحمد حسين أن الإخوان قد "خاصموا الوفد وخاصمهم فبدأت الاحتكاكات بين الطرفين وبدأ الصدام على طول الخط، وكان طبيعيا أن تقف الحكومة إلى جوار الإخوان فى كل صدام يقع بينهم وبين الوفد وكانت تحميهم وتشد أزرهم"(٥١).

ورد الوفديون بالمثل فهاجمت صحف الوفد الشيخ البنا وأسمته "الشيخ حسن راسبوتين" وقالت جريدة الوفد "صوت الأمة" فى وصف زيارة للشيخ لأحد الأقاليم "هتف الناس بسقوط الشيخ صنيعة الإنجليز"(٥٢). وشاركت "مصر الفتاة" فى الحملة على البنا وكتب أحمد حسين يهاجم البنا قائلا "حسن البنا أداة فى يد الرجعية وفى يد الرأسمالية اليهودية وفى يد الإنجليز وصدقى باشا"(٥٣).

وإذ استند الإخوان إلى حماية السلطة فقد لجأوا إلى ممارسة العنف السياسى على أوسع مدى. وشهدت المصادمات السياسية لأول مرة استخدام الرصاص والقنابل والفصائل المنظمة شبه العسكرية للجوالة.

وفى ٦ يوليو ١٩٤٦ وقع صدام بين الإخوان والوفديين فى بور سعيد استعمل فيها الإخوان الرصاص وألقوا ثلاث قنابل فأسفر الحادث عن قتل واحد من الوفديين وإصابة ٣٥ "فتحمع الكثيرون على دار الإخوان وأشعلوا الحريق فيها وفى النادى الرياضى للإخوان"(٥٤). وكان الشيخ البنا يزور المدينة فحاصره الوفديين فى أحد المساجد لكنه استطاع الهرب، وفى اليوم التالى شيعت جنازة المتوفى "حيث قام المشيعون بمحاصرة مركز للإخوان وقذفوه بالحجارة فعمل البوليس علي تفريقهم فاعتدوا عليه، فأطلق عليهم

الرصاص وأصيب ١٦ شخصا"(٥٥).

أما الشيوعيون فقد كان نصيبهم أكبر.. إذ بارك الإخوان رسميا الحملة الهمجية التى شنها صدقى على اليساريين والديمقراطيين والوفديين والشيوعيين تحت ستار ما أسمى فى ذلك الحين "قضية الشيوعية الكبرى". وأفردت جريدة الإخوان بابا يوميا لمتابعة هذه الحملة وتقريظها بعنوان "مكافحة الشيوعية".

ويقول ميتشل "أن مخابرات الجماعة أمدت الحكومة بمعلومات مفيدة خلال التفتيش المستمر عن الشيوعيين المعروفين والمشتبه فيهم، وبوجه خاص فى الدوائر العمالية والطلابية"(٥٦).

وهكذا كان الحلف الثلاثى: القصر- حكومات الأقلية- الإخوان المسلمون يلتقى عند محور أساسى وهو العداء للوفد والشيوعيين.. ويلتقى أيضا حول مواقف محددة من القضية الوطنية وأسلوب حلها. وهى مواقف كانت تحظى برفض القوى الوطنية عموما..

لكن الإخوان قد مضوا فى طريقهم إلى مدى بعيد.

فهم لم يقسموا الصف الوطنى فحسب بل عمدوا وفى وقت حرج إلى إثارة الفتنة الطائفية أى تفتيت وحدة عنصرى الأمة.

وتنشر جريدة "مصر" أن جماعة الإخوان أقامت حفلا أمام كنيسة مار جرجس وكان خطيب الإخوان يردد "غدا تؤل شركة المياه إلينا فلا نترك فيها قبطيا واحدا.. وغدا يسيطر المسلمون علي جميع الشركات فلا يبقي فيها قبطى واحد"(٥٧).

ولقد يبدو هذا النهج غريبا فى بلد يجابه المستعمر، ويستمد قوته الأساسية فى هذه المجابهة من وحدته الوطنية سواء على المستوى الدينى أو على المستوى السياسى.

لكن الدهشة تتضاعف عندما نجد أحد قادة الإخوان هو الشيخ محمد الغزالى يصدر كتابا بعنوان (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) يرفض فيه مبدأ الوحدة الوطنية بل ويدينها، فهو يقول أن اتفاق زعماء المسلمين والنصارى إبان ثورة ١٩١٩ كان على أن ينسى الجميع أديانهم فى سبيل طرد العدو وهو اتفاق يعتبره غريبا وتنفيذه أغرب، وقال أن كثرة الموظفين النصارى فى الإدارات المصرية "إقصاء للإسلام وتغليب غيره عليه"(٥٨).

أى توقيت هذا؟

وأى ثمن فادح دفعه الإخوان مقابل ما حصلوا عليه من "تسهيلات"؟

والحقيقة أن الثمن الذى دفعوه لم يكن قاصرا علي تفتيت الوحدة الوطنية الدينية ولا الوحدة الوطنية السياسية فى وقت كانت مصر تواجه فيه عدوها الأساسى الاحتلال.. وإنما امتد أيضا إلى صفوفهم أنفسهم انقساما وعزلة.. الأمر الذى مهد السبيل لضربهم بأيدى من تحالفوا معهم وشجعوهم علي السير فى هذا النهج.

وأخيرا، وقبل أن نقلب هذه الصفحة بقى أن نقول أن الإخوان سرعان ما إنقلبوا علي صدقى نفسه عندما أحسوا أن أيامه فى الوزارة قد انتهت وأن ثمة قادم جديد هو النقراشى، فحالفوا القادم الجديد كعادتهم.

ولم يكن من السهل أن يقتنع كل أخوانى بهذا النهج.

ولم يكن من السهل على "الأخ المسلم" أن يجد نفسه فى مظاهرة تهتف بحياة ملك فاسد أو رئيس وزارة خائن، ويؤيد معاهدة ترفضها مصر كلها، ويقسم الصف الوطنى.

وكان الانقسام هو السبيل الوحيد فى جماعة تحكمها من أعلى قبضة واحدة قوية.

واستند المعارضون للشيخ إلى قضية شائكة وحساسة كانت كامنة فى الجماعة منذ عام ١٩٤٥ عندما أثار البعض شكوكا أخلاقية ضد عبد الحكيم عابدين السكرتير العام للجماعة وزوج شقيقه الشيخ البنا.

وكلف البنا أحد قادة الجماعة المقربين منه د. إبراهيم حسن بالتحقيق فى التهمة وهى "انتهاك حرمة بيوت وأعراض بعض الإخوان". وبينما يواصل د. إبراهيم حسن تحقيقه تتسرب الأنباء لتثير غضب بعض الأعضاء فيقدم المحقق اقتراحا توفيقيا ويطالب فيه بفصل عبد الحكيم عابدين وبفصل الأعضاء الأربعة فى مكتب الإرشاد العام الذين اتهموه.. لكن البنا يتمسك بصهره ويحاول الخروج من المأزق بتشكيل لجنة تقصى حقائق من كبار قادة الجماعة. إذ تمارس هذه اللجنة نشاطها بقدر من العلنية يتزايد عدد الشاكين من تصرفات عبد الحكيم عابدين وتوضع اللجنة فى مأزق: فالتهم كثيرة وخطيرة والمتهم صهر الإمام وصديقه وكاتم أسراره.. ولهذا تقدمت اللجنة باقتراح توفيقي تصورت أنه قد يرضى المرشد.. أن تعلن اللجنة رسميا أنها لم تتثبت من صحة التهم الموجهة ضد عابدين على أن يبعد عن منصبه وعن الجماعة كإجراء "تطهيرى". ويرفض الشيخ مرة ثانية ويتشبث بعابدين.

ويعقد مكتب الإرشاد العام اجتماعا عاصفا يقف فيه الشيخ البنا لأول ولآخر مرة فى حياته فى مواجهة إجماع عاصف يتهم صهر الشيخ تهما خطيرة أقلها بأنه "راسبوتين الجماعة".

ويصمم المرشد على موقفه فى حماية صهره متحديا إجماع مكتب الإرشاد العام وقرار لجنة تقصى الحقائق ويعتمد البنا على نفوذه فى الهيئة التأسيسية للجماعة "للحصول على قرار ببراءة عابدين- مراعاة لصالح الجماعة، بعد أن وعد بسحب اختصاصاته وإبعاده نهائيا بعد فترة".

واستقال د. إبراهيم حسن احتجاجا فى إبريل (نيسان) ١٩٤٧ واستقال

معه البعض.

ثم جاء خلاف جديد مع قائد آخر من الأعمدة الأساسية هو أحمد السكرى. ولقد شهدت الصفحات الأولى من هذا البحث علاقة وثيقة بين البنا والسكرى منذ أيام الطفولة، وثقة تامة منحها الشيخ للسكرى للتفاوض باسمه مع الكثير من الجهات التى تتطلب العلاقات بها ثقة عالية مثل السفارة البريطانية والوفد وغيرها.

ويبدو أن نهج الشيخ المتعسف تجاه غالبية مكتب الإرشاد قد فجر جرحا قديما عند السكرى الذى كان يطالب وباستمرار بتقليل سلطات المرشد وبديمقراطية العلاقة فى التنظيم.

ويبدو أن هذه الأزمة قد واكبت خلافا بين المرشد والسكرى حول موضوع العلاقة مع الوفد. فالسكرى لم يكن يرى أى خير فى التصادم مع الوفد، أكبرقوة سياسية جماهيرية فى البلاد، بل وطالب بنوع من "الوحدة بين الحزبين"(٥٩).

ويضيف بعض الباحثين أن السكرى قد هاجم البنا محتجا على قبوله "معونات مالية من الإنجليز"(٦٠).

وببساطة شديدة طلب البنا من الهيئة التأسيسية مساءلة أحمد السكرى حول موضوعات حددها، وأصدرت الهيئة قرارهابفصل السكرى. وتبع ذلك سلسلة واسعة من الاستقالات.

وكان خروج د. إبراهيم حسن والسكرى ومن لف لفهما ضربة قاصمة للجماعة. لأنه قد حرمها من عدد من أهم كوادرها الأساسية، وفجر على السطح قضايا هزت الثقة فى الجماعة ونقاء دعوتها، وفى الشيخ وقدرته على تخطى علاقاته الأسرية. وإذ كانت الخلافات نتيجة لتدهور موقف الجماعة من القضية الوطنية والقوى الوطنية وعلى رأسها حزب الوفد، فقد

انتهز الوفد الفرصة ليثير حملة إعلامية كاسحة هزت أركان الجماعة بالفعل. وفى مواجهة ذلك صمم الشيخ على أن يحكم قبضته أكثر فأكثر على الجماعة.. فكان اعتماده المباشر على الجهاز السرى.. الذى أسرع فى تدريبه وتوسيعه وتسليحه.. واستخدامه أداة لحفظ النظام فى صفوف الإخوان، وإرهاب خصومه فى داخل الجماعة وخارجها.

.. وكان ذلك كله يجرى والجماعة والشيخ يستهلكان رصيدهما الشعبى بسرعة محمومة.. والشيخ يتصور أنه بمجاراته للقصر وعملائه من حكام الأقلية إنما يكسب وقتا وعونا ودعما يمكنه من تعزيز جماعته استعدادا ليوم موعود.. ناسيا أن أية جماعة سياسية وأى زعيم سياسى تنتهى قيمته الحقيقية عندما يستهلك رصيده لدى الجماهير، وأن رؤساء أحزاب الأقلية كانوا يشترون بمساعداتهم وعونهم المالى دماء الجماعة ورصيدها وسمعتها وجماهيريتها.. وعندما تتناقص هذه القيم إلى حد معلوم يصبح التخلص من الجماعة ذاتها سهلا.. خصوصا إذا ما كانت قد اكتسبت بتلوثها المستمر رصيدا من عدم الثقة، وإذا ما كان احتفاظها بجيش سرى، يخيف الجميع، خصومها وأصدقاءها على السواء.

هوامش الفصل الثالث

الصعود.. هبوطا

١- حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٥٢.

٢- الإخوان المسلمون- نوفمبر ١٩٤٤- حسن البنا، مقال بعنوان "نحن".

٣- محاضر جلسات المحكمة العسكرية العليا فى القضية رقم ٣٧٣ لسنة ١٩٤٥ والخاصة باغتيال أحمد ماهر باشا. شهادة الشيخ حسن البنا، ص١١٥.

٤- آخر ساعة، ١٥- ٣- ١٩٤٦.

٥- الإخوان المسلمون (الأسبوعية) ٢٧- ٧- ١٩٤٦.

٦- محضر التحقيق فى قضية اغتيال أحمد الخازندار بك. أقوال الشيخ حسن البنا.

٧- حسن البنا، قول فصل ص ٢٣.

8- Florence Elliot and Michael Summerskill - A Dictionary of politics - 4th ed. (1964) p. 247.

9- Khadduri - op. cit. p. 75.

١٠- حسن البنا، الإخوان المسلمون نحن راية القرآن- ص ١٢.

سياسة.. بلا برامج

١- النذير، العدد الأول (مايو ١٩٣٨) حسن البنا- الافتتاحية.

٢- حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية- ص ٢٨٣.

٣- المرجع السابق، ص ١٥١.

٤- أبو الأعلى المودودى، نظرية الإسلام السياسية- المرجع السابق ص ٥٥.

٥- أبو الأعلى المودودى، المصطلحات الأربعة فى القرآن- تعريب محمد كاظم سباق- الطبعة الخامسة (١٩٧١) دار القلم- الكويت، ص ١٢٠.

٦- الإخوان المسلمون (الأسبوعية) ٤- ٣- ١٩٤٥. حنفى محمود بدير، مقال بين الدين والسياسة.

٧- الإخوان المسلمون (الإسبوعية) ٤- ٣- ١٩٤٥. الصاوى محمد عوض، مقال: هل السياسة من صميم فكرتنا؟

٨- الإخوان المسلمون، ١٦- ٤- ١٩٤٦. حسن البنا، مقال: الإسلام سياسة وحكم.

٩- محضر التحقيق فى القضية ٥١ لسنة ١٩٤٩ والخاصة بمقتل محمود فهمى النقراشى باشا- أقوال المتهم عبد الجيد حسن، ص ١٤.

١٠- حسن البنا، الإخوان المسلمون تحت راية القرآن- ص ٢٦.

١١- أنور الجندى، الإخوان المسلمون فى ميزان الحق- ص ١١.

١٢- المرجع السابق، ص ١٥.

١٣- المرجع السابق، ص ٥١.

١٤- النذير، العد العاشر (مجموعة عام ١٩٣٨).

15- Harris, Christina, Nationalism and Revolution in Egypt. The Role of Muslim Brotherhood (1964) p. 182.

١٦- طارق البشرى، المرجع السابق ص ٥٤.

١٧- حسين فوزى النجار، المرجع السابق ص ٦٧.

١٨- المرجع السابق، ص ١٤٨.

١٩- المرجع السابق، ص ٢٥٠.

٢٠- الإخوان المسلمون (الأسبوعية) ٩- ٤- ١٩٤٦. مقال لحسن البنا.

٢١- حسن البنا، مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي- ص ٤١.

٢٢- حسن البنا، الرسائل الثلاث، ص ١١٢.

٢٣- الإخوان المسلمون، ٢٢- ٧- ١٩٤٦. مقال لحسن البنا.

٢٤- المصور، ١- ٣- ١٩٤٦.

٢٥- حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص ٥٣.

٢٦- محكمة الشعب- الجزء الأول. محاكمة محمود عبد اللطيف. المرجع السابق. شهادة هنداوى دوير، ص ٦٣.

٢٧- محكمة الشعب- الجزء السادس- المحاكمات التي تمت من ٢٢ إلى ٢٥ نوفمبر ١٩٥٤- محاكمة حسن الهضيبي- شهادة منير الدلة. ص ١٢٠٨.

٢٨- حسن البنا، نحو النور.

٢٩- حسن البنا، رسالة المؤتمر الخامس.

٣٠- أنور الجندى، الإخوان المسلمون في ميزان الحق- ص ٦٢.

٣١- النذير- العدد ٣٣- حسن البنا، مقال الإخوان المسلمون والدستور المصرى.

32- Mitchell - op. cit. p. 236.

33- Safran - op. cit. p. 290.

٣٤- راجع لمزيد من التفصيل: عبد القادر عودة، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز زعمائه (١٩٥٢) ص٢٣.

٣٥- لمزيد من التفاصيل راجع: الإخوان المسلمون، ٢٩- ٧- ١٩٥٤.

وأيضا: محمد عبد الله السمان، الإسلام المصفى (١٩٥٤).

٣٦- سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام.

٣٧- حسن البنا، مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، ص ٦٠

38- Khadduri - op. cit. p. 79.

٣٩- أبو الأعلي المودودي، الحجاب. مؤسسة الرسالة (بيروت) ص ٧٢.

٤٠- السيد محمد عشماوي، المرجع السابق، ص ٢٠٥.

٤١- حسن البنا، إلى أي شيء ندعو الناس.

42- Harris - op. cit. p. 162.

٤٣- حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص ١١٥.

٤٤- أنور الجندي، الإخوان المسلمون في ميزان الحق- ص ٢٨.

٤٥- طارق البشرى، المرجع السابق ص ٦٩.

٤٦- لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد- اليسار المصرى والقضية الفلسطينية- دار الفارابى بيروت.

47- Mitechell - op. cit. p. 28.

٤٨- راجع في تحقيق هذه الواقعة: حسن البنا، نظام الأسر نشأته وأهدافه. وأيضا الإخوان المسلمون ٣١- ٧- ١٩٤٦. وأيضا الدعوة ٢٩- ٥- ١٩٥٤.

49- Heyworth - Dunne - op. cit. p. pp. 38 - 41.

50- Boehm, Les Freres Musulmans - pp. 200 - 218.

٥١- محمد جلال، مصريون لا طوائف- دار النيل للطباعة- القاهرة (١٩٥١) ص ٦١.

٥٢- صلاح الشاهد، ذكرياتي في عهدين- دار المعارف- القاهرة (١٩٧٦) ص ٤٨.

٥٣- مصطفى مؤمن، صوت مصر- ص ٢٧١.

٥٤- د. اسحق موسى الحسيني، المرجع السابق ص ٩٤.

٥٥- مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين، ص ٤٠.

٥٦- حسن البنا، نحو النور.

٥٧- حسن البنا، إلى أى شيء ندعو الناس.

٥٨- النذير- العدد الأول- مايو ١٩٣٨.

٥٩- أبو الحسن الندوى، كيف دخل العرب التاريخ؟- الطبعة الثانية- المختار الإسلامي ١٩٧٥- ص ٢٠.

٦٠- د. أنيس صايغ، الفكرة العربية في مصر- ص ٢٠٠.

٦١- طارق البشرى، المرجع السابق ص ٢٥١.

62- Mitchell - op. cit. p. 271.

٦٣- سيد قطب، السلام العالمي والإسلام (١٩٥١) ص ١٦٧.

٦٤- حسن البنا (الإمام الشهيد)، المأثورات- الطبعة الثانية- دار الشباب (١٩٧٥) ص ٣٤.

٦٥- حسن البنا، مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي ص ٨٣.

66- Khadduri - op. cit. p. 271.

٦٧- الإخوان المسلمون، ٧- ٥- ١٩٤٦.

٦٨- الإخوان المسلمون، ٢٤- ٨- ١٩٦٤.

٦٩- الإخوان المسلمون، ١٩- ٦- ١٩٤٦.

70- Wandley, William. J. The labour movement in Egypt - Middle East Journal iii (July 1949) p. 277.

٧١- أمين عز الدين، تاريخ الطبقة العاملة المصرية ص ١٧٦.

٧٢- الإخوان المسلمون، ٢٠- ٦- ١٩٤٦.

73- Boehm - op. cit. pp. 218 - 220.

وأيضا: أنور عبد الملك- مصر مجتمع جديد يبنيه العسكريون- دار الطليعة- بيروت (١٩٦٤) ص ٣٢.

٧٤- محكمة الشعب الجزء الثانى المرجع السابق، ص ٢٩.

٧٥- لمزيد من التفاصيل راجع:

Badaoui, Zaki, Les problemes du Travail et les organisations ouvriers.

76- Mithchell - op. cit. p. 282.

٧٧- الإخوان المسلمون، ١٨- ٨- ١٩٤٦.

٧٨- الإخوان المسلمون، ١٢- ٧- ١٩٤٦.

الانتماء لمن..؟

١- حسن البنا، الرسائل الثلاث، دعوتنا- ص ٢٦.

٢- حسن البنا، مشكلاتنا فى ضوء الإسلام- ص ٥٨.

٣- حسن البنا، رسالة المؤتمر الخامس- ص ٥٦.

٤- نقلا عن: محمد عودة، سبعة باشوات وصور أخرى- الكتاب الذهبى- ص ١٥٤.

٥- الأهرام، ٢٠- ٢- ١٩٧٠. موضوع: رأى السفير البريطانى منذ ٣٠ سنة في ١٥٠ سياسيا مصريا.

٦- ملف قضية الاغتيالات السياسية- شهادة على ماهر باشا.

٧- روز اليوسف، ٢٣- ١- ١٩٥١. مذكرات الدكتور الطيب الناصر.

٨- جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط- ترجمة عمر السكندرى- ص ٣٤.

٩- لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد: مصطفى النحاس، السياسي والزعيم والمناضل. دار القضايا بيروت (١٩٧٦) ص ٧٦ وما بعدها.

١٠- "المصرى"، ٢٢- ٢- ١٩٣٧.

11- Mitchell - op. cit. p. 16.

١٢- حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية. ص ٢٥٢.

١٣- الأهرام، ٢٢- ١٢- ١٩٣٧.

١٤- البلاغ، ٢٢- ١٢- ١٩٣٧.

١٥- حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية ص ٨٩.

16- Heyworth - Dunne - op. cit. p. 23.

١٧- صباح الخير، ٣١- ٣- ١٩٧٧. د. عبد العظيم رمضان، مقال: الدين فى الصراع السياسى.

١٨- مصر الفتاة، ٢٧- ٣- ١٩٣٩.

١٩- الدستور، ٢٧- ٧- ١٩٣٩- مقال لعباس محمود العقاد.

20- Ciano, Count Galeazzo - Ciano's Diary (1939-1943) London - p. 32.

٢١- الأهرام، ٩- ٢- ١٩٦٧. د. محمد أنيس: دراسة عن ٤ فبراير سنة ١٩٤٢.

٢٢- السياسة الدولية، أكتوبر ١٩٧١- د. عبد العظيم رمضان، مقال: الاتصالات المصرية بدول المحور ٣٩- ١٩٤٥.

23- Heyworth - Duune - op. cit. p. 36.

٢٤- حسن البنا، رسالة المؤتمر الخامس ص ٥٧.

٢٥- طارق البشرى، المرجع السابق ص ٤٨.

26- Heyworth - Dunne - op. cit. p. 38.

27- Harris, Christina - op. cit. p. 179.

28- Mitchell - op. cit. p. 17.

٢٩- آمال السبكى، المرجع السابق ص ٢٥.

٣٠- د. محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية ج٢، ص ٢٠٨.

٣١- د. عبد العظيم رمضان، الحركة الوطنية فى مصر من ١٩٣٧إلى ١٩٤٨ ج٢- دار الوطن العربى بيروت ص ١٢٨.

٣٢- جورج كيرك، المرجع السابق ص ٣١٤.

٣٣- مرافعة أحمد حسين المحامى في قضية اغتيال المرحوم فهمي النقراشي ١٩٤٩ ص ٤١.

٣٤- د. عبد العظيم رمضان، المرجع السابق ص ١٣٠.

٣٥- محمد شوقى زكى، المرجع السابق ص ١٤٥.

٣٦- مرافعة أحمد حسين، المرجع السابق ص ٤٢.

٣٧- المرجع السابق، ص ٤٧.

38- Mitchell - op. cit. p. 27.

39- Ibid - p. 27.

40- Heyworth - Dunne - op. cit. p. 40.

٤١- أحمد أنس الحجاجى، الإمام- الجزء الثانى ص ٣٩٩.

42- Mitcheel - op. cit. p. 39.

٤٣- أنور السادات، صفحات مجهولة.. الترجمة الإنجليزية ص ٩٩.

٤٤- أنور عبد الملك، المرجع السابق ص ٣٥.

٤٥- محمد حسن أحمد (اسم سري)، الإخوان المسلمون في الميزان ص ٨٨.

46- Thieck, Jean - Pierre - La Journee du 21 Fevrier 1946 dans l'historie du mouvement National Egyptien.

47- Mitchell - op. cit. p. 45.

٤٨- الإخوان المسلمون، ٦- ٥- ١٩٤٦.

٤٩- آخر ساعة، ١- ١٢- ١٩٥٤.

50- Mitchell - op. cit. p. 42.

٥١- مرافعة أحمد حسين- المرجع السابق ص ٤٣.

٥٢- صوت الأمة، ٢٨- ٨- ١٩٤٦.

٥٣- مصر الفتاة، ١٧- ٧- ١٩٤٦.

٥٤- المصرى، ٧- ٧- ١٩٤٦.

٥٥- الأهرام، ٨- ٧- ١٩٤٧.

56- Mitchell - op. cit. p. 39.

٥٧- جريدة مصر، ٣- ٥- ١٩٤٧.

٥٨- محمد الغزالى، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ص ١٨.

59- Mitchell - op. cit. p. 52.

60- Alexander, Mark - Left and Right in Egypt - Twentieth Century (Feb, 1952).

من المصحف .. إلى الديناميت

"خطوتنا الثانية.. أيها الإخوان تجهزوا"

تحت هذا العنوان كتب البنا افتتاحية العدد الأول لمجلة "النذير" وفيها يقول "أن الله لا يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن" وقال أنه سوف يتوجه بدعوته إلى كل المسؤولين فإن أجابوا آزرهم وإن لجأوا إلى الموارِبة والمراوغات "فنحن حرب على كل زعيم أو رئيس حزب أو هيئة لا تقوم على نصره الإسلام، ولا تسير فى الطريق إلى استعادة حكم الإسلام ومجد الإسلام"(١).

ولقد رأينا كيف دعا الشيخ أيضا إلى الجهاد.. وكيف جعله الفيصل الذى يميز بين جماعته وبين الجماعات الإسلامية الأخرى.

وكان البنا يلح ويلح على هذه المسألة ابتداء من عام ١٩٣٨ ويكثر من الحديث عنها نثرا وشعرا.

الدين شيء والسياسة غيره

دعوى نحاربها بكل سلاح

قد جاء طه عابدا ومجاهدا

دك الحصون وقص كل جناح(٢)

والسكرتير العام للجماعة عبد الحكيم عابدين أكثر من شيخه حماسا فى شعره عن الجهاد.

لنجرينها دماء جد ثائرة

وثورة الحق لا يدرى لها أمد

أو يرجع الشرع دستورا لأمتنا

فليحذر القوم أنى منذر صعد(٣)

ولقد قلنا فيما سبق أن عام ١٩٣٨ كان البداية لمرحلة التنفيذ التى تلى فى نظر الشيخ مرحلتين سابقتين هما:

"التعريف".. "والدعوة عامة فى هذا الطور وليست الطاعة التامة لازمة فيها..نظام الدعوة فى هذا الطور نظام الجمعيات الخيرية".

و"التكوين" عن طريق استخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد. و"نظام الدعوة فى هذا الطور صوفى بحت من الناحية الروحية وعسكرى بحت من الناحية العملية".

أما التنفيذ: فهو المرحلة الثالثة. و"الدعوة فى هذا الطور جهاد وعمل متواصل وامتحان وابتلاء"(٤).

والجهاد يبدأ.. والدعوة لا ترفع أعلامها فحسب وإنما تقترب من التنفيذ.. لكن كيف؟

وقبل أن نسأل كيف؟ نسأل لماذا؟ أو بالدقة نسأل ما هو جوهرالجهاد عند الشيخ البنا وكيف فهمها هو وأتباعه؟

تنبع الفكرة من تقسيم أولى قسم به الشيخ البنا المسلمين إلى أربعة أقسام: مؤمن- متردد- نفعى- متحامل(٥).

والمفهوم العملى لمثل هذا التقسيم هو كما يقول ريتشارد ميتشل "أنه وفقا لهذه النظرية فإنه ليس أمام أى مصرى إلا أن يضع نفسه فى أحد موضعين، فإما أن يكون عدوا للإخوان وإما أن يكون "مؤمنا" أى أن يكون أخا مسلما"(٦).

وانطلاقا من هذا التقسيم.. تكون جماعة الإخوان المسلمين هى ملتقى (مصب) المؤمنين، أى تكون بالمعنى الإسلامى التقليدى "جماعة المسلمين"وإمامها هو إمام أهل الحل والعقد فى الإسلام، والخروج على الإمام وعلى الجماعة هو خروج على "جماعة المسلمين" أى خروج على الإسلام ذاته.. ولهذا فإن الشيخ البنا كان منذ الأيام الأولى لجماعته يرى أن أى معارض له من "الخوارج" و"اضربوه بالسيف".

ولكن.. كيف فهم الإخوان فكرة الجهاد ؟

"الجهاد هو بذل كل جهد ممكن لاقتلاع جذور الطغيان والفساد فى الأرض، ولن يقدر الإنسان على اقتلاع الطغيان والفساد من حوله، إذا كان الطغيان والفساد يعيشان داخل نفسه.. ومن هنا أمر المسلم أن يبدأ بجهاد نوازع فى نفسه، ثم يثنى بمجاهدة الطغيان والفساد فى مجتمعه، ثم ينتهى إلى مجاهدة الطغيان والفساد فى العالم كله.. والمسلم لم يؤمر بمطلق جهاد يلقى به التبعة عن كاهله، وإنما أمر بالجهاد فى الله حق الجهاد، والجهاد فى الله حق الجهاد يقتضى من المسلم أن يكون دائما على أهبة العمل والبذل فإن طلب دينه منه الجهد بذله، أو المال أنفقه، أو النفس قدمها مطمئنا. المسلم جندى للحق، مجهز النفس دائما، إن لم يكن مجهز اليد، وهو إن لم يعش فى الجهاد عملا وتنفيذا عاش الجهاد نية وقصدا. والذى يعيش لنفسه ولدنياه بعيدا عن الجهاد- عملا ونية- إنما هو المنافق الذى آمن لسانه ولم يؤمن قلبه.. ليس بمسلم صادق الإسلام ذلك الذى يثاقل إلى الأرض، ويخلد إلى

الراحة والدعة ويؤثر سلامة دنياه على سلامة دينه"(٧).

أما الشيخ البنا فهو يوجه حديثه إلى أتباعه قائلا: "أيها الإخوان المسلمون، لقد قام هذا الدين بجهاد أسلافكم على دعائم قوية من الإيمان بالله، والزهادة فى متعة الحياة الفانية وإيثار دار الخلود، والتضحية بالدم والروح والمال فى سبيل مناصرة الحق وحب الموت فى سبيل الله"(٨).

ويقول فى رسالته "نحو النور": "وتحتاج كذلك الأمم الناهضة إلى القوة وطبع أبنائها بطابع الجندية ولاسيما فى هذه العصور التى لا يضمن فيها السلم إلا بالاستعداد للحرب، والتى صار شعار أبنائها جميعا القوة أضمن طريق لإحقاق الحق..والإسلام لم يغفل هذه الناحية، بل جعلها فريضة محكمة من فرائضه، ولم يفرق بينها وبين الصلاة والصوم فى شىء. وليس فى الدنيا كلها نظام عنى بهذه الناحية، لا فى القديم ولا فى الحديث كما عنى بذلك الإسلام فى القرآن وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته"(٩).

ويستند الشيخ البنا فى دعوته إلى الجهاد إلى رصيد كبير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة..

"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم". وقوله تعالى "كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم".

والآية الكريمة "فليقاتل فى سبيل الله الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة".

والحديث الشريف "والذى نفسى بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لاتطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله، والذى نفسى بيده لوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل".

رواه البخارى ومسلم.

وعن أبى هريرة أن رسول اله قال: "من لقى الله بغير أثر من جهاد لقى الله وفيه ثلمه" رواه الترمذى وابن ماجة.

وحديث شريف آخر "من مات ولم يغز،ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق" رواه مسلم.

لكن خصوم الشيخ لديهم هم أيضا رصيدهم، وهم يذكرونه دوما بأنه يستخدم العنف ضد مسلمين لا يقلل اختلافهم فى الرأي معه ومع جماعته من درجة إسلامهم..

ويردون على حجج الشيخ بالآية الكريمة "فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر".

وبالآية الكريمة "وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدى من يشاء". والحديث موجه إلى رسول الله، وله أيضا وجهت الآية الكريمة "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين".

وله أيضا "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هوأعلم بمن ضل عن سبيله وهوأعلم بالمهتدين".

ويقول الله تعالى معلما المسلمين "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن".

وحتى مع الطغاة والكفار "اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى".

وأحاديث شريفة كثيرة "لا تروعوا المسلم فإن روعة المسلم ظلم عظيم".

وحديث شريف آخر "من أخاف مؤمنا كان على الله ألا يؤمنه من إفزاع يوم القيامة".

وحديث شريف ثالث "لا يشر أحدكم إلى أخيه بسلاح، فإنه لا يدرى لعل

الشيطان ينزع فى يده، فيقع فى حفرة من النار".

وآيات وأحاديث كثيرة بغير حصر، ومع ذلك يمضى الشيخ البنا فى طريقه الوعر.. يدوس الشوك هو ورجاله.

ويختتم البنا "رسالة الجهاد" موجها حديثه إلى أتباعه "أيها الإخوان إن الأمة التى تحسن صناعة الموت وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة يهب لها الله الحياة العزيزة فى الدنيا والنعيم الخالد فى الآخرة، وما الوهن الذى أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت، فأعدوا نفسكم لعمل عظيم واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة. واعلموا أن الموت لابد منه وأنه لا يكون إلا مرة واحدة، فإن جعلتموها فى سبيل الله كان ذلك ربح الدنيا وثواب الآخرة.. فاعملوا للموتة الكريمة تظفروا بالسعادة الكاملة. رزقنا الله وإياكم كرامة الاستشهاد فى سبيله"(١٠).

وبعد.. فهذه هى نظرية الشيخ فى الجهاد فكيف كان، وإلام انتهى؟

* * *

كانت الجوالة هى البداية الحقيقية.

ولقد تابعنا كم بذل البنا من جهده واهتمامه دعما لجهاز الجوالة والكشافة، والحقيقة أن الهدف الأساسى للجوالة لم يكن مجرد تكوين أداة ردع منظمة على أسس عسكرى وانضباط صارم، وإنما كانت الجوالة أيضا "حقلا" تتابع فيه أعين المرشد اليقظة العناصر الأكثر حماسا والأكثر إخلاصا والأكثر طاعة.. وتلتقطها فى نواة خاصة.

وقد استخدم البنا "جوالته" كما رأينا فى مظاهرات صاخبة كثيرا ما هتفت بحياة الملك، واستخدمها أيضا فى حراسة تجولاته ومؤتمراته واجتماعاته، واستخدمها لإرهاب الخصوم السياسيين بالقوة البدنية فى أول الأمر ثم بالرصاص والقنابل بعد ذلك، الأمر الذى دفع حزب الوفد إلى توجيه إنذار

إلى حكومة صدقى فى عام ١٩٤٦ بأنها ما لم "تحل هذه التنظيمات الشبه عسكرية فإنه سوف يأخذ القضية بين يديه ويعرف كيف يسكت دعاة العنف والشغب".

والغريب فى الأمر أن وجود الجوالة كان فى ذاته أمرا منافيا للقانون، ففى ٨ مارس ١٩٣٨ أصدرت حكومة محمد محمود باشا قانونا يحظر قيام "الجمعيات أو الجماعات التى يكون لها، سواء من حيث تأليفها أو عملها أو من حيث تدريب أعضائها أو نظامها أو زيهم أو تجهيزهم صورة التشكيلات شبه العسكرية"(١١) أى "أن جوالة الإخوان كانت ضد القانون العام والخاص على السواء، ومع ذلك سمح ببقاء هذا الجيش حتى فى وقت الحرب، وفى الوقت الذى طبق فيه هذا القانون على فرق القمصان الزرق (الوفد) وفرق القمصان الخضر (مصر الفتاة)"(١٢).

ولعل هذا يفسر حرص الشيخ البنا على استخدام الجوالة استخداما سافرا لصالح السراى والقوى الحاكمة، إذ بدون إشعار السلطة أن الجوالة فى خدمتها.. تكون هذه الجوالة عرضة للالغاء وفقا للقانون.

ويتساءل أحمد حسين وهو على حق تماما "عن السر الذى جاز به لدى الحكومة والبوليس أن يكون للجماعة بعد أن انخرطت فى المنازعات الحزبية، أن يكون لها هذا الجيش من الجواله" ويجيب بأن "حكومات الأقلية هى من شجع تكوين هذا الجيش وقام بتمويله باعتباره سلاحا ضد الوفد الذى يريدون القضاء عليه بأى ثمن ولو بالخروج على كل قانون وكل عرف وكل مألوف". ويمضى أحمد حسين فى مرافعته متهما السلطات بأنها هى التى "أسلمت هؤلاء الشباب لهذه التنظيمات، هذه المظاهرات العسكرية التى زاد من روعتها أنها تجرى باسم الدين"(١٣).

ولعله من المفيد والطريف أن نمضى مع أحمد حسين فى مرافعته.. التى

يسجل فيها أن وزارة الشؤون الاجتماعية كانت تقدم إعانات مالية لشعب جماعة الإخوان المسلمين بحجة أنها تقوم بنشاط اجتماعى، وأن الشيخ البنا قد عين فى "لجنة التعليم العليا الحكومية" وأن مجالس المديريات والبلديات كانت تسارع فى كل مكان إلى مساعدتها، ثم يروى واقعة غريبة.. "وحدث مرة فى قسم الخليفة أن منع مأمور القسم رشدى الغمراوى جوالة الإخوان من السير فى منطقته واصطدم بهم تنفيذا للتعليمات التى كانت لديه بمنع حصول أى تجمع، ولكن السلطات عاتبت المأمور على موقفه، وسمحت لجوالة الإخوان بإقامة حفل ضخم أمام مبنى قسم الخليفة كمظهر للانتصار وفرض السلطان. وعندما حلت الجماعة عام ١٩٤٨، وجد بين الأوزاق المضبوطة فى دورها إخطار موجه من إحدى شعبها (شعبة المحجر) إلى المرشد العام عن إزماعها عقد اجتماع لها كل خميس ومطالبتها المرشد باتخاذ الإجراءات الكفيلة بحرية انعقاد الأجتماع، وقد أشر المرشد على الورقة "بإخطار المحافظة وبوليس قسم الخليفة باعتماد شعبة المحجر كى لا يتعرض أحد لاجتماعها" ويعلق أحمد حسين بأن هذه التأشيرة أشبه ما تكون بتأشيرة وزير الداخلية لا رئيس جمعية"(١٤).

ويشير أحد قادة الجماعة إلى أن البنا قد كون مجلسا أعلى للجوالة من سبعة أعضاء برئاسته وعين الصاغ محمود لبيب مفتشا عاما، وبدأ المجلس نشاطه بإنشاء مدرسة للمدربين تخرج منها ٣٥ مدربا بعد شهرين، ثم انطلق هؤلاء المدربون يشكلون الجماعات ويدربونها.. وعند نهاية الحرب بلغ تعداد الجوالة . . .ر٤٥ جوال(١٥).

ما يهمنا فى هذا الصدد هو أن البنا قد اهتم بالجوالة أساسا لأنها كانت حقلا يلتقط منه رجال تنظيمه السرى.. ونتوقف عند اعتراف بالغ الأهمية من عبد المجيد حسن- قاتل النقراشى باشا- أدلى به أثناء التحقيق إذ قال "أن

انتقاله من نظام الجوالة بالإخوان إلى النظام الخاص قد تم دون أن يحس تغييرا طرأ على وضعه لاتفاق النظامين فى التدريبات وأسلوب التعامل والعلاقات داخل التنظيم"(١٦).

وتلك هى القضية الأساسية.. الجوالة كانت مجرد وعاء أو مرحلة أو مصفاة تقود الأخ الأكثر انضباطا والأكثر طاعة والأكثر حماسا.. إلى الجهاز الخاص.

* * *

ومنذ أن بدأت مرحلة التنفيذ والشيخ البنا يرقب الجيش باهتمام بالغ ويبذل جهده فى التقاط أكبر عدد ممكن من الضباط وضمهم إلى صفوف تنظيم سرى فى جماعته.

وإمعانا فى السرية كان الشيخ يمسك بيده زمام هذا الأمر.

وبدأت كوادر الجماعة فى التقاط مجموعات من الضباط وتقديمهم واحدا واحدا وفى سرية تامة للمرشد.

"وفى هذا الوقت كان الشاب جمال عبد الناصر يكون أولى ارتباطاته السياسية مع شاب أزهرى يكبره فى السن بسبع أو ثمانى سنوات هو أحمد حسن الباقورى (عضو جماعة الإخوان المسلمين)"(١٧).

ومجدى حسنين يقول "كنت حتى ١٩٥٠ معروفا بميولى للإخوان، وليس بميولى فقط، بل كنت على علاقة وثيقة بالمرحوم حسن البنا. وكنت أدرب أعدادا كبيرة من الإخوان"(١٨).

وكذلك حسن ابراهيم الذى يقول "كما قمنا بالاتصال مع الإخوان المسلمين من خلال الصاغ المتقاعد محمود لبيب وكان المرحوم حسن البنا يلتقى بنا"(١٩).

وخالد محيى الدين كان على علاقة لفترة من الوقت بالشيخ حسن البنا..

ويورد أحد الباحثين قائمة بأسماء أعضاء مجلس قيادة ثورة يوليو ١٩٥٢ وانتماءاتهم السياسية فيحدد الانتماءات التالية:

- عبد الحكيم عامر: إخوان مسلمين.
- كمال الدين حسين: إخوان مسلمين.
- جمال عبد الناصر: الوفد- الإخوان المسلمين.
- أنور السادات: مصر الفتاة- الإخوان المسلمين(٢٠).

ولفترة من الوقت كان أنور السادات ذا علاقة وثيقة بشكل خاص مع الشيخ البنا وقد تحدث عنها تفصيلا فى كتابه " صفحات مجهولة".

كذلك كان رشاد مهنا وحسين الشافعى على علاقة بالإخوان(٢١).

ويقول أحد الكتاب أن جمال عبد الناصر قد سئل فى أحد الاجتماعات التمهيدية للضباط الأحرار "هل نتوقع من الإخوان خيرا" وأجاب عبد الناصر "نعم خير كثير"(٢٢).

ويروى خالد محيى الدين فى حديث شخصى معه أن الضباط كانوا يلحقون مباشرة بتشكيل سرى خاص وأن مراسم انضمامهم كانت توحى بالسرية المطلقة حيث تتم البيعة فى غرفة مظلمة ويقسم الضباط على مصحف ومسدس.

وبعد فترة من الوقت.. تباعد عدد من هؤلاء الضباط الذين لم يجدوا فى حركة الإخوان تحقيقا لطموحهم الوطنى.. وكان تباعدهم فى فترة اللقاء السافر بين الجماعه والرجعية والسراى.. فى عامى ٤٦- ١٩٤٧.

لكن الجماعة استطاعت أن تكسب إلى صفوفها أعدادا لا بأس بها من الضباط مستفيدة من حماس العديد منهم للحرب فى فلسطين.. ومن موقفها إزاء هذه الحرب.. وهكذا استطاع الشيخ البنا أن يوجد لنفسه ركيزة لا بأس بها فى صفوف الجيش، وثمة أسماء بارزة فى هذا الصدد مثل عبد المنعم عبد

الرؤف وأبو المكارم عبد الحى ومعروف الحضرى(٢٣).

وإذا كان أحمد حمروش يؤكد فى كتابه "قصة ثورة ٢٣ يوليو" أن كثيرا من الضبابط قد انفضوا عن الجماعة إبان حرب فلسطين بسبب تدخل القيادة السياسية للجماعة فى التكتيكات الفنية للقتال، ضاربا لذلك مثلا بالشيخ محمد فرغلى الذى كان قائدا لمتطوعى الإخوان فى حرب فلسطين والذى صمم على أن يهجم الإخوان على أعدائهم متراصين سنة عن رسول الله، الأمر الذى أوقع فيهم خسائر فادحة،والذى دفع عددا من الضباط إلى التمرد على تعليمات الجماعة والانفضاض عنها(٢٤)،فإن باحثا آخر يقول، أن دور الإخوان فى حرب فلسطين كان سببا فى تقاربهم أكثر فأكثر من مجموعات أوسع من الضباط(٢٥).

والحقيقة أن الجهاز السرى كان مكونا من ثلاث شعب: الجهاز المدنى، وجهاز الجيش وجهاز البوليس(٢٦). وكان رئيس كل تشكيل يتصل بالمرشد العام مباشرة. وتنبع أهمية تشكيل الجيش من أنه كان يكفل للجهاز السرى المدنى إمدادات الذخيرة والأسلحة والتدريب. وأنه كان النواة التى يؤمل بها البنا الوثوب إلى السلطة يوما ما، والغريب أن السلطات قد أغمضت عينيها أيضا عن نشاط الإخوان فى الجيش، فأنور السادات يلتقى لأول مرة بالشيخ حسن البنا عندما حضر البنا إلى أحد معسكرات الجيش ليحضر احتفالا بذكرى المولد النبوى وألقى البنا خطابا ضافيا جذب أنظار الضباط(٢٧).

ويضيف السماح للبنا بالنشاط المكشوف فى صفوف الجيش علامة استفهام كبيرة؟

والسؤال هو: ماذا كان يريد البنا من هذا النشاط المكثف فى صفوف الجيش؟

والحقيقة أن هذا السؤال قد وجه فى اجتماع سرى عقد فى جزيرة الشاى

وحضره ضابطان أحدهما جمال عبد الناصر والآخر الصاغ محمود لبيب المستشار العسكرى للمرشد العام.. ووجه جمال عبد الناصر السؤال وأجابه محمود لبيب "علينا أن نبدأ فى تكوين مجموعات من الضباط ذوى الإيمان والعقيدة، وعندما يحين الحين نبرز جميعا فى صف واحد لنتصدى لعدونا ونمنعه من محاربة دعوتنا"(٢٨).

* * *

لكن ذلك كله يصب، ويتجه نحوما هو أهم: "الجهاز الخاص" الذى اشتهر باسم "الجهاز السرى. وبرغم أن الكثير من الباحثين لا يوردون تحديدا زمنيا لقيام هذا الجهاز.. الذى قام ونشأ ونشط فى سرية تامة حتى عن قيادات الجماعة ذاتها..وبرغم أن المنشقين الأول من صفوف الجماعة فى الإسماعيلية عام ١٩٣٠ قد اتهموا البنا فيما اتهموه بأنه يقوم "بأعمال سرية"(٢٩). وبرغم أن المؤتمر الثالث للجماعة الذى عقد فى ١٩٣٥ قد حدد مراتب العضوية بالأخ المساعد، والأخ المنتسب العامل ثم الأخ المجاهد.. وأن الأخ المجاهد "لم يحدد له موقع على الخريطة التنظيمية العلنية للجماعة، بما يوحى أن "المجاهدين" قد نظموا فى الجهاز الخاص..

إلا أن أكثر الباحثين يرجحون أن الجهاز الخاص قد تكون فى أعقاب المحنة الأولى فى وقت ما بين عامى ١٩٤٢ و١٩٤٣"(٣٠). ولكن الشىء المؤكد أن "الجهاز الخاص" لم ينشأ من فراغ، فلابد أن الشيخ الذى تابع فى حرص بالغ إعداد شباب الجماعة عقائديا وتربويا ورياضيا وعسكريا، والذى حدد مرتبة فى الهيكل التنظيمى منذ عام ١٩٣٥ هى "الأخ المجاهد"، والذى أقام نظامى الكتائب والجوالة، والذى أعلن للإخوان أنهم :سيخاصمون هؤلاء جميعا" (أى كل الساسة المصريين).. أقول لابد أنه كان وعلى أمد طويل يلتقط من هنا ومن هناك النماذج التى يريدها لجهازه الخاص.

والحقيقة أن البنا كان حريصا على "السرية" التامة فى تحركاته، وكان يعتقد أن الدعوة يتعين عليها أن تتحقق بالسرية حفاظا على صمودها وضمانا لاستمرارها(٣١). وقد رأينا كيف هدد البنا المنشقين عنه فى عام ١٩٣٨ وتوعدهم إذا ما أفشوا "أسرار" الجماعة.

ويلاحظ أن نشأة "الجهاز الخاص" قد صاحبها إحداث تغييرات جذرية فى الهيكل التنظيمى للجماعة إذ ألغى نظام "الكتائب" وبدىء فى تنظيم الأعضاء ضمن إطار "نظام الأسر التعاونى".

وهكذا يمكننا أن نتصور البناء التنظيمى للجماعة وهو يسير فى ثلاثة خطوط متوازية كل منها له أسلوبه وقواته ومنهاجه وقيادته.

* نظام الأسر ويضم الأعضاء العاديين وهو الوعاء الأساسى لعضوية الجماعة..

* نظام الجوالة ويضم الأعضاء الأكثر حماسا والأكثر استجابة والأكثر طاعة..

* النظام الخاص وهو جهاز سرى مطلق السرية يتكون من ثلاث شعب: التشكيل المدنى- تشكيل الجيش- تشكيل البوليس.

ويتبع الجهاز السرى عدد من التشكيلات المتخصصة مثل "جهاز التسليح" و"جهاز الأخبار" ويعتبر الأخير بمثابة جهاز المخابرات الخاص للجماعة.. وقد استخدم فى الفترة الأولى للتسلل إلى صفوف التنظيمات الشيوعية وجمع أكبر قدر من المعلومات عنها..(٣٢).

وقد وضع البنا واحدا من أخلص خلصائه على رأس هذا الجهاز هو عبد الرحمن السندى، وكان صالح عشماوى قد تولى رئاسة الجهاز فى البداية ثم تنحى عنها.

وينقسم "النظام" إلى "جماعات"، الجماعة مكونة من خمسة أشخاص،

والشعبة المهمة بها عدة جماعات وكل جماعةيرأسها واحد وتتدرج على نظام هرمى يرأسه عبد الرحمن السندى، ومعظم هذا النظام فى القاهرة، وقد توجد مراكز أو مناطق إدارية تخلو من هذا النظام مثل أسوان، وذلك لأنها بعيدة ولا يتيسر لها فهم أغراضه"(٣٣).

ويدرب أعضاء الجهاز تدريبا عسكريا قاسيا وعنيفا ويعتادون الطاعة التامة والاستعداد للتضحية.. "وبعد أن ينتهى التدريب يقسم العضو يمين البيعة: أقسم بالله العظيم أن أكون حارسا أمينا لمبادىء الإخوان مجاهدا فى سبيل الله على السمع والطاعة فى المعروف. وأن أجاهد نفسى ما استطعت"(٣٤).

وفى المراحل الأولى كان قسم البيعة يتم وفق مراسم خاصة (فى حجرة شبه مظلمة مفروشة بالحصير ويتم القسم على مصحف ومسدس) وكان يكتسب "مذاقا" خاصا إذ كان يتم عادة بين يدى الشيخ البنا نفسه.

ويتباهى أحد قادة الجهاز السرى هنداوى دوير "أنا أقسمت لحسن البنا شخصيا"(٣٥).

وقد منح البنا جهازه الخاص دفعة قوية واهتماما زائدا فى أعقاب خروج د. ابراهيم حسن والسكرى وأتباعهما على الجماعة وتصاعد هجماتهم على ديكتاتورية المرشد واستبداده وحده بالرأى،ولعله بذلك قد أحس بحاجته إلى جهاز محكم التصميم يتغلغل به نفوذه الشخصى فى كل أنحاء الجماعة، ولعل الجهاز كما أشار الكثيرون كان أيضا لردع المعارضين فى الداخل كما كان أداة لحماية الدعوة وإرهاب خصومها(٣٦).

وكان عضو الجهاز السرى يربى تربية خاصة، ويهيمن عليه عقائديا بحيث تسيطر عليه فكرة "الجهاد"و"الشهادة فى سبيل الله" وقد حرص البنا دوما على أن يربط بين فكرة الجهاد وفكرة الموت فى سبيل الله. معلنا أن النهاية

المثلى- والتى لا يوجد أفضل منها- هى الاستشهاد.. ولعل المتابعة الدقيقة لكتابات الشيخ البنا تلاحظ استخدامه تعبيرات غريبة فى هذا الصدد.

ففى عام ١٩٣٧ حيث احتدمت الثورة الفلسطينية كتب البنا مقالا عن الجهاد أسماه "صناعة الموت"، وفى أوج نشاط الجهاز السرى وقوته أعاد البنا نشر المقال بعد أن غيرّ العنوان ليصبح أكثر غرابة "فن الموت" (٣٧).

وهكذا.. وبعد أن يتقن عضو الجهاز السرى "فن الموت" يتقدم للعمل، فيقول محمود عبد اللطيف أثناء محاكمته بتهمة محاولة اغتيال جمال عبد الناصر..

"- المدعى: فهمت إيه الفكرة من النظام السرى؟

- المتهم: الفكرة هى الجهاد فى سبيل الله ودراسة القرآن والسيرة.. ده اللى فهمته.

- المدعى: الغرض منه إيه؟

- المتهم- الغرض منه محاربة أعداء الدعوة الإسلامية.

- المدعى: ما تعرفش الخطة. أنت رايح تقتل الرئيس مفكرتش تعمل ايه علشان تهرب؟

- المتهم: لا مفكرتش. وهنداوى قال لى الحرس بعد كده سيطلق عليك النار وتموت.

- المدعى: كنت عارف أنك رايح تموت؟

- المتهم: أيوه.

- المدعى: مفكرتش فى طريقة للهرب؟

- المتهم: لا" (٣٨).

ويلاحظ أيضا أن الشيخ البنا قد بدأ على أثر تكوين الجهاز السرى فى إعداد بناء فكرى متكامل يضع عضو الجهاز السرى وجها لوجه أمام ما

أسمى "بمشروعية الجهاد" التى تفرض على المسلم أن يقاتل كل من يعترض سبيل الدعوة، وكانت قمة نجاح البنا كداعية وكمنظم أنه قد استطاع أن يغرس فى نفوس أعضاء هذا الجهاز أن الموت فى سبيل الدعوة سهل وبسيط ومرغوب فيه، وأن المؤمن المجاهد يخطو خطوة رائعة واحدة تنقله من حياة فانية إلى حياة خالدة باقية ينعم فيها بالجنة التى وعد بها الشهداء.. (٣٩).

وهكذا أعد البرنامج الدراسى الجديد لأخوان الأسر وفقا لهذه الفكرة وفى إطارها.. كذلك كانت الاحتفالات الإسلامية مثل ذكرى غزوة بدر وغيرها مناسبات هامة لتكريس هذه الفكرة وغرسها باستمرار فى نفوس أعضاء الجماعة.. وكان البنا يلح دائما على إقناع أعضاء الجهاز السري بأنهم "جند الرحمن وحماة دينه" وأن على أكتافهم "وحدهم" سيكون خلاص الوطن الإسلامى والعقيدة الإسلامية.. اليسوا هم "جماعة المسلمين" و"أهل الحل والعقد فى الإسلام".

هكذا تكوّن الجهاز، وبهذه المنطلقات تواجد واتسع ليصبح فى عام ١٩٤٨ مكونا من حوالى ١٠٠٠ عضو (٤٠) منظمين تنظيما غاية فى الدقة، مسلحين تسليحا عالى الكفاية، مدربين تدريبا جادا، وفوق هذا وذاك على استعداد تام للموت فى سبيل الدعوة وفى سبيل أداء ما يؤمرون به من مرشدهم.

ألم يقسموا له يمين الولاء؟ ألم يبايعوه على الطاعة التامة فى المنشط والمكرة؟

وإذا كان النظام الخاص سريا، فقد ظل سريا حتى بالنسبة لقيادة الجماعة ذاتها.. يقول أحد قادة الجهاز إبراهيم الطيب فى اعترافاته أمام المحكمة "مكتب الإرشاد لم يكن يتعرض لمثل هذه المسائل (الجهاز الخاص) لأنها كانت تفهم على أساس المعمول به فى أيام الشيخ حسن البنا فكان ليس له

(مكتب الإرشاد) أن يتدخل فى المسائل التى تعتبر مش من اختصاصه" (٤١).

بل أن الكثيرين من هؤلاء القادة لم يكونوا يعلمون أصلا بأمر وجود مثل هذا الجهاز إلا بعد أن نشأ بفترة طويلة.. يقول الدكتور خميس حميدة وكيل جماعة الإخوان فى اعترافاته أمام المحكمة:

"- المدعى: إيه مركزك فى الجماعة؟

- الشاهد: وكيل الإخوان المسلمين.

- المدعى: إيه معلوماتك عن النظام الخاص؟

- الشاهد: أيوه يا افندى دخلنا الإخوان المسلمين حوالى سنة ٣٩-١٩٤٠ وبعد فترة لغاية سنة ١٩٤٦ فهمت من الأستاذ حسن البنا أن هناك شبابا من الإخوان يتدربون على السلاح.

وحيث أن التدريب لا يبيحه القانون فكانوا يأخذون بعض فى أماكن بعيدة فى قرى الصعيد أو فى المقطم ويتدربون، وهناك يجيلهم بعض ناس يفهموا فى هذه الأمور ويدربوهم سرا" (٤٢).

أما منير الدلة عضو مكتب الارشاد العام فيقول فى اعترافاته أمام المحكمة ".. وحصل أن هذا الجهاز كان موجود لما دخلنا الجماعة، واحنا منعرفش أنه موجود لغاية ما حصلت حادثة الخازندار"(٤٣).

وكانت حرب فلسطين فرصة سانحة..

وكان الشيخ حسن البنا ماهرا إلى أقصى درجات المهارة فى استخدام الشعور القومي والإسلامى واعتلاء موجته لتعزيز مكانة الجماعة.. ومنذ عام ١٩٣٦ "سنحت الفرصة لحسن البنا فى ثورة فلسطين فوجد فيها ضالته للعمل والتوسع، وأكسبته تأييد الثورة الفلسطينية وعطف مفتى فلسطين الحاج أمين الحسينى" (٤٤). هكذا تؤكد كريستينا هاريس.

وإذا كانت الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ موجهة فى الأساس ضد الاحتلال البريطانى، الأمر الذى أثار تردد الحكومة المصرية حيال أى تأييد رسمى لها، فقد تلاقت آراء عدة على إفساح مجال التأييد الشعبى عن طريق الإخوان المسلمين.

وما يعنينا فى هذا الأمر هو أن القضية الفلسطينية قد أتاحت إمكانيات عدة أمام الإخوان.. فمن خلال تأييدها اتضح البعد الإسلامى والعربى للجماعة، ومن خلالها أيضا أمكن للجماعة أن تمد نشاطاتها إلى المنطقة العربية كلها وانتشرت شعبيتها من فلسطين إلى سوريا إلى لبنان إلى غيرها من البلدان.. لكن أكثر ما يعنينا فى هذا الفصل هو أن مساندة الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ (٤٥) ثم الاستعداد للمشاركة فى حرب فلسطين ١٩٤٨ كانا الفرصة الذهبية أمام الشيخ البنا ليحشد ترسانة سلاح ضخمة ويدرب رجاله علنا تحت ستار الإعداد لحرب فلسطين.. مستفيدا فى ذلك كله من تيار قومى جارف.

وفى المحاكمات التى جرت لأعضاء الجماعة عام ١٩٥٤ قيل الكثير حول تصرفات غير سليمة فى الأموال التى جمعت باسم الجهاد فى فلسطين.. وحول تجميع السلاح بحجة حرب فلسطين ثم تخزينه فى مخازن الجهاز السرى واستخدامه فى عمليات الإرهاب الداخلى (٤٦).. ولأن الاتهامات بغير أدلة فأننا لا نوردها.

وعلى أية حال فإن حرب فلسطين التى كانت سببا فى كسب سياسى ضخم للجماعة، كانت هى بذاتها واحدة من أسباب محنتها الكبرى..

كذلك فإن هذه الحرب قد أوضحت- لكل من لا يعرف- أن الجماعة تمتلك جيشا مسلحا بالفعل وأن هذا الجيش إذ يقاتل فى فلسطين فإنه يمكنه أن يقاتل فى مكان آخر.. وربما فى مصر.. وقد تساقط الكثير من متطوعى

الإخوان على أرض فلسطين خصوصا فى الأيام الأولى حيث تصوروا أن صيحات الجهاد العالية والمجابهة الشجاعة وحدها تكفى فحصدت مدافع الصهاينة الكثير منهم الأمر الذى دفعهم إلى تغيير أساليبهم فى القتال واللجوء إلى حرب العصابات (٤٧).

يقول أحمد حسين أن حرب فلسطين قد أمدت الإخوان "بفرصة ذهبية لحشد السلاح والتمرن على استعماله بدعوى أنه من أجل فلسطين" وأن الإخوان "كان لديهم كميات من الأسلحة والذخائر جمعوها تحت ستار تجهيز المتطوعين إلى فلسطين وهم يعدونها لإحداث انقلاب فى مصر بالقوة"(٤٨).

ويقول د. محمد حسين هيكل أنه خلال حرب فلسطين "قويت شوكة جماعة الإخوان فأصبحوا قوة يُخشى بأسها" (٤٩).

وعندما صدر قرار حل الجماعة وقع المتطوعون من الإخوان فى فلسطين فى مأزق.. فقد حاصرت مواقعهم قوات الجيش وخيّرهم رئيس الأركان اللواء فؤاد صادق بين إلقاء السلاح والعودة لمصر أى للمعتقلات أو الخضوع التام لقواته.. وكان المتطوعون قد تلقوا رسالة من البنا يلح عليهم فيها الخضوع للنظام وعدم التصادم فاختار أغلبهم هذا الحل.. وبقوا فى فلسطين تحت إمرة الجيش المصرى. وبعد اتفاقية رودس نزع سلاحهم وأرسلوا إلى معسكرات الاعتقال فى الطور وهايكستب(٥٠).

ولنعد إلى الجهاز السرى مصدر قوة الشيخ ومصدر ضعفه، حلمه القديم فى "الجهاد" وكابوس الجماعة فى المحنة.

ولنقلب صفحات هذا الجهاز بحثا عن الفهم العملى لدى أعضائه عن فكرة الجهاد..

الفصل الأخير..
ثم أسدل الستار

وفى السياسة كما فى القصص الخرافية يحدث أن الصياد يخرج بيده المارد من القمقم ثم يخشاه، وهكذا كان الأمر فى العلاقة بين القصر وحكام الأقلية وبين الشيخ البنا وجماعته.

لقد أطلق الصياد المارد ليخيف به الوفد وقوى اليسار وليستخدمه كأداة لحشد بعض القوى الجماهيرية تأييدا لسياسة ما كان لها أن تجد مؤيدين.. فإذا ما انتصب قائما، وإذا ما استمد من سنده الدينى شموخا، ومن تسلح جهازه السرى قوة بدأ الصياد يخاف المارد..

وبدأ يشعر أن الوفد يمكن التعامل معه بهذه الوسيلة أو تلك، وأن المعتقلات التى فتحت مصاريعها- بمباركة من الإخوان- لتستقبل الشيوعيين والتقدميين يمكن أن تلجم اليسار ولو مؤقتا.. لكن المارد يبقى مشكلة بغير حل، مستزيدا من قوته بصورة تجعله مخيفا حتى بالنسبة للرجعيين الذين أيدوه وأمدوه بالمال وتغاضوا عن تسليحه وتسلحه.. وعن أشياء أخرى كثيرة.. وكبار الملاك وكبار الرأسماليين الذين قبلوا من الإخوان "تدينهم" وهجومهم على التقدم، ودعوتهم للعمال بالتزام الخلق القويم.. وعدم اللجوء إلى الإضراب، كانوا فى نهاية الأربعينيات فى حالة من الذعر البالغ دفعتهم إلى موقف متشنج يرفض أية دعوة إصلاحية أو حتى الحديث عنها همسا..

والإخوان المسلمون مطالبون فى نهاية الأمر بأن يقولوا ولو كلمة واحدة عن الأغنياء والفقراء.. ولعلهم قالوها بصورة واهنة ووضعوها بأسلوب لا يغضب أحدا "أن من مهام جماعتنا التوسط بين الأغنياء الغافلين والفقراء المعوزين بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع فى المواسم والأعياد"(١).

وكلمات كهذه لا ترضى الفقراء ولعلها لا تحل مشاكلهم، لكنها تغضب "الأغنياء الغافلين" خصوصا إذا ما كانوا ضيقى الأفق بطبعهم، وتفرض عليهم تطورات الصراعات المزيد من ضيق الأفق..

ويصرخ الباشا فى إحدى الروايات ساخطا "أنا عارف كويس اللى باقوله.. معندناش وقت للمناورات.. دى حاجات أكبر مننا كلنا.. بيجى أى واحد الحكم.. صاحبى ولا عدوى.. بس يخلصنا من المجرمين دول.. البلد بقت وسخة.. مليانة غش.. شيوعية على إخوان مسلمين على اشتراكية.. على وطنية.. على هباب أزرق.. صعاليك فاضيين ما عندهمش حاجة يخافوا عليها.. ح يخسروا إيه.. إحنا اللى ح نخسر كل حاجة" (٢). ولعله يبدو غريبا أن يلجأ البحث الأكاديمى إلى استشهادات من قصص وروايات لكن العبارة السابقة بالغة الدلالة.. فهى تجسد وتبلور فهم حكام مصر فى مرحلة فشلت فيها كل مناوراتهم وتصوروا أنه لا مخرج إلا عدوهم (الوفد) فالوفد خير من الثورة، وخير حتى من أصدقاء الأمس الذين يتمردون معتزين الآن بقوتهم وجيشهم المسلح.

وكانت حرب فلسطين سببا آخر..

فقد باركت الرجعية المصرية الحرب فى فلسطين وشاركت فيها، وشجعت الإخوان على خوضها.. وربما كانوا يؤملون أن يكتفى الإخوان بخوضها "شعارات وكلمات" فإذا ما انقلبت الأمور جدا، وإذ أصبحت الحرب الفلسطينية تضع النظام فى مأزق غريب بين مناورة صنعها بيده ليسكت بها صوت المعارضة الشعبية ويمتصها فى منحنيات جانبية، وبين خشيته من تحدى قوى الاحتلال "السيد القديم" وقوى الاستعمار الأمريكى (السيد الجديد والقابض على عنق السيد القديم) كان لا بد من أن تتحول الحرب الفلسطينية إلى مسرحية.. وعلى خشبة المسرح لا يسمح مطلقا لأى من الممثلين بأن يقلب

المشاجرات المسرحية إلى صدام جاد..

وقد بدأت بوادر الصدام فى هذا الصدد "عندما رفض النقراشى سفر المتطوعين من أعضاء الجماعة إلى الجزء الشمالى من صحراء النقب فتسللت مجموعات منهم إلى فلسطين من سيناء وبدأوا القتال الفعلى ومهاجمة المستعمرات اليهودية فى فبراير شباط ١٩٤٨" (٣).

والإنجليز الذين هادنوا الشيخ وهادنهم يخونون العرب والإسلام فى فلسطين خيانة تجرح وتحرج كل من والاهم.

ويدخل الميدان عنصر جديد.

ففى ١٧ فبراير ١٩٤٨ تهتز الرجعيات العربية كلها إذ تقع محاولة انقلاب فى صنعاء ضد الإمامة المتخلفة والفاسدة ويقتل الإمام وثلاثة من أبنائه.

ولقد هزت المحاولة الرجعيات العربية جميعا، التى كانت ترى فى أية محاولة للتغيير العنيف عدوى يمكن أن تنتشر على أرضها.. ولقد دهش الجميع عندما وجدوا أن "أصابع" الإمام البنا ممتدة بعيدا حتى صنعاء. وعندما أعلنت جماعة الإخوان نفسها شريكا فى الصراع اليمنى ووسيطا بل وحكما يملى شروطه ويتقدم بمطالب إصلاحية ويحدد المناصب التى يجب أن توزع على قادة الانقلاب الذين اتضح للجميع أنهم كانوا على علاقة وثيقة بالشيخ البنا، وهو أمر لم يحاول الشيخ أن يخفيه، بل لعله- فى بعض الأحيان- تعمد الزهو بهذه الحقيقة (٤).

ولعل فى هذا ما يخيف الرجعية المصرية الحاكمة أشد الخوف.. ولكل ما سبق بدأت العلاقات تتردى بين الشيخ والملك وحكام الأقلية.. وكانت الجماعة تعانى من الوهن الداخلى وتفتقد الدعم الخارجى من أى من القوى السياسية المسيطرة، وكان سوء علاقتها بالملك هو نقطة التحول الاساسية

لديها" (٥).

وعندما يقف الأخ، المجاهد، المسلح، موقف التحدى، ويشعر بأنه مطالب بأن يحمى دعوته وأن يجابه خصومها.. فإن العقل يخلى مكانه تماما كى يتكلم الرصاص والديناميت.

* * *

وفى يناير ١٩٤٨ أعلن البوليس أنه اكتشف بمحض الصدفة مجموعة من الشبان تتدرب سرا على السلاح فى منطقة جبل المقطم، وأنه بمداهمةالمجموعة- التى قاومت لبعض الوقت- ضبط البوليس ١٦٥ قنبلةومجموعات.من الأسلحة.. وقال زعيم المجموعة سيد فايز (وكان اسمه جديدا تماما على البوليس برغم أنه كان أحد القادة الأساسيين للجهاز السرى) "إن السلاح يجرى تجميعه من أجل فلسطين وأن الشباب يتدرب من أجل فلسطين"، وقال "أنهم اشتروا السلاح من العرب (البدو) من أجل العرب (الفلسطينيين)"(٦).. وتحت ضغوط ووساطات من الجماعة أفرج عن سيد فايز وزملائه..

لكن أنظار البوليس بدأت تتجه ناحية شباب الجماعة.

وتكون الخطوة الثانية فى ٢٢ مارس ١٩٤٨ عندما يقتل أثنان من الإخوان المستشار أحمد بك الخازندار، وذلك بسبب إصداره حكما قاسيا على عضوبالجماعة سبق أن أتهم بالهجوم على مجموعة من الجنود الإنجليز فى أحد الملاهى الليلية، ويكتشف البوليس الصلة بين الشابين وبين مجموعة المقطم وبين جهاز سرى مسلح داخل جمعية الإخوان المسلمين.. ويقبض لوقت قصير على المرشد نفسه، ولكنه لا يلبث أن يفرج عنه لعدم توافر الأدلة(٧).

وإذا كان أعضاء الجماعة قد استنكروا الحادث علنا، فلابد أن مشاعر مختلفة كانت تهتز فى داخلهم، فالجهاد حق، وهو واجب، والقتيل ارتكب

جرما فى نظرهم لأنه حكم السجن على شاب مسلم عضو الجماعة لأنه هاجم مجموعة من الكفرة المحتلين أعداء الإسلام.. ولعل مثل هذه المشاعر لم تكن جديدة على مصر..فعلى أثر انتشار موجة الاغتيالات وخاصة اغتيال أحمد ماهر وأمين عثمان وغيرهما تحولت ساحات المحاكم كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى "إلى منابر لتمجيد القتل والجريمة"(٨).

ولم يكن هذا الحادث سوى مقدمة..

فقد كانت حرب فلسطين تشتعل، وإذ أسهم الإخوان المسلمون فى اشتعالها فقد أسهموا أيضا- وبقدر متزايد- فى إذكاء مشاعر عنصرية ضد اليهود المصريين، وحاولوا جهد طاقتهم تحويل المعركة من عرب ضد استعمار وصهيونية، إلى مسلمين ضد يهود.

وكان طبيعيا أن يسهم الجهاز الخاص المدجج حتى أسنانه بالسلاح والمستفز المشاعر سواء بسبب تعثر مسيرة القتال وخيانة الحكومات العربية العميلة أو بسبب القبض على "أخوة الجهاد" الذين قتلوا الخازندار.. كان طبيعيا أن يسهم فى إذكاء نيران التعصب الدينى مستخدما الديناميت..

وفى ٢٠ يونيو ١٩٤٨اشتعلت النيران فى بعض منازل حارة اليهود، وفى ١٩ يوليو تم تفجير محلى شيكوريل وأركو وهما مملوكان لتجار من اليهود.

وإذ توقع الهدنة الأولى فى حرب فلسطين يستشعر الناس ريح الخيانه والتسليم، ويسرع الديناميت ليتكلم فى الداخل ضد اليهود المصريين بعد أن أحبطت حركته ضد الصهاينة فى فلسطين.

ويكون الأسبوع الأخير من يوليو والأول من أغسطس هماأسبوعا الرعب بالقاهرة حيث تتوالى الانفجارات فى ممتلكات اليهود وتهتز المرة تلو الأخرى شوارع قلب العاصمة بتفجيرات عنيفة راح ضحيتها الكثيرون.. وخلال أسبوعين دمرت محلات بنزايون وجاتينيو وشركة الدلتا التجارية ومحطة

ماركونى للتلغراف اللاسلكى(٩)، وفى ٢٢ سبتمبر دمرت عدة منازل فى حارة اليهود ثم وقع انفجار عنيف فى مبنى شركة الاعلانات الشرقية(١٠). ولسنا بحاجة إلى القول بأن الضحايا كانوا كثيرين وأنهم جميعا من الابرياء..

وكانت أعين البوليس التى استيقظت مؤخرا قد اكتشفت أحد أطراف الخيط إذ ضبطت ترسانة سلاح ضخمة فى عزبة بالإسماعيلية يمتلكها الشيخ محمد فرغلى قائد كتائب الإخوان فى فلسطين..

وفى ١٥ نوفمبر ضبطت سيارة الجيب الشهيرة..

تقول مصادر البوليس أن ضبط السيارة تم مصادفة، ولو أن الكثيرين يستبعدون ذلك، وعلى أية حال فإن واقعة سيارة الجيب قد وضعت يد البوليس فى ضربة من ضربات الحظ على اثنين وثلاثين من أهم كوادر الجهاز السرى وعلى وثائق وأرشيفات الجهاز بأكمله بمافيها خططه وتشكيلاته وأسماء الكثيرين من قادته وأعضائه(١١).

وكان البنا قد أمضى معظم شهر أكتوبر وبضعة أيام من نوفمبر مؤديا فريضة الحج، فما أن عاد تعرض للقبض عليه بمقولة وجود دليل فى سيارة الجيب المضبوطة، وبمقولة مسؤوليته المباشرة عن حادث نسف شركة الإعلانات(١٢).

وخرج البنا من السجن ليبذل جهودا لإيقاف عجلة الأحداث محاولا إنقاذ الجماعة من الوقوع فريسة لنظام أصبح غيرراض عنها، بل وراغب فى الخلاص منها..

لكن السرعة الأحداث كانت تفوق قدرة الشيخ على الحركة..

والشيخ الذى اعتاد المناورة بالسياسة والسياسيين وجد نفسه محاصرا تماما عاجزا عن الفعل، فالقصر والسعديون حلفاء الأمس القريب، والذين

شجعوا الإخوان ونظروا لتحركهم باتجاه قضية فلسطين بعين الرضا بغية صرف الأنظار عن معركة الجلاء عن مصر وعن قضايا الداخل المختلفة بدأوا يخونون قضية فلسطين كما خانوا من قبل قضية مصر».

والبنا الذى شحن نفوس أتباعه وإلى أقصى مدى بالمشاعر الإسلامية المتوترة تجاه قضية فلسطين يجد نفسه مطالبا إما بأن يواجه القصر والحكومة وإما أن يواجه أتباعه.. وحاول أن يتخذ موقفا وسطا ولعله راح ضحية هذه المحاولة.

وكان شباب الجامعة من الإخوان وغيرهم يغلى رفضا للشروط المهينة التى خضعت لها الحكومة فى اتفاقية الهدنة في فلسطين، ولعل البنا حاول أن يلعب بآخر أوراقه (نفوذه وسط طلاب الجامعة)، ليخفف قبضة الحكومة عن عنق الجماعة، وخرج البوليس ليردعهم كعادته هذه الأيام ودارت معارك مسلحة أمام فناء كلية طب القصر العينى أحد مراكز القوة بالنسبة لطلاب الإخوان.. واستخدم البوليس الرصاص واستخدم الإخوان المتفجرات،وإذ كان حكمدار العاصمة سليم زكى يقود المعركة من سيارته (تلك السيارة التى ركبها حسن البنا منذ أقل من عام ونصف ليهدىء المتظاهرين)، سددت نحوه قنبلة أصابته أصابة مباشرة.. واتهم بيان حكومى جماعة الإخوان المسلمين بقتله.

وعلى أثر ذلك، صدر قرار من الحاكم العسكرى، (كانت الأحكام العرفية معلنة بسبب حرب فلسطين) بايقاف صحفية الجماعة.. وحاول البنا يائسا إنقاذ الجماعة.. اتصل بكل أصدقائه وحتى بخصومه، ولعب بكل أوراقه، حاول الاتصال بالملك، بإبراهيم عبد الهادى رئيس الديوان الملكى، وبعبد الرحمن عمار (صديقه الشخصى وصديق الجماعة) وكان وكيلا لوزارة الداخلية..

ولأن الشيخ قد فقد أسباب قوته، بدأوا يتلاعبون به، ففى الساعة العاشرة من مساء يوم ٨ ديسمبر اتصل به عبد الرحمن عمار وأكد له أن شيئا ما سيحدث لتحسين الموقف، وإنقاذ الجماعة. واطمأن الشيخ وقبع هو ومجموعة من أنصاره فى المركز العام ينتظرون "الإنقاذ" فإذا بالراديو يذيع عليهم قرار مجلس الوزراء بحل الجماعة بناء على مذكرة أعدها عبد الرحمن عمار نفسه.

وإذ حاول البعض الخروج من مقر المركز العام وجدوه محاصرا واقتحمه البوليس ليلقى القبض على كل من فيه باستثناء البنا.. الذى ترك طليقا بحجة أنه لم يصدر أمر باعتقاله(١٣).. وكانت حريته هذه هى عذابه ونهايته.

واشتملت مذكرة عبد الرحمن عمار المرفوعة الى مجلس الوزراء بشأن طلب حل جماعة الإخوان المسلمين على قرار اتهام طويل يعيد الى الأذهان كل أعمال العنف التى ارتكبتها الجماعة، حتى تلك التى ارتكبتها بإيعاز من السلطات ولخدمة مصالحها.

فمن بين التهم الثلاث عشرة التى ساقتها المذكرة نجد:

* أن الجماعة كانت تعد للإطاحة بالنظام السياسى القائم وذلك عن طريق الإرهاب مستخدمة تشكيلات مدربة عسكريا هى فرق الجوالة.

* مسؤولية الجماعة عن مقتل أحد خصومها السياسيين (وفدى) فى بورسعيد.

* مسؤولية الجماعة بحيازة أسلحة ومفرقعات ومتفجرات (حادث المقطم- مستودع السلاح بعزبة الشيخ محمد فرغلى- ضبط مصنع للمتفجرات بالإسماعيلية).

* نسف فندق الملك جورج بالإسماعيلية.

* نسف العديد من المنشآت التجارية المملوكة لليهود.

* الاعتداء على رجال الأمن أثناء تأدية وظيفتهم.

* إرهاب أصحاب المنشآت التجارية وتهديدهم بهدف الحصول على "تبرعات" و"اشتراكات" مدفوعة مقدما لصحيفة الجماعة.

وبناء على هذه المذكرة أصدر الحاكم العسكرى العام محمود فهمى النقراشي باشا قرارا عسكريا من تسعة مواد تنص مادته الأولى: "تحل فورا الجمعية المعروفة باسم جماعة الإخوان المسلمين بشعبها أينما وجدت وتغلق الأمكنة المخصصة لنشاطها وتضبط جميع الأوراق والوثائق والسجلات والمطبوعات والمبالغ والأموال وعلى العموم كافة الأشياء المملوكة للجمعية. ويحظر على أعضاء مجلس إدارة الجمعية المذكورة وشعبها ومديريها وأعضائها والمنتمين إليها بأية صفة كانت مواصلة نشاط الجمعية وبوجه خاص عقد اجتماعات لها أو لإحدى شعبها أو تنظيم مثل هذه الاجتماعات أو الدعوة إليها أو جمع الإعانات أو الاشتراكات أو الشروع فى شيء من ذلك.. ويعد من الاجتماعات المحظورة فى تطبيق هذا الحكم اجتماع خمسة فأكثر من الأشخاص الذين كانوا أعضاء بالجمعية المذكورة. كما يحظر على كل شخص طبيعى أو معنوى السماح باستعمال أى مكان تابع له لعقد مثل هذه الاجتماعات أو تقديم أى مساعدة أدبية أو مادية أخرى".

وتنص المادة الثالثة "على كل شخص كان عضوا فى الجمعية المنحلة أو منتميا لها وكان مؤتمنا على أوراق أو مستندات أو دفاتر أو سجلات أو أدوات أو أشياء من أى نوع كانت متعلقة بالجمعية أو بإحدى شعبها أن يقدم الأوراق والأشياء إلى مركز البوليس المقيم فى دائرته فى خلال خمسة أيام من تاريخ نشر هذا الأمر".

أما المادة الرابعة فتنص على تعيين "مندوب خاص مهمته استلام جميع

أموال الجمعية المنحلة وتصفية ما يرى تصفيته ويخصص الناتج للأعمال الخيرية أو الاجتماعية التى يحددها وزير الشؤون".

ودارت ماكينة العنف البوليسى نحو الإخوان.. هؤلاء الذين باركوا دورانها ضد خصومهم من الوفديين والتقدميين والشيوعيين فإذا بغول الديكتاتورية يبتلعهم هم أيضا.

والمعتقلات التى افتتحت فى ظل مباركة الإخوان وتهليلهم يوم ١٥ مايو (أيار) ١٩٤٨ (بمناسبة حرب فلسطين) والتى استقبلت خصومهم السياسيين، أخذت تتوسع كى تستقبل الألوف من أعضاء الإخوان.

وفصل ١٥٠ موظفا وشرد من القاهرة وحدها إلى الوجه القبلى ٥٠٠ موظف وأبعد عن كليات الجامعة والمدارس الثانوية نحواً من ألف طالب(١٥).

وحاول البنا جهد طاقته أن يوقف طوفان المحنة.. لكنه كان عاجزا بالفعل.

فالحكومة التى هادنها وهادنته كانت تضرب بعنف وقوة مصممة على تصفية الإخوان، ورفض النقراشى كل محاولات البنا للالتقاء به، والجماعة التى بناها الشيخ بعرقه وجهده، وشيدها بيديه لبنة لبنة عبر عشرين عاما تنهار أمام عينيه، وجهازه السرى تنقطع خطوط اتصاله، فقد كانت ضربة سيارة الجيب قاصمة بالنسبة لقيادة الجهاز السرى، وشبكات اتصاله، وإذ ضربت قيادة الجهاز فقد البنا اتصاله به بل وفقد سيطرته عليه(١٦).

وفى ٢٨ ديسمبر (كانون الأول) وقعت الواقعة وصعدت المأساة إلى أعلى قممها إذ قام طالب فى الثالثة والعشرين من عمره (عبد المجيد أحمد حسن) بإطلاق رصاصتين محكمتى التصويب على رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا.

وشيع أنصار الحكومةجثمان رئيس وزرائهم هاتفين فى صراحة "الموت لحسن البنا"(١٧).

وأتى إبراهيم عبد الهادى ليدير ماكينة العنف الرسمى إلى أقصى مداها.. ولتتسع دائرة الاعتقالات فى صفوف الإخوان فتشمل ...٤ معتقل(١٨)، وتعرض بعض المعتقلين لأقصى درجات التعذيب الوحشى الذى لم تعرف له مصر مثيلا من قبل، وباختصار "كانت الستة أشهر التالية لتولى إبراهيم عبدالهادى الحكم صورة راسخة فى أذهان المصريين جميعا للسلطة الرسمية الغاشمة وقد اكتسب عبد الهادى لنفسه خلالها عداء كافة فئات الرأى العام المصرى"(١٩).

وفى زنازين التعذيب الرهيبة- والتى تناولت المتهم وأسرته رجالا ونساء- كان أقصى ما يؤلم الإخوان قيام أجهزة الأمن بتعليق الآية الكريمة "**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الحياة الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم**".

ولعل شكوكا كثيرة قدساورت هؤلاء الشبان من أعضاء الجهاز السرى وهم يعانون من التعذيب الوحشى فى جدوى عملية الإرهاب ضد خصومهم، وفى مدى انطباق "فكرة الجهاد" على ما ارتكبوه من أعمال، ولعل فتاوى مفتى الديار المصرية وبيانات شيخ الأزهر وهيئة كبار العلماء التى تدين أعمالهم قدأثرت فيهم كثيرا.

لكن الطامة الكبرى جاءت عندما استنكر الشيخ البنا نفسه هذه الأعمال واتهم القائمين بها بأنهم "ليسوا أخوانا وليسوا مسلمين"، وهنا انهار المتهمون جميعا، فقد كان صمودهم واحتمالهم للتعذيب يستمد كل صلابته

من "البيعة" التى أقسموا بها بين يدى الشيخ فى حجرة مظلمة.. فإذا تخلى الشيخ عنهم وعن فكرة "الجهاد" كما لقنها لهم.. فماذا يبقى؟

ولقد صمد عبد المجيد حسن ثلاثة أسابيع كاملة في مواجهة تعذيب وحشى ضده وضد أسرته لكنه ما لبث أن انهار تماما عندما قرأ بيان الشيخ البنا الذى نشرته الصحف(٢٠).

والحقيقة أن نزوع الإخوان إلى الإرهاب، كان خطأ فادحا مكن الخصوم من استخدام العنف الرسمى في أقسى صورة ضدهم.

كذلك فقد عزلهم هذا الإرهاب عن الكثير من القوى التى اعتادت العطف عليهم أو النظر إلى دعوتهم بعين الرضا.

ومع ماكينة التعذيب كانت ماكينة الدعاية تدور لتجرم الجماعة وشيخها ومنهجها وجهازها السرى.

* فتوى مفتي الدار المصرية تدين أفعال الجماعة وتتهم القائمين بها بالكفر.

* وبيان من هيئة كبار العلماء.

* وبيان ثالث من شيخ الأزهر.

* وساهم فى حملة الإدانة لأعمال العنف والإرهاب الإخوانية مفكرون وكتاب يتمتعون باحترام جمهور الشعب العريض.

* د. طه حسين يقول: "ما هذه الأسلحة وما هذه الذخيرة التى تدخر فى بيوت الأحياء وفى قبور الموتى؟ ما هذا المكر الذى يكمن، وما هذه الخطط التى تدبر، وما هذا الكيد الذى يكاد، ولم كل هذا الشر، ولم كل هذا النكر، ولم رخصت حياة المصريين.. يقال أنها إنما رخصت بأمر الإسلام الذى لم يحرم شيئا كما حرم القتل، ولم ينه عن شىء كما نهى عن التعاون على الإثم والعدوان"(٢١).

* وكامل الشناوى يقول "إننى حزين أن يوجد انسان واحد، لا جماعة منظمة، يصنع الموت للناس ويحترف التخريب والتدمير، وإن قلبى ليقطر حزنا إذ كانت هذه الجماعة ترتكب جرائمها باسم الإسلام، وتجد من يصدقون دعواها.. إن الإسلام الذى يقول كتابه الكريم "وجادلهم بالتى هى أحسن" لا يقر الجدل بالمسدسات والمدافع والمتفجرات"(٢٢).

لكن استنكار الجهاز السرى وجرائمه لم يأت من خارج الجماعة فقط، بل لعله أتى أكثر ما أتى من داخلها.. بل من شيخها ومنشئها ومؤسس الجهاز السرى نفسه.

يقول منير الدلة عضو مكتب الإرشاد العام فى اعترافاته أمام المحكمة ".. شفت الأستاذ حسن بعدما حصلت حادثة الخازندار، وكان مرهقا ومتعبا جدا من الحكاية دى وقال لى الإخوان قاموا بارتكاب الحادثة دى إزاى.. دى جريمةبشعة.. وبهذه المناسبة شكا لى من أن الفكرة من إنشاء أو تكوين الجهاز كانت تفهيم الإخوان معنى الجهاد فى نفوسهم ولكن بعض الأفراد انحرفوا، وقال أن هذه الحوادث حصلت من غير ما يعلم بها،وكان فى غاية الألم".

ويقاطعه رئيس المحكمة "إحنا مابنكلمش عن الأستاذ البنا وأنه كان فى غاية الألم- ألم تتكلم معاه فى أن الجهاز ده يتبع مين؟".

ويجيب الشاهد "معنى الكلام ده أن الجهاز المفروض أنه يكون خاضع له، ولكن هو ما كانش خاضع له، وأنه ارتكب الحوادث اللى ارتكبها من غير أمره.. وفى فترة الحل تجددت شكواه (البنا) ثانى مرة، وقال على حد تعبيره الحمد لله اللى اتحلت الجماعة علشان نخلص من البلوى دى ونصفيها"(٢٣).

وإذ نترك هذه الشهادة الخطيرة.. بما فيها من معلومات تثير الدهشة معلقة فى مسؤولية قائلها فإننا نلاحظ أن ثمة شهادة أخرى تؤكدها، وهى

شهادة السيدة منيرة عامر حرم صالح حرب باشا رئيس جمعية الشبان المسلمين والصديق الشخصى لحسن البنا.. وفى شهادتها أمام المحقق فى اغتيال حسن البنا بجلسة ١٨ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٣ تقول:

"الشيخ البنا كان يحضر لمقابلة صالح حرب باشا لكى يتفق مع الحكومة، وكان الواسطة بين الطرفين الأستاذ مصطفى مرعى، وأنا كنت أسمع أن الأستاذ البنا متألم وسألته قال أنه بعد قتل الخازندار أن المسألة خرجت من ايده وأنا عاوز أمسكهم ولكن مش قادر"(٢٤).

ونمضى لنتابع مواقف بقية قادة الجماعة عن أعمال الإرهاب.

.. يقول حسن الهضيبى خليفة حسن البنا فى اعترافاته أمام المحكمة "لما جيت فى الإخوان المسلمين فى سنة ١٩٥١ تبين لى أن عندهم شىء اسمه النظام الخاص فأنا سألت إيه الغرض من هذا النظام؟ وإيه مرماه؟ وتعملوا بيه إيه؟خصوصا بعد ما ثبت أنه ارتكب جرائم قبل ذلك فى السنوات ٤٦- ٤٧- ٤٨، وكل هذه الجرائم ارتكبت طبعا انحراف أو خروج عن الغرض الأصلى"(٢٥).

وقائد ثالث من الإخوان- محمد عبد المعز محمد عبد الله- يقول فى شهادته أمام المحكمة:

"- الدفاع: قتل النقراشى حلال؟

- الشاهد: جريمة.

- الدفاع: وقتل الخازندار حرام؟

- الشاهد: أيوه.

- الدفاع: إسلام أو كفر؟

- الشاهد: كفر.

- الدفاع: وقاتله؟

- الشاهد: يدخل النار.
- الدفاع: فى عهد من قتل الخازندار؟
- الشاهد: فى عهد حسن البنا.
- الدفاع: والنقراشى؟
- الشاهد: فى عهد حسن البنا.
- الدفاع: ومن يقر القتل كافر أو مسلم؟
- الشاهد: . . . ."(٢٦).

وقائد آخرمن قادة الجماعة هو محمود الحواتكى يتكلم أمام المحكمة.

"- الدفاع: هل اغتيال الخازندار من ضمن الأخطاء؟
- الشاهد: نعم.
- الدفاع: والذين ارتكبوا هذه الأخطاء مسلمين أو غير مسلمين؟
- الشاهد: انخلعت عنهم ربقة الإيمان.
- الدفاع: هل تعتقد أن الذين يقرونهم ويوافقون على هذه الجرائم مسلمين أو غير مسلمين؟
- الشاهد: غير مسلمين.

ومضى الشاهد فى اعترافاته مؤكدا أنه فى أيام حسن البنا كان الذى يخرج على الجهاز السرى يقتل"(٢٧).

أما الدكتور خميس حميدة وكيل جماعة الإخوان فيجيب أمام المحكمة على سؤال عن نشاط الجهاز السرى قائلا:

"- الرئيس: وده صح؟
- الشاهد: غلط.
- الرئيس: غلط؟
- الشاهد: نعم.

- الرئيس: يفهم من كده أن جماعة الإخوان المسلمين غلط؟
- الشاهد: إلى أبعد حدود الغلط".

ويسأله الرئيس هل يعتبر عمل محمود عبد اللطيف (الذى حاول اغتيال جمال عبد الناصر) من الأعمال المضادة للجهادية.. الإجرامية مثلا؟

ويجيب وكيل جماعة الإخوان: "أنا أعتبر أن عمل محمود عبد اللطيف عمل إجرامى"(٢٨).

ونترك هذا الحديث إذ بامكانه أن يطول بغير حد فسلسلة اعترافات الإخوان أمام المحاكم لا تنتهى.. فقط أردنا منه أن نثبت أن مقولة "الجهاد" التى قام على أساسها الجهاز السرى لم تكن واضحة وضوحا كافيا ولا مستقرة استقراراً كافيا ولا مقبولة قبولا كافيا من كوادر الجماعة وقادتها.

وأن الزهو عندما انطفأ، وعندما واجه الإخوان مصيرهم أمام سلطة البطش، انهار الكثيرون مدلين باعترافات كاملة.. كان أخطرها تطوعهم بإدانه فكرة الجهاز السرى وتكفير القائمين عليه.

نترك ذلك.. ونعود إلى الشيخ حسن فى محنته القاسية.

كان الشيخ حسن البنا يعانى أكثر ما يعانى من حريته المفروضة عليه.. وأكثر من مرة طالب خصومه بأن يضعوه فى المعتقل ولكنهم رفضوا، فقد اختمرت لديهم فكرة تصفية الشيخ.. تصفيته سياسيا أولا وبعدها يصفى جسديا.

وقد كان..

وفى حريته كان الشيخ أكثر عذابا من أتباعه المسجونين، فقد تركوه محاصرا، عاجزا، ضعيفا. لقد انفرط عقد الجماعة، والجهاز السرى تقطعت خطوطه، والبناء الشامخ ينهار، "ورهبان الليل وفرسان النهار" يتساقطون تحت آلة التعذيب ليدلوا باعترافات متكاملة تجر إلى الزنازين المزيد والمزيد

من الإخوان.

والشيخ الذى كان ملء السمع والبصر، أصبح يستجدى مقابلة مع رئيس الوزراء مقدما كل ما يستطيع من تنازلات.. ويأبى رئيس الوزراء أن يقابله.

وبالنسبة لرجل كحسن البنا، يكون وضع كهذا هو قمة المأساة.

وتحرك الشيخ المهيض الجناح فى اتجاهين.. أن يسجل دفاعه عن نفسه وعن جماعته كتابة، وأن يحاول لعبة الوساطة والتنازل لعله ينقذ شيئا من تحت أنقاض الجماعة.

وكتب الشيخ آخر رسائله "القول الفصل" وشتان بينها وبين رسائله الأولى.

يبدأ البنا "القول الفصل" قائلا: "لقد سمع الرأى العام المصرى والعربى والإسلامى قضية الإخوان المسلمين من جانب واحد هو جانب الحكومة التى اعتدت على الهيئة بإصدار أمر عسكرى بحلها وهو الجانب الذى يملك كل وسائل الدعاية من الصحف الخاضعة للرقابة كل الخضوع ومن الإذاعة التى تديرها وتهيمن عليها القلة،ومن الخطباء فى المساجد الذين هم موظفون حكوميون.لكن الرأى العام لم يسمع من الطرف الآخر، لم يسمع من الإخوان الذين حرموا كل وسائل الدفاع عن أنفسهم فصودرت حفهم وعطلت أقلامهم وكممت أفواههم.. واعتقل كل خطيب لهم واعتبر اجتماع كل خمسة منهم فى أى مكان جريمة أقل عقوبة لها السجن ستة أشهر. ولهذا كان من الواجب أن نتقدم بهذا البيان للرأى العام المصرى والعربى والإسلامى وللضميرالإنسانى العالمى حتى لا يقع فى خطأ ما، ويظلم فى الحكم، ويحكم بسماع خصم واحدو وقد قيل: إذا جاءك خصم وعينه مقلوعة فلا تحكم له حتى ترى خصمه فقد تكون غيناه الاثنتان مقلوعتين"(٢٩).

أما الأسلحة فقد كرر الشيخ مقولة أنها "للمجاهدين من الإخوان المسلمين والفلسطينيين والهيئة العربية العليا الفلسطينية والحكومة نفسها تعرف

ذلك"..

واتهم البنا الحكومة أنها أصدرت قرار حل الجماعة تحت ضغط مذكرة ثلاثية تقدمت بها كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا وبعد اجتماع لممثليها الدبلوماسيين بفايد فى ٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨. وطالبت المذكرة بحل الجماعة.

وبعد أن سرد البنا أسبابا عديدة أخرى منها ستر الفشل فى فلسطين والإعداد لمفاوضات جديدة مع الإنجليز عاد ليركز على ما أسماه بالأصابع الخفية والدسائس "من ذوى الغايات الذين خاصموا الدعوة من أول يوم وتربصوا بها كاليهودية العالمية والشيوعية الدولية والاستعمار وأنصار الالحاد والإباحية".

وفى ختام "القول الفصل" قال البنا "وسنجاهد فى سبيل حقنا ما وسعنا الجهاد فإن أعوزتنا الحياة الشريفة العزيزة فلن يعوزنا الموت الكريم المجيد".

لكن "القول الفصل" بقى مخطوطا.. ولم ير النور إلا بعد وفاة الشيخ:

قلنا أن الشيخ قد لجأ إلى الوساطة.. والصحيح أنه قد وقع فى مصيدة الوساطة.. لقد استدرجوه خطوة خطوة، ليقدم تنازلا أثرتنازل وفى النهاية اغتالوه.

وقد رفض عبدالهادى مقابلةالشيخ، ثم أحال الأمر إلى اثنين من أخلص أعوانه ليراوغا الشيخ ويستدرجاه أولا إلى مصيدة التصفية السياسية.

ولنلق نظرةعلى الصائدين.. ثم على المصيدة.

- الصائدان: مصطفى بك مرعى وزكى باشا على.

- المصيدة: استدراج الشيخ إلى إصدار بيانات واتخاذ مواقف تدمر سمعته السياسية وتظهره بمظهر الضعيف أمام أتباعه وجماهيره، وتؤدى إلى تدمير معنويات الإخوان المحتجزين ثم فى النهاية تصفيته جسديا بعد أن

يصفى سياسيا..

يقول المدعى نائب الأحكام أثناء محاكمة إبراهيم عبد الهادى أمام محكمة الثورة بتهم من بينها تدبير اغتيال حسن البنا:

"ولم يكن المتهم (عبدالهادى) مطمئنا إلى أنه بما أجراه من اعتقالات قد عزل المجنى عليه (حسن البنا) من أنصاره عزلا تاما بل ساوره الاعتقاد باحتمال أن يكون لفريسته أنصار آخرون لم يتيسر لرجاله الكشف عنهم، ومن ثم فقد دس عليه بعض وزرائه فى صورة من يفاوضونه لإعادة جماعته سيرتها الأولى فى مقابل أن يكشف له عن كل رجالها توطئة لاعتقالهم.. فلما لم يؤد هذا البحث إلى إثبات وجود أنصار آخرين للمجنى عليه اطمأن المتهم إلى أن الفرصة واتته ليجهز على فريسته وهى مجردة من كل نصير"(٣٠).

لكن كيف كانت تجرى المفاوضات بين "الصائد" "والصيد".. وكيف كان الشيخ المقصوص الأجنحة يجر جرا إلى المصيدة..

لنستمع إلى شهادة أقرب المقربين إلى حسن البنا، "أخو خديجة" كما أسماه يوما ما.. صهره عبد الكريم منصور، إنه يستخدم نفس التعبير- بل لعلنا استعرناه منه- ".. وعلاوة على ذلك استخدمت الحكومة الأستاذ مصطفى مرعى كأداة صيد.. لأن مصطفى مرعى اتصل بصالح حرب وقال له أنا عاوز أفاوض الإمام الشهيد. وأخذ الأستاذ مصطفى مرعى بأساليب ملتوية ممقوتة يعمل على إبقاء الإمام الشهيد بالقاهرة موهما إياه بأسلوب بهلوانى بأن الحكومة ستلغى أمر الحل وتتصالح مع الإخوان وتعود الأمور إلى ما كانت عليه".

ويسأله رئيس المحكمة: قلت فى كلامك أنه اتبع طرق ملتوية، فإيه الطرق الملتوية دى؟

ويجيب الشاهد: "أيوه حاقول لكم يا أفندم. فهو كان بيّوهم الإمام الشهيد أنهم جادون فى أن يعيدوا الإخوان المسلمين، ولكنه كان بيقول له بس لو سمحت تكتب لى بيان يثبت حسن نيتكم، وكان مصطفى مرعى يقول ألفاظ للأمام الشهيد، وكان الأمام الشهيد يعارض فى ألفاظ ملتوية كان يكتبها أويمليها مصطفى مرعى فيقوم يقول له.. دي مسألة بسيطة إذا كان ده ثمن إعادة الإخوان وإذا كان ده ثمن التفاهم مع الحكومة فإيه المانع من كتابته؟ بمجرد ما كتب هذا البيان أخذه مصطفى مرعى وأعطاه لرئيس الحكومة وعدل فيه وجابه للإمام الشهيد وقعد يقول له اللفظ ده يدخل واللفظ ده لا يدخل. وهكذا قعد يعدل فى البيان. وبعد ذلك بمجرد ما أخذ البيان منه أعطاه لقاتل النقراشى وقال له شوف الشيخ حسن البنا أهو أصدر بيان ضدك وقعد يستشير به المتهم القاتل وكان من نتيجة هذا الأسلوب الذى اتخذه مصطفى مرعى أن قاتل النقراشى قعد يتكلم كلام كتير وأصبح أداة مطواعة فى يد التحقيق يقول ما يمليه عليه المحقق ورجال البوليس السياسى"(٣١).

وهكذا فعندما يتردى السياسى فى هاوية التنازلات..فلاعاصم. ويوقع البنا بيانا بعنوان "بيان للناس" استنكر فيّه الشيخ أعمال رجاله ورفاق طريقه ودمغها بالإرهاب والخروج على تعاليم الإسلام.

وكان البنا يلح على ضرورة الإفراج عن بعض رجاله معلنا أنه "لا يستطيع أن ينكر الأخطاء التى ارتكبها الإخوان وأنها قد هزته إلى درجة أنه هو نفسه قد شعر بضرورة حل الجماعة"(٣٢). وقال أن التحكم فى سير الأحداث يحتاج إلى رجال معينين يمكن للشيخ من خلالهم السيطرة على الموقف.. لكن عبد الهادى لم يقتنع بمنطق الشيخ ولم يكتف بالبيان الذى أصدره، وأخذ مصطفى مرعى يلح على ضرورة تسليم محطة الإذاعة السرية للإخوان وكل ما بقى لدى الإخوان من أسلحة(٣٣).

وبعد يومين من صدور "بيان للناس" قبض على أحد قادة الجهاز السرى وهو يحاول نسف محكمة استئناف مصر. ولنترك الحديث للشاهد الأول فى قضية اغتيال البنا محمد يوسف الليثى والذى كان فى هذا الوقت عميلا للبوليس السياسى ومكلفا بمتابعة تحركات حسن البنا وهو أيضا الذى استدرجه يوم اغتياله.. يقول الشاهد ".. وحصل حادث نسف محكمة الاستئناف وأنا قابلت الشيخ البنا، وكان متأثرا جدا من هذا الحادث، وكان معتقدا أن الإخوان مش هم اللى عملوا الحادث، ولما عرف أنهم هم اللى عملوا الحادث زعل خالص وبكى وقال أنه لا تهمه الحكومة وإنما يهمه الشعب الذى قد يصدق أن الإخوان المسلمون إرهابيون،وقال أنه استعجب كيف حصل هذا الحادث، وحصلت بعد كده مفاوضات بينه وبين مصطفى مرعى بخصوص المعتقلين، وصالح حرب باشا اتصل بمرعى بيه علشان يجتمعوا بالشيخ البنا.. وتفاهموا ومرعى بيه قال للشيخ البنا تعمل بيان كما قلت لك فى الأول وأنت رفضت ولذلك لازم تعمل بيان واتفاهموا على إصدار بيان بعنوان "ليسوا أخوانا وليسوا مسلمين" ثم استمرت الاتصالات"(٣٤).

وعندما يدخل الصيد إلى المصيدة.. تكون التصرفات غير محسوبة.. ولنقرأ ما خطه الشيخ البنا بيده:

"ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين".

"وقع هذا الحادث الجديد، حادث محاولة نسف مكتب سعادة النائب العام وذكرت الجرائد أن مرتكبه كان من الإخوان المسلمين فشعرت بأن من الواجب أن أعلن أن مرتكب هذا الجرم الفظيع وأمثاله من الجرائم لا يمكن أن يكون من الإخوان ولا من المسلمين لأن الإسلام يحرمها والإخوة تأباها وترفضها.

ومن المرجح بل من المحقق أنه أراد به أن يتحدى الكلمة التى نشرت قبل ذلك بيومين تحت عنوان "بيان للناس" ولكن مصر الآمنة لن تروعها هذه

المحاولات الأثيمة وسيتعاون هذا الشعب الحليم الفطرة مع حكومته الحريصة على أمنه وطمأنينته فى ظل جلالة الملك المعظم على القضاء على هذه الظاهرة الخطيرة.

وليعلم أولئك الصغار من العابثين أن خطابات التهديد التى يبعثون بها إلى كبار الرجال وغيرهم لن تزيد أحدا منهم إلا شعورا بواجبه وحرصا تاما على أدائه. فليقلعوا عن هذه السفاسف ولينصرفوا- إلى خدمةبلادهم كل فى حدود عمله إن كانوا يستطيعون عمل شيء نافع مفيد.

وإنى لأعلن أننى منذ اليوم سأعتبر أى حادث من هذه الحوادث يقع من أى فرد سبق له اتصال بجماعة الإخوان موجها الى شخصى ولا يسعنى إزاءه إلا أن أقدم نفسى للقصاص وأطلب إلى جهات الإختصاص تجريدى من جنسيتى المصرية التى لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء، فليتدبر ذلك من يسمعون ويطيعون، وسيكشف التحقيق ولاشك عن الأصيل والدخيل. ولله عاقبة الأمور.

حسن البنا"

وهكذا امتص المفاوضون البرتقالة إلى آخر قطرة..

والشيخ الذى فى قفص الحرية يعانى أكثر من رجاله فى السجن.. ويتعرض لضغوط مريرة عنيفة.. آلاف الأسر بلا عائل، إخوانه فى السجن، وهو بلا حول ولا طول.

وبيانه الأول أثار استياء أعضاء الجماعة بالسجون ويقال أنهم وجهوا له رسالة إنذار يقولون فيها أنهم يعتقدون "أن البيان مدسوس فإن كان صحيحا فإن يوم الحساب آت بعد الإفراج عنا"(٣٥).

ويكون تحدى من بقى بالخارج لبيان الشيخ محاولة نسف محكمة الاستئناف.. الرجل بين فكى كسارة البندق سجين ضغوط خصومه وضغوط

رجاله لكنه لا يملك من أمر نفسه شيئا.

وماذا يبقى من الشيخ..

رجاله فى السجون يبعثون له يهددونه، ومن بقى خارج السجن يتمرد عليه، وهو يتهم أخلص خلصائه.. الذين أقسموا له على المصحف والمسدس يمين الطاعة التامة فى المنشط والمكرة.. يتهم "رهبان الليل وفرسان النهار" بأنهم "ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين".

بل ويتردى إلى مديح الحكومة التى تعذب رجاله أشد العذاب ويقول أنها حريصة على أمن الشعب وطمأنينته "فى ظل جلالة الملك المعظم".. بل ويحرض الشعب على التعاون مع الحكومة "للقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة".

"رهبان الليل وفرسان النهار" أصبحوا فى آخر بيان للشيخ {أولئك الصغار من العابثين" وجهادهم أصبح "سفاسف".

ولا يبقى للشيخ ما يقوله.. سوى أنه سيطلب تجريده من جنسيته المصرية "التى لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء"؟

وقرر القتلة أن يطلقوا الرصاص على جثته.

سحبوا منه سيارته ثم مسدسه المرخص ثم سحبوا الحراسة المحيطة به، واستدرجوه الى جلسة مفاوضات أخرى أو أخيرة.. وأطلقوا عليه الرصاص.

ويبقى معلقا للبحث الدقيق.. التاريخ الحقيقى لوفاة الإمام الشهيد المرشد العام الشيخ حسن أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتى.

هل هو يوم ١٢ فبراير (شباط) ١٩٤٩. كما هو مثبت فى شهادة الوفاة..

أم هو يوم أصدر الشيخ بيانه "ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين"..

أم هو يوم أصدر "بيان للناس"..

أم قبل ذلك بكثير.. يوم سمح لنفسه أن يدخل ميدان السياسة من باب الموالاة للقصر.. ومخاصمة الشعب..؟

وقد أثبت التحقيق أن المدبر الأساسى لمقتل الشيخ حسن البنا كان الملك فاروق.

وأكد الإخوان أنفسهم أكثر من مرة أن الشيخ "قد اغتيل فى ١٢ فبراير (شباط) ١٩٤٩ الموافق ١٤ ربيع ثان سنة ١٣٦٨ هجرية.. يوم عيد ميلاد الملك السابق فاروق أحمد فؤاد فكان اغتياله هدية عيد ميلاد ملك جلب الدمار لشعبه"(٣٦).

بل لقد وصل الأمر بالجماعة إلى أنها طلبت رسميا من المحكمةالتى عقدت فى أعقاب ثورة يوليو لمحاكمة قتلة الشيخ حسن البنا، تقديم متهمين جدد على رأسهم الملك السابق فاروق وذلك باعتباره محرضا وفاعلا أصليا.

ولأن القاتل الحقيقى كان فاروق.. فإن الباحث يكتم دهشته- بل ما هو أكثر من الدهشة- إذ يجد فى سجل تشريفات قصر عابدين يوم ١٤ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥١..أسماء عديد من قادة الإخوان، أتوا إلى إبواب قصر الملك ليعربوا- مرة أخرى- لقاتل شيخهم، ربما عن ولائهم، وربما عن نسيانهم لدم شهيدهم. والتوقيعات ذات دلالة..

خليفة الشيخ البنا.. المرشد الجديد حسن اسماعيل الهضيبى.

أقارب الشيخ البنا.. شقيقه عبد الرحمن البنا وعضو مكتب الأرشاد العام.

وصهره عبدالحكيم عابدين وسكرتير عام الجماعة.

وأقرب المقربين اليه من رجاله:

- صالح عشماوى.
- عبد القادر عودة.

- حسين كمال الدين.
- محمد الغزالى.
- عبد العزيز كامل.

وكلهم أعضاء فى مكتب الإرشاد العام.

وحتى السكرتير الخاص للإمام الشهيد وكاتم أسراره ورفيق رحلته الطويلة سعد الدين الوليلى أتوا به معهم ليوقع هو أيضا معربا عن ولائه للملك فاروق!

وطوال رحلتنا مع هذه الدراسة. تراكمت علامات استفهام وعلامات تعجب كثيرة، وتكون علامة التعجب الأخيرة مشارا لما هو أكثر من الدهشة.. وتساؤلا حول مدى وفاء هؤلاء الموقعين لذكرى شيخهم وإمامهم ومرشدهم وشهيدهم.. وحول مدى صدق ما يصيغون من تراتيل الوفاء لشيخ نسوا ذكراه على عتبات قصر قاتله!

١- النذير، العدد الأول- ٣٠ ربيع الأول ١٣٥٧هـ.

٢- إسماعيل أحمد شافعي، الإخوان المسلمون. دعوة البعث والانقاذ، مقتطفات من رسائل وخطب المرشد العام- مطبعة العميري. بني سويف ص ٣.

٣- عبدالحكيم عابدين، البواكير، مجموعة شعرية. دار الصاوي للطبع والنشر، ص ٤٠.

٤- لطفي عثمان، المرجع السابق، ص ٩٠.

٥- حسن البنا، الرسائل الثلاث، ص ٦.

6- Mitcheel - op. cit. p. 319.

٧- مجلة الدعوة، غرة جمادي الأولى (أبريل ١٩٧٧)، د. يوسف القرضاوي، مقال: الجهاد في الإسلام.

٨- حسن البنا، رسالة المؤتمر الخامس- ص ٦٣.

٩- حسن البنا، الرسائل الثلاث، ص ٩٣.

١٠- حسن البنا، رسالة الجهاد- دار الكتاب العربي- القاهرة. ص ٣٧. وحول هذا الموضوع راجع أيضا: محمد فهمي الطماوي- المجاهدون- القاهرة (١٩٥٢). وأيضا: أحمد نار، القتال في الإسلام- القاهرة (١٩٥٢).

١١- قانون رقم ١٧ لسنة ١٩٣٨.

١٢- د. عبد العظيم رمضان، المرجع السابق- جـ٢- ص ١٢٧.

١٣- مرافعة أحمد حسين، المرجع السابق- ص ٤٢.

١٤- المرجع السابق، ص ٤٢.

١٥- عبد الغني عابدين (السكرتير العام المساعد لجمعية الكشافة

المصرية ووكيل عام جوالة الإخوان المسلمين)- تقرير عن النشاط الكشفي لجماعة الإخوان المسلمين.

١٦- طارق البشرى- المرجع السابق- ص ٥٠.

17- Lacouture, Jean - Nasser - New York (1973) p. 28.

١٨- جمال الشرقاوى،حريق القاهرة- دار الثقافة الجديدة (١٩٧٦)- شهادة مسجلة صوتيا لمجدى حسنين.

١٩- روز اليوسف. ١١- ٤- ١٩٧٧- أحمد حمروش: اعترافات شهود يوليو.

20- Vatikiotis - Egyptian Army in Polotics - op. cit. p. 47.

21- Mitchell - op. cit. p. 98.

٢٢- المصور، ٣١- ١٠- ١٩٥٤- حلمى سلام: قصة ثورة الجيش من المهد إلى المجد. ولمزيد من التفاصيل حول علاقة الإخوان راجع:

-- Nagib, Mouhaamed - Egypt's destiny - a personal statement - London (1955) p. 32.

-- Hayden, D. Egypt's Surprise Dictatorship - National and English review, (oct. 1952) p. 212.

٢٣- محكمة الشعب- الجزء الرابع (محاكمة محمود عبد اللطيف) شهادة محمد محمد فرغلي، ص٧٦٦.

٢٤- أحمد حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو- ج١- المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت.

25- Khadduri - op. cit. p. 76.

٢٦- محكمة الشعب- الجزء الثاني- شهادة السيد حسين أبو سالم. ص ٣٤٧.

٢٧- حتى يعلم الناس: (١٩٥٤) ص (وهو كتيب أصدره قادة الإخوان في الأردن والعراق والسودان يحددون فيه موقف الإخوان من ثورة يوليو).

٢٨- حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية. ص ١٢٨.

29- Mitchell - op. cit. p. 30.

30- Ibid- p. 30.

٣١- أحمد أنس الحجاجي، الرجل الذى أشعل الثورة - ص ١٦- ٣٥.

32- Mitchell - op. cit. p. 31.

٣٣- محكمة الشعب- الجزء الأول- المرجع السابق (شهادة هنداوى دوير) ص ٣٢.

٣٤- المرجع السابق، ص ١٢٦.

٣٥- المرجع السابق، ص ١٢٦.

٣٦- صدرت عدة كتب عن الجهاز السرى ومهامه وأساليب عمله كلها تقريبا بمنهج معاد مثل:

- محمد التابعي. هؤلاء هم الإخوان- القاهرة (١٩٥٤).
- كمال كيرة- محكمة الشعب.
- جرائم عصابة الإخوان (سلسلة كتب قومية).

ويلاحظ افتقاد هذه الكتب جميعا للبعد الأكاديمى وللموضوعية فى العرض والتحليل.

٣٧- الإخوان المسلمون، ١٦- ٨- ١٩٤٦.

٣٨- محكمة الشعب- الجزء الأول- المرجع السابق، ص ١١.

٣٩- راجع فى هذا الصدد- محمد لبيب البوهى، مع شهداء الإسلام- القاهرة (١٩٥٢).

40- Mitchell - op. cit. p. 205.

٤١- محكمة الشعب- الجزء الثالث (شهادة إبراهيم الطيب) ص ٥١٦.

٤٢- المرجع السابق، ص ٥٥٧.

٤٣- محكمة الشعب- الجزء السادس- محاكمة حسن الهضيبي- المرجع السابق (شهادة منير الدلة) ص ١٣٦.

44- Harris, Christina - op. cit. p. 182.

٤٥- لمزيد من التفاصيل حول دور الإخوان في ثورة ١٩٣٦ بفلسطين راجع عبد الباسط البنا، تاج الإسلام وملحمة الإمام- القاهرة (١٩٥٢)، ص ٣٧.

٤٦- الجمهورية، ٢٢- ١١- ١٩٥٤.

٤٧- كامل إسماعيل شريف، الإخوان في حرب فلسطين- الطبعة الثانية ص ٨٠. وأيضا: محمد لبيب البوهي- مع شهداء الإخوان، المرجع السابق، ص ٢٤- ٣٦.

٤٨- أحمد حسين. واحترقت القاهرة- ص ٣١٣- ٣١٥.

٤٩- د. محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية، ج٢، ص ٣٣٨.

٥٠- كامل إسماعيل شريف، المرجع السابق، ص ١٤٦، ١٨٥.

الفصل الأخير..
ثم أسدل الستار

١- حسن البنا، دعوتنا في طور جديد. دار الكتاب العربي بمصر (١٩٥٤)، ص ٣٠.

٢- فتحي غانم، الرجل الذي فقد ظله- الكتاب الثالث (ناجي)- (سبتمبر ١٩٦٩)، ص ٣٠.

٣- طارق البشري، المرجع السابق، ص ٢٦٠.

٤- لوجهة النظر المعادية لتحرك الإخوان في اليمن، راجع: الإخوان

والإرهاب. القاهرة (١٩٥٥)، ص ٤٢- ٥١.

ولوجهة نظر الإخوان راجع: محمد الغزالي، من هنا نعلم. الطبعة الرابعة. الذي يمجد الانقلاب كتحرك إسلامي ضد حكم الكهانة، ص ١٠٦. وراجع أيضا: مجلة المباحث، ١٢- ١٢- ١٩٥٠.

٥- طارق البشرى، المرجع السابق ص ٣٦٩.

٦- المصرى، ٢٢- ١- ١٩٤٨.

٧- آخر ساعة، ٢٤- ١١- ١٩٤٨.

٨- عبد الرحمن الرافعي، في أعقاب الثورة المصرية، ج٣، ص ٢٦٧.

٩- المصرى. ٢٠، ٢١، ٢٩ يوليو، ١، ٤ أغسطس ١٩٤٨.

10- Resner, Lawrence - Eternal Stranger: The Pilght of Modern Jew From BAgdad to Casablanca. New York (1951) p. 116.

١١- قضايا الإخوان- قضية سيارة الجيب: الحيثيات ونص الحكم- دار الفكر الإسلامى- القاهرة (١٩٥١).

12- Mitcheel - op. cit. p. 64.

١٣- الدعوة، غرة ربيع الأول ١٣٩٧ (فبراير ١٩٧٧)- تصريح لسعد الدين الوليلي، السكرتير الخاص للشيخ حسن البنا بعنوان "ما هى الأسرار الحقيقية في قضية اغتيال الشيخ حسن البنا".

١٤- الدعوة، غرة رجب ١٣٩٧ (يونيو ١٩٧٧). ص ٣٢.

١٥- حسن البنا، القول الفصل.

16- Mitchell - op.cit. p. 67.

١٧- المباحث، ٢٣- ١- ١٩٥١.

18- Cahiers de L'orient Contemporain II (1949) p. 42.

19- Mitchell - op. cit. p. 67.

20- Mitchell - op. cit. p. 78.

٢١، ٢٢- جرائم عصابة الإخوان- المرجع السابق. ص ١٩٣.

٢٣- محكمة الشعب، الجزء الثاني، محاكمة حسن الهضيبي (شهادة منير الدلة) ص ١٢٣٦- ١٢٣٧.

٢٤- محضر تحقيق النيابة في قضية مقتل حسن البنا (الجناية ١٠٧١- ١٩٥٢) جلسة يوم ١٨ نوفمبر ١٩٥٣- (شهادة السيدة منيرة عامر) ص ٢٥٩ وما بعدها.

٢٥- محكمة الشعب- الجزء الرابع- محاكمة محمود عبد اللطيف (شهادة حسن الهضيبي). ص ٧٨٨.

٢٦- محكمة الشعب- الجزء الثاني- محاكمة محمود عبد اللطيف (شهادة محمد عبد المعز محمد عبد الله) ص ٣٧٦.

٢٧- المرجع السابق، شهادة محمود الحواتكي. ص ٢٥٤.

٢٨- محكمة الشعب- الجزء الثالث (شهادة خميس حميدة) ص ٦٨٠.

٢٩- حسن البنا، القول الفصل.

٣٠- محاكمات الثورة- الكتاب الأول (محاكمة إبراهيم عبد الهادي) ص١٨١.

٣١- المرجع السابق، ص ١٢٥.

٣٢- موسى إسحاق الحسيني، المرجع السابق، ص ٣٦.

٣٣- جمال سليم، البوليس السياسي يحكم مصر- القاهرة للثقافة العربية (١٩٧٦)، ص ١٩٩.

٣٤- محضر تحقيق النيابة في قضية مقتل حسن البنا (الجناية ١٠٧١- ١٩٥٢- محضر أقوال محمد يوسف الليثي، ص ٤٤.

35- Mitchell - op. cit. p. 69.

٣٦- الدعوة، غرة ربيع الأول ١٣٩٧ (فبراير ١٩٧٧). ص ٣٨.

الإسلام السياسى

من التطرف إلى المزيد من التطرف

"ويل لمن لا يعرف قلعة خصمه جيدا من الداخل"
حكمة فرعونية.

.. وليأذن لى القارىء قبل أن نستعرض معا أطروحات هذه الدراسة أن نستقر معا على منظومة من الملاحظات والافتراضات لعلها تكمل الدراسة وتكون لازمة لها.. وضرورية قبل البدء بها.. ومنظومة الملاحظات هذه تنقسم إلى قسمين..

الأول حول موقف الماركسية من الدين.. والثانى حول بعض المعطيات التاريخية والاجتماعية التى قد تقدم تفسيرا أو إيضاحا لبعض معطيات هذه الدراسة.

أولا: حول موقف الماركسية من الدين:

* قد يكون من الضرورى أن نبدأ برفض الأدعاء بأن الفكر المادى يعنى

بالضرورة اتخاذ موقف معاد للدين. أو أن رفض فكرة الدولة الدينية، وإقحام الدين فى السياسة أصلا يعنى اتخاذ موقف معاد للدين كمعتقد.. فالدين فى رأى الماركسية.. هو ظاهرة موضوعية تنتمى من حيث المجال إلى "الوعى الاجتماعى" وبطبيعة الحال فإنه يصعب التعامل مع الشعب أى شعب دون إدراك مكونات وعيه الاجتماعى والتعامل معها تعاملا موضوعيا.

يقول انجلز "أن الدين هو فى واقع الأمر انعكاس غير مادى فى عقول الناس لقوى تسيطر عليهم فى حياتهم اليومية" (١)

ويقول ماركس "الدين عند الكثيرين هو النظرية العامة لهذا العالم، وهو مجموعة معارفهم الموسوعية، وهو منطقهم الذى يتخذ شكلا شعبيا، وهو موضوع اعتزازهم الروحى وموقع حماسهم، وهو أداة قصاصهم، ومنهجهم الأخلاقى" (٢)

ويعترض إنجلز بعنف على هؤلاء الذين يتعاملون بسطحية مع الدين أو يستخفون بتأثيره على الجماهير فيقول: "إن ظاهرة سيطرت طوال . .١٨ عام على عقول البشرية المتحضرة، وجعلت الامبراطور قسطنطين ذو المطامح اللا محدودة يعتنق المسيحية ويوسع على أساسها امبراطوريته، إن ظاهرة كهذه لا يمكن النظر اليها كنسيج واه أو كأوهام يرددها مشعوذون" (٣)

وفى كتابه العائلة المقدسة هاجم ماركس بشدة الهيجليين الشباب الذين وضعوا الدين فى موضع العدو، مؤكدا أن هذا الموقف هو محاولة لإخفاء العدو الحقيقى.. العدو الطبقى.

وفى كتابهما "الايديولوجية الألمانية يدين ماركس وانجلز مقولات برونوباور المعادية للدين قائلين "إن خصومنا هنا على الأرض، ويجب أن نواجههم هنا على الأرض، ولا يليق أن نهرب من هذه المواجهة لنصطنع خصوما فى السماء، ولإنجلز مقال بعنوان "إسهام فى تاريخ المسيحية الأولى"

يقول فيه:

"إن تاريخ المسيحية الأولى يقدم نقاط التقاء ملفتة للنظر مع الحركة العمالية المعاصرة. فالمسيحية كانت فى بدايتها تشبه الحركة العمالية من حيث كونها حركة مضطهدين، لقد ظهرت فى البداية كدين للعبيد وللفقراء والمحرومين، وللشعوب المستعبدة التى اضطهدتها روما.

والمسيحية والاشتراكية تلتقيان فى أن كلا منهما تبشر بالخلاص من العبودية والبؤس.

المسيحية تجعل الخلاص فى السماء.. بعد الموت.

والاشتراكية تجعله هنا على الأرض.. وأثناء الحياة.

والمسيحية الأولى والاشتراكية تتشابهان فى تعرضهما للمطاردة.. والاضطهاد.. وفى رؤيتهما الأممية". (٥) وفى مقال آخر بعنوان "كتاب القيامة" يؤكد إنجلز ما قاله المفكر الفرنسى أرنست رينان حول المسيحية الأولى ويقول "إذا أردتم أن تأخذوا فكرة صحيحة عما كانت عليه الجماعات المسيحية الأولى فلا تقارنوها بالجماعات الدينية الحالية، وإنما قارنوها بالفروع المحلية للدولية الأولى".

ومن ثم فإن الماركسية تنظر إلى الدين من حيث كونه "وعيا اجتماعيا" يكون قادرا فى ظل ظروف محددة وبمعطيات محددة على أن يلعب دورا إيجابيا هاما فى حركة تحرير الانسان من الاستغلال.

يقول لينين "أن بروز الاحتجاج السياسى المرتدى ثيابا دينية، هو ظاهرة تلازم جميع الشعوب فى طور محدد من تطورها" (٦)

كذلك أكد انجلز فى مجال حديثه عن كون الدين جزءا من المكون الأساسى للوعى الاجتماعى ومن ثم للتحرك الاجتماعى فى بعض المراحل وخاصة تلك التى تسبق مراحل الوعى الطبقى الحاسم..

.. "إن الدين يتضمن فى عمقه مضمونا احتجاجيا ، إنه أنين المضطهدين، كما أنه يتسم بمحاولة تقديم تعويض مستقبلى عن عالم راهن مرير المذاق لم تتكامل بعد شروط وإمكانيات تغييره تغييرا ثوريا ، ولقد تمكنت الأفكار الدينية من أن تلعب دورا هاما فى تكوين المناخ الفكري لعدد من الحركات الاجتماعية للعبيد والأقنان وفئات أخرى، وهى حركات كانت ثورية فى مضمونها الاجتماعى، وإن اتسمت بوعى دينى يمثل فى واقع الأمر شكلها الخارجى المرتهن بمستوى التطور الاجتماعى ذاته"(٧)

لكن الماركسية إذ تؤكد إمكانية أن يلعب الدين دورا فى حركة التغيير الاجتماعية أي دورا سياسيا فإنها ترى أن ذلك رهن بمستوى محدد من التطور الاجتماعى ومن نمو الوعى الاجتماعى وتحديدا فإن الدور يتناقض بل ويتلاشى مع نمو الوعى الطبقى الذى يحول الصراع بين جماعات تخضع للإستغلال والاضطهاد فتتشبث بدين جديد يخالف ديانة الحكام وتتخذه محورا لنضالها وخلاصها ، وبين جماعات متميزة طبقيا تنتمى جميعا إلى ذات الدين..

بل إن الأمر هنا قد يتحول بالحكام والمستغلين إلى إمكانية استخدامهم بعض رجال الدين وبعض الشعارات ذات البريق الدينى كأداة لتأجيل الصراع الطبقى..

ومن ثم فإن الدين كمعتقد سماوى يمكن أن يستخدمه البعض فى فترة النهوض الأولى أداة للتحرر بينما يمكن أن يستخدمه البعض أداة لتغطية القهر واستمراره..

ومن هذه الزاوية يقال إن العلاقة بالدين كمنظومة تصرفات أرضية تنتمى إلى "الوعى الاجتماعى" وفى هذا الصدد يقول لينين "لقد كان الناس وسيظلون أبدا فى حقل السياسة ضحايا ساذجة يخدعها الآخرون، بل

ويخدعون أنفسهم ما لم يتعلموا استقراء المصالح الطبقية بين أسطر الخطب والبيانات والمواعظ والدعاوى الدينية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية" (٨)

بهذا يمكن للأمر أن يكون واضحا.. فالدين كمعتقد سماوى هو علاقة داخلية للإنسان، يتعين احترامها والدفاع عن حقه فى التمسك بهاوالخضوع لمقتضياتها ومتطلباتها، أما استخدام الدين كأداة فى الصراع الاجتماعى فإن الماركسية ترى أنه كان واردا وممكنا بل وثوريا فى المراحل الأولى للتطور الاجتماعى، وأنه مع نشوء الطبقات الاجتماعية وتبلورها ووقوفها وجها لوجه فى معترك الصراع الطبقى فإن إدخال الدين فى هذا المعترك يمكنه أن يحرف الأفكار عن المعطيات الواقعية والأرضية لهذا الصراع، بل ويمكنه أن يجعل من المقولات الدينية شعارا أو أداة يستخدمها الحكام وبعض رجال الدين فى تغييب الوعى الاجتماعى والطبقى للجماهير ومن ثم فى فرض المزيد من الاستغلال والقهر عليهم.

ومن هنا فإن احترام الماركسية للدين شىء والمطالبة بخضوعها لابتزاز الذين يستغلون الدين فى معركة الصراع الطبقى شىء آخر.

ولعلنا بعد هذه الملاحظات نستطيع أن نبدأ دونما حرج فى معالجة مواقفنا الانتقادية من "الإسلام السياسى" باعتبار أننا نعتقد أنه محاولة لتطويع المعطيات الدينية لمصالح اجتماعية محددة وضد مصالح اجتماعية محددة، وهو ما يتنافى مع جوهر الإسلام ذاته الذى يتوجه "للناس كافة".

* ثانيا: ملاحظات أولية حول بعض القضايا الاجتماعية والسياسية:

نحن نعنى بتعبير الإسلام السياسى "كل محاولة لإقحام الدين فى التعاملات الدنيوية للأفراد والجماعات وهو الأمر الذى ينأى بالإسلام عن كونه "كليات" دون التعرض لجزئيات الحياة وهو ما يتجسد فى العصر الحديث

فى فكرة "الدولة الدينية".

ولعل عبارة أفلتت من الشيخ حسن البنا، لعله قالها ليتهرب بها من إلحاح المطالبين إياه بوضع برنامج سياسى واقتصادى واجتماعى لجماعته، تغنينا عن الشرح المطول فى هذا الصدد..

يقول حسن البنا "يتعين علينا أن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا به الله، ولا نلون عصرنا بلون عصر لا يتفق معه. وإلى جانب هذا يعتقد الأخوان المسلمون أن الإسلام كدين عام انتظم شئون الحياة.. جاء أكمل وأشمل من أن يعرض لجزئيات هذه الحياة وخصوصا فى الأمور الدنيوية البحتة" (٩) (الخطوط لنا)

أقول إن هذه العبارة قد أفلتت من الشيخ، لأنها فى اعتقادى تخالف كل سياق دعوته للحكومة الدينية بل وتتناقض معها.. وأؤكد ذلك كى لا يتصور البعض أننى أستنطق الشيخ بغير ما نطق به. لكن هذه العبارة تكفينى ويزيد لشرح فكرتى فى رفض مقولات "الإسلام السياسى" الذى يتعين عليه بالضرورة أن يهتم بجزئيات الحياة.. وخصوصا فى الأمور الدنيوية البحتة..

* كذلك تستند هذه الدراسة إلى ضرورة التمييز بين مكونات الوعى الدينى ذاته. فالأديان باعتبارها مكون أساسى وهام من مكونات وعى الجماهير يتحدد حجم الدور الذى تلعبه فى حياة الأفراد والمجتمعات وفق متغيرات اقتصادية واجتماعية، فالعنصر الدينى يلعب دورا محدودا فى بعض المجتمعات (كالمجتمعات الأوربية مثلا) ليس لأن الحضارة الغربية حضارة كافرة، فالكنيسة الأوربية لم تزل تلعب دورا بارزا وإنما بسبب معطيات اقتصادية واجتماعية محددة..

والعكس صحيح فى لبنان مثلا فنتيجة لظروف سياسية محددة تناقص الانتماء الطبقى إلى حد كبير بينما تسيدت المشاعر الدينية والطائفية الدينية

لتجعل من نفسها محور الحياة الراهنة هناك، بل واتسمت النزعة الطائفية الدينية بتشعب ذا بعد سياسى فئوى وجغرافى.. (المعارك بين فريقين مسلمين وشيعيين هما حزب الله وجماعة أمل، والمعارك بين القوات اللبنانية والجيش اللبنانى المسيحى بقيادة ميشيل عون وهما فريقان مسيحيان مارونيان).

ولا يمكن القول بأن اللبنانيين قد أصبحوا فجأة أشد الشعوب تدينا.

فلو أخذنا نمو الحركات السياسية ذات الطابع الدينى كمعيار لنمو التوجه الدينى عامة لأخطأنا بشكل فادح ولاعتبرنا النموذج اللبنانى وهو نموذج منفر بل ومثير للاشمئزاز حيث تحول الطائفية الدينية البشر إلى أدوات قتال بلا قلب ولا حس ولا مشاعر إنسانية أو وطنية أو حتى دينية، لأعتبرنا هذا النموذج هو النموذج المرتجى والمأمول.. وهو ما لا يقول به أحد..

من هنا نصل إلى مقولة سوف تتمسك بها هذه الدراسة.. وهى ضرورة التفريق بين العنصر الإيمانى فى الدين وبين تصاعد أو هبوط نشاط جماعات الإسلام السياسى، فهما عنصران غير متلازمين بل لقد ينمو أحدهما بينما ينكمش الآخر وفق تطورات اجتماعية محددة.

* من هذه الزاوية يمكن أن نقرر أن جماعات الإسلام السياسى التى تتجه جميعا اتجاها متطرفا لا تعنى على الإطلاق أنها تمتلك جرعة إيمانية أزيد من الآخرين فالتطرف الدينى شىء يختلف عن التدين، وهو تحديدا ليس جرعة زائدة من التدين، بل هو موقف سياسى اجتماعى طبقى محدد.

ويمكن أن نسترسل فنقول إن معطيات التوجه الاجتماعى والاقتصادى لجماعات الإسلام السياسى على اختلاف أنواعها (وإن ارتدى بعضها ثيابا أكثر اعتدالا أو أكثر تطرفا) فإنها فى مجموعها جماعات سياسية تلغى المنظور الطبقى للصراع.. وتقسم البشر ليس على أساس موقفهم من العملية الانتاجية (رأسماليون وعمال، ملاك أراضى وأجراء) وإنما من منظور فكرى

ينحصر فى مدى ولاء الشخص لفكر الجماعة أو ما تبشر به..

وهى جميعا وفى الواقع العملى ترفض المعطيات الطبقية التى يمكنها أن تحرر طبقة الأجراء من استغلال الطبقات المالكة (الأرض لمن يفلحها- الملكية العامة لوسائل الإنتاج.. الخ).

وهى جميعا وفى الممارسة الواقعية ساندت وتساند نمط الإنتاج السائد ولم تر أى ضير فى استمراره بشرط أن يلتزم الجميع رأسماليين وعمالا بتعاليم الجماعة، أو ما تراه هى أنه تعاليم الدين..

نحن إذن وباختصار أمام دعوة رأسمالية لكنها ترتدى جلبابا أبيض وعمامة وتطلق لحية.. ألم نقل من البداية أننا نرفض إقحام الدين فى مجال العلاقات الاجتماعية والصراع الاجتماعى.

وهل نحتاج إلى أن نذكر بمقولة لينين السابق الإشارة إليها (لقد كان الناس وسيظلون أبدا فى حقل السياسة ضحايا ساذجة يخدعها الآخرون، ما لم يتعلموا استقراء المصالح الطبقية بين أسطر الخطب.. والمواعظ والدعاوى الدينية.)

* وهكذا فى تعاملنا مع العنصر المتطرف دينيا فإننا لا نجد فيه عنصرا أكثر تدينا، بل هو صاحب موقف سياسى واجتماعى وطبقى، لكنه موقف مشحون بحالة من التعبئة الروحية والفكرية تضع صاحبها فى قفص من نصوص تم اختيارها بعناية تفرض عليه أن يتنازل طائعا مختارا عن إرادته الخاصة وعن أفكاره الخاصة وعن مواقفه الخاصة لحساب النص أو من يمسكون بزمام النص.

فالبيعة للأمير ضرورة "من مات بدون بيعة فى عنقه فقد مات ميتة جاهلية" لكن البعض يجعل من البيعة عنصر تحكم وإحكام للقبضة.

يقول حسن البنا "الطاعة (وهى أحد أركان الدعوة) هى امتثال للأمر

وإنقاذه فورا، فى العسر واليسر والمنشط والمكرة.. ونظام الدعوة صوفى بحت من الناحية الروحية، وعسكرى بحت من الناحية العملية وشعارنا دائما أمر وطاعة من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج"(١٠) (الخطوط لنا)

ولا بد للدعوة هنا (أية دعوة من هذا النوع) أن تعوض العضو عما فقد من إرادة فهى تمنحه ما يسمى فى مفردات هذه الجماعات "بالاستعلاء بالإيمان" فهو ليس مجرد عنصر مسلوب الإرادة، ضيق الأفق، صلب الرأى، عاجز بل ورافض لأن يعمل عقله فى فحص فكر وتصرفات أو ممارسات الأمير أو الجماعة. وإنما هو أفضل من كل من هم خارج الجماعة، هو يستعلى عليهم بإيمانه، هو أقرب إلى الله وهو أكثر إيمانا.. الخ ولعل هذا يفسر النزعة العدوانية لدى هؤلاء الأعضاء إزاء الآخرين من خارج الجماعة فهو أفضل منهم وهم أحط منه، هو أكثر إيمانا وهم فى أحسن الأحوال قليلى الإيمان ومع مضى الخط على استقامته هم كفرة..

والموقف المتطرف هو موقف مستند إلى نص تم اختياره مسبقا، والالتزام هو أولا وأخيرا بالنص، فإن تعارض النص مع الواقع فالواقع خطأ والنص صحيح، لأن النص يجب أن يكون صحيحا.. دونما إدارك لأهمية ربط النص بالواقع.. ودون تذكر لقول الرسول "أنتم أدرى بشئون دنياكم" هكذا يمثل الموقف المتطرف حالة من العجز عن التعامل مع الواقع. لأن النص هو الحقيقة الأولى والأخيرة. فإن عجزت عن التعامل مع الواقع بمعطياته المتجددة، فإنك تعجز عن خوض معاركه وعن امتلاك ممكنات تغييره، ومن ثم فإن الموقف المتطرف يكمل العلاقة المفتقدة مع الواقع "بأحلام" قديمة مؤملا فى الارتداد إليها خلاصا مما هو قائم.. خاصة إذا ما كان عاجزا عن التلاؤم معه وامتلاك أدوات الصراع ضده.. إن حالة الارتداد إلى الماضى والقول بالعودة إليه كما كان "تلخص كل نتائج العجز عن التعامل مع الواقع..

ويوضح شكرى مصطفى "إمير آخر الزمان طه المصطفى شكرى" (هكذا أسمى نفسه) وأمير جماعة التكفير والهجرة كما اسمته أدوات الأعلام.. يوضح هذه المقولة قائلا "إن شرط تمكين المسلمين واستخلافهم، وإقامة دولتهم وإظهار دينهم هو الإيمان والعمل الصالح. هذا الشرط لا يمكن أن يتغير أو يتبدل من زمان إلى زمان أو من مكان إلى مكان فيكون الإيمان والعمل الصالح الذى أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه غير الإيمان والعمل الصالح فى آخر الزمان. لا يمكن"

ومن ثم فإن أمير أخر الزمان يقودنا إلى فكرة محددة "لا بد من سلوك طريق النبى وأصحابه شبرا بشبر، وذراعا بذراع لأن الله سبحانه وتعالى يبدأ الخلق ثم يعيده بصورة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول، وهى كما بدأ الإسلام يعاد الإسلام" (١١)

.. ومن هنا تأتى مقولة إنكار كل منجزات الحضارة الممتدة منذ عهد الخلفاء الراشدين وحتى يومنا، وضرورة القفز إلى الوراء كى "يعود الإسلام.. كما بدأ"

والحقيقة أنه ما من جديد فى هذه الفكرة فإذ توجد قوى اجتماعية ترفض الواقع الاجتماعى القائم وتعجز فى نفس الوقت عن التلاؤم معه، ولا تمتلك معطيات "طبقية"، لتغييره من منظور طبقى فإنها تعود إلى الوراء لتستلهم "ذكريات" و"نماذج" و"طموحات"، وقعت فى الماضى وتستدعيها للحاضر، أو بالدقة تستجمع الحاضر فى محاولة كى تعود به إلى الماضى..

ولعل ذلك قد حدث فى أكثر من بلد وفى أكثر من حالة من حالات الأزمة الثورية.. وبأكثر من صورة.

يقول ماركس عن حالة مشابهة "فى فترات الأزمات الثورية تراهم يلجأون فى وجل وسحر إلى استحضار معطيات الماضى لتخدم مقاصدهم، ويستعيرون

منها الأسماء، والأزياء، والشعارات القتالية، كى يمثلوا على مسرح التاريخ مسرحية جديدة فى هذا الرداء التنكرى الذى اكتسى بجلال القدم وبلغة قديمة مستعارة"(١٢)

.. تأملوا هذه الفقرة ألا تنطبق بشكل مذهل على دعاة الإسلام السياسى من متطرفى اليوم.. الاسماء.. يتخذونها من الماضى. كمثال: اتخذ قادة جماعة المسلمين (التكفير والهجرة) أسماء جديدة فشكرى مصطفى (أبو سعد) وماهر بكرى (أبو عبد الله) وأنور مأمون صقر (أبو مصعب) ومحمد الأمين عبد الفتاح (أبو الغوث) (١٣) والملابس اتخذت زيا جديدا أو بالدقة قديما والشعارات.. وكل شيء.

إنها حالة من الارتداد النفسى للماضى تعلن عن حالة من العجز عن التكيف مع الواقع بسبب من تعارض الواقع مع النص.

* ويترتب على ذلك ملاحظة أخرى وهى أن هذه الجماعات لا تمتلك تصورا محددا للمستقبل، فهى إذ تستعيد الأسماء والشعارات والزى والرؤية والممارسات فإنها تعتقد أن ما سيطبق من نظام اقتصادى واجتماعى (فى حالة استلامهم السلطة) هو ذات ما كان مطبقا أيام الرسول والخلفاء الراشدين، وهم لا يرهقون أنفسهم فى استجلاء تفاصيله لأن التفاصيل قد تبدو غير ملائمة للتطبيق اليوم (وهذا طبيعى تماما) كما أنهم فى أغلب الأحيان لا يمتلكون رؤية واضحة لما كان يجرى فى هذا الزمان إما بسبب نقص فى المعرفة أو بسبب اختلاف الروايات وتعارضها.. هنا نجد أنفسنا.. وبرغم القول المتشدد بتطبيق الشريعة حرفا بحرف..

والعودة للماضى كما قال شكرى مصطفى "شبرا بشبر وذراعا بذراع" نجد أنفسنا أمام نص عام.. لا يحدد بالضبط تفاصيل أو حتى عموميات نهج الدولة التى يريدونها ولا النظام الذى ينشدونه. ومن ثم فإننا نجد أنفسنا أمام

ما يمكن تسميته "بالإسلام المعلب" فإنهم يتصورون أن استلامهم السلطة يكفي وأن ثمة شريط فيديو معبأ فيه كل ما يجب أن يجرى وما يجب أن يكون.. يضعون الشريط فى الجهاز ويدور دولاب الدولة وفق ما يعتقدون..

* وثمة ملاحظة أخرى عن التكوين الثقافى المصرى، فالتعليم المصرى يمضى عبر ثلاث محاور أساسية - التعليم الحكومى (وهو دينى فى بعضه، مدنى فى أغلبه).

- التعليم الأجنبى (وهو دينى مسيحى فى بعضه، مدنى فى أغلبه) وفى بعض الحالات فهو ذو طابع غربى صرف..

- التعليم الأزهرى (وهو دينى فى أغلبه، مدنى فى بعضه)

ولا بد أن تعدد محاور التعليم هذه تخلق نوعا من الخلل فى التكوين الفكرى والثقافى لفئة المتعلمين المصريين، وإذا لاحظنا أن التعليم فى المحاور الثلاث يقوم فى الأساس على التلقين، وعدم الدعوة لإعمال الفكر، أو تنشيط العقل، ومع وجود التناقض بين مكونات الفئة المتعلمة، يمكن للفكر المتطرف القائم أساسا على التلقين النصى أن يجد لنفسه سطوة وسط هذه الفئة. حيث اعتاد الجميع أن تهبط المعرفة من أعلى.. مدرسى الفصل، أو أمير الجماعة.. سيان.

ولعل هذا يفسر انتشار ظاهرة التطرف الدينى وسط المثقفين والمهنيين.

* وإذا كانت ثورة يوليو قد أمكنها تصفية كبار الملاك العقاريين كفئة اجتماعية بقوانين الإصلاح الزراعى، وأقامت صروح القطاع العام فإنها قد خلقت فئتين اجتماعيتين تمتلكان بعض التميز وهما فلاحو الإصلاح الزراعى، وعمال القطاع العام، ولا شك أن المستوى المعيشى لهاتين الفئتين قد تحسن بعض الشىء فى سنوات نشأتهما الأولى، فإذ كانت مجانية التعليم بجميع مراحله فقد أمكن لهاتين الفئتين أن ترسلا أبنائهما إلى الجامعة ليصبحوا بعد

سنوات عدة خريجى جامعة..

فإذا وضعنا فى الاعتبار أن طموحات ثورة يوليو لم تدم طويلا، وأن فئات الطفيلية وذوى الدخول الكبيرة قد نمت سريعا فى منتصف الستينيات وما بعدها، فإن الجامعة قد أصبحت محطا لتناقضات طبقية واسعة، فأبناء العمال والفلاحين الذين لا يجدون أجر المواصلات المزدحمة يجلسون فى ذات الصف الدراسى مع أبناء وبنات الأرستقراطية المصرية الجديدة بكل بذخها وثرائها المجنون والمستفز..

ومع ضعف الحركة اليسارية وتوجهات الصراع الطبقى بسبب حل الحزب الشيوعى المصرى وبسبب فشل الاتحاد الاشتراكى فى استيعاب حركة الأحداث تواجدت بذور التمرد على الواقع دون وعى طبقى.. فأمكن تلقين الشبان مقولات الارتداد للماضى حيث العدل الكامل، والنعيم المطلق.

* ومع أحداث الجامعة فى ١٩٧٣ وحيث كان اليسار قد استعاد قوامه النضالى، وتواجد بشكل ملحوظ فى الجامعات فقد استشعر النظام ضرورة إيجاد قوة ضاغطة ومنافسة لليسار فى الجامعة، فكانت الجماعات الدينية.. ولا بد من أن نشير إلى أن ممارسات يسارية لبعض عناصر اليسار الماركسى والناصرى قد حملت جموع الطلاب أكثر مما هو مفترض.. وكانت النتيجة هى نمو تيار الإسلام السياسى المستند إلى السلطة ودعمها وحمايتها..

* ومع تصاعد الأزمة الاقتصادية والاجتماعية وتزايد الهجرة إلى بلدان النفط وهى فى الأغلب بلدان إسلامية وتمتلك واقعا اجتماعيا محافظا، فإن المهاجر إلى هناك يعود وقد تأثر بالنمط المحافظ فى الحياة اليومية بل وربما يعود وقد اقتنع برابطة ما بين حياة من هذا النمط وبين الثراء والرفاهية وحل مشكلاته الاجتماعية والاقتصادية.. إن هذه الحالة النفسية تحلق فوق صاحبها إذ يعود ويحن لأيام الهجرة، أيام تدفق الأجر العالى والدخل الوفير

والعيش المرفه..

* كذلك فإننا نعيش فى عالم تتعرض فيه الرأسمالية لمأزق وصعوبات وبطالة وتضخم، كما تتعرض فيه البلدان الاشتراكية لمأزق وأزمات واختناقات (بولندا- المجر- المانيا الديمقراطية- تشيكوسلوفاكيا.. الخ) ومن هنا تسهل المقولة الداعية إلى إسقاط الفكرة الطبقية والأنظمة الاجتماعية الطبقية باعتبار أن كلا منهما لم يحل المشكلة والداعية إلى المخرج الإسلامى..

ولا بد أن نتذكر أن نشأة أولى جماعات الإسلام السياسى الحديثة (الأخوان المسلمين) كانت فى عام ١٩٢٨ حيث اشتدت أزمة النظام الرأسمالى الاقتصادية، وحيث كانت التجربة الاشتراكية الوليدة تتعرض للأنواء.

* وعلى الصعيد المحلى فإن تداعى التجربة الناصرية وعجزها عن الاستمرار، بل وعن إيجاد مخرج حقيقى للمجتمع وانتهاء هذه التجربة بحالة من الإحباط السياسى والاقتصادى والاجتماعى، لا بد وأنه قد خلق مجالا للقول بالأخذ بتجربة جديدة هى "الإسلامية"، حيث فشلت الرأسمالية (قبل ثورة يوليو) وحيث فشل ما ادعى أنه اشتراكية..

* هناك أيضا الدخول الطفيلية والفساد والإفساد ونهب أقوات الناس بما يولده ذلك كله من ترف مبالغ فيه يرتبط باتجاه نحو تقليد المجتمعات الغربية فى المأكل والملبس والتصرفات.. ومن ثم وفى ظل نقص الوعى الطبقى يكون من السهل الربط بين الثراء الفاحش وبين المسلك الغربى الذى ربما كان مخالفا للتقاليد الاجتماعية.. ومن ثم ينمو الإحساس بمقاومة هذه الظاهرة الخارجية (التسيب الأخلاقى والاجتماعى) بظاهرة خارجية أخرى هى (التشدد الدينى والدعوة لدولة إسلامية)

* هناك كذلك خصوصية الإسلام فى مصر. فالأزهر ظل لفترة طويلة

(وبسبب عدم نضج المكونات الاجتماعية كما أشرنا سابقا) مرتكزا لنضال الشعب المصرى ضد خصومه.. وتقدم علماؤه أكثر من مرة كمدافعين عن حقوق مصر وحقوق شعبها، ومع نمو التمايز الطبقى أخذ هذا الدور فى التضاؤل وهذا طبيعى تماما، لكن البعض من مفكرى وكتاب التيار اليسارى وفى محاولة منهم لاجتذاب العناصر المتدينة إلى صف مقولاتهم، أعادوا تكرار هذه الأحداث ليس باعتبارها أحداثا وقعت فى ظروف محدودة، وإنما باعتبارها ظواهر يمكن أن تستمر وأن تتكرر، وقد عولجت هذه المحاولات فى بعض الأحيان بأسلوب مبالغ فيه انتهى بأن شجع جماعات الإسلام السياسى على توظيف هذه المقولات مؤكدة أن الإسلام وحده هو الحل.. كان كذلك فى الماضى.. وهو كذلك الآن.

* والمقولات السياسية والاجتماعية إذ ترتدى الزى الدينى فإنها تكتسب حصانة خاصة سواء بالنسبة للجماهير أو حتى بالنسبة للحكام، كما أنها يمكنها أن تتسع دائرة تأثيرها فى ظل ظروف سياسية واجتماعية محددة أعتقد أننا أشرنا إلى معطياتها فيما سبق.. الأمر الذى يدفع بالبعض إلى الانتماء إليها للاستقواء بها فى حلبة صراع سياسى ضار وحاد.. (الجناح الإسلامى فى حزب العمل- حزب الأحرار) الأمر الذى يعطى إيحاء بحجم أكبر من الحقيقة لتيار الإسلام السياسى.

* وآخر الملاحظات التمهيدية هى المسلك الشخصى لعضو جماعات الإسلام السياسى فإذا كان هذا العضو يلجأ إلى الماضى فى ملبسه ولحيته واسمه وتصرفاته، فإن ذلك برغم غرابته يعطى له مسحة من الاحترام المقترن باحترام الدين ذاته، وحتى اللغة المعقدة والألفاظ القديمة التى يستخدمونها فإنها تقع فى نفوس الناس موقع الوجل والرهبة، فإن لم يفهمها المواطن فلأنه ليس متدينا بما يكفى ولأنهم أكثر منه معرفة بالدين واقترابا إلى الله.

.. وعلى العكس من هذا فإن الدعاة السياسيين الآخرين (كاليسار مثلا) إن خاطبوا الجماهير بأسلوب مرتفع فأنها تعرض عنهم باعتبارهم مترفعين ويقولون ما لا يفهم..

هنا.. وفى هذه الخصوصية تبدو خصوصية الدين وموقف الناس العاديين منه أكثر وضوحاً.

* * *

والآن وبعد هذه الملاحظات يمكننا أن نبدأ فى موضوع البحث، ولست أعتقد أننى قد تطرقت إلى مالايلزم فلعله كان من الضرورى وضع الأفكار القادمة فى وعاء صحيح.. وقادر على أن يتعامل بموضوعية كاملة.. دونما حساسيات أو مخاوف مفروضة أو مفترضة، وعلى أساس من فهم المسببات والدوافع والمعطيات الاجتماعية والطبقية والاقتصادية والسياسية كل ذلك فى إطاره المحلى المرتبط بخصوصية الوضع المصرى.. على امتداده التاريخى..

ولن نتلكأ بك عزيزى القارىء.

فقط سنمر على محطات من الإسلام السياسى أو حتى محاولات اللجوء إلى الإسلام كأداة لتحريض الجماهير سياسيا..

وبطبيعة الحال سنبدأ بجمال الدين الأفغانى.

ها نحن فى أعلى القمة.. فالأفغانى فهم الدعوة الإسلامية فهما إيجابيا، وعلى وجه صحيح، فهى دعوة من أجل الانسان حريته وتقدمه وسعادته.. ومستقبله المرتبط بمجاراة روح العصر ومنجزات العلم الحديث.

وهو ابتداء يدعو إلى تحرير التفكير الدينى من إسار التقليد والتقيد السلفى، ويدعو إلى فتح باب الاجتهاد واسعا دون قيد.. "ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد، وأى إمام قال لا ينبغى لأحد

من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه بالدين؟ أو أن يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث، أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية، وحاجات الزمان وأحكامه"(١٤)

ويؤكد الأفغانى صراحة "والدين لا يصح أن يخالف الأفكار العلمية، فإن كان ظاهرة المخالفة وجب تأويله"(١٥) (الخطوط لنا)

ويضرب الأفغانى مثلا.. "أثبت العلم كروية الأرض ودورانها، وثبات الشمس دائرة على محورها، فهذه الحقيقة مع ما يشابهها من الحقائق العلمية لا بد أن تتوافق مع القرآن، والقرآن يجب أن يجل عن مخالفته للعلم الحقيقى، خصوصا فى الكليات. فإذا لم تر فى القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات، اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة، ورجعنا إلى التأويل، إذ لا يمكن أن تأتى العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة، وهى فى زمن التنزيل من الخلق كامنة فى الخفاء لم تخرج لحيز الوجود. ولو جاء القرآن وصرح بالسكة الحديدية والبرق وما تفعله الكهربائية من العجائب وغير ذلك لضلت الناس وأعرضت عنه وحسبته كذبا" (١٦) هل نتذكر هذه العبارة ونحن نطالع صفحات قادمة لنرى كم انحدر الأمر بأصحابه؟

وحتى فى المسائل الشائكة التى لا يحتمل دعاة التطرف فى أيامنا الراهنة مجرد سماع عنوانها دون إلقاء تهمة الكفر وبشكل حاسم. أقول حتى فى مسألة مثل "نظرية التطور والنشوء والارتقاء" "قال الأفغانى قولا عقلانيا يستحق التأمل" .. فقد سئل الأفغانى عن رأيه فى قول المعرى:

والذى حارت البرية فيه　　　حيوان مستحدث من جماد

وهل يقصد المعرى ما عناه داروين بنظرية النشوء والارتقاء؟ فقال: لا أغالى ولا أبالغ إذا قلت ليس على سطح الأرض شىء جديد بالجوهر

والأصل، أما مقصد أبى العلاء فظاهر واضح وليس فيه خفاء، فهو يقصد النشوء والارتقاء مهتديا بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب. إذ قال أبو بكر بن بشرون فى رسالته لأبى اللمع عرضا فى مبحث الكيمياء "إن التراب يستحيل نباتا والنبات يستحيل حيوانا . وأن أرفع المواليد هو الانسان (الحيوان) وهو آخر الاستحالات الثلاثة. فإذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء على هذا الأساس فالسابق فيه علماء العرب وليس داروين مع الاعتراف بفضل الرجل وثباته على تبعاته وخدمته للتاريخ الطبيعى من أكثر وجوهه." (١٧)

والفكر الصافى والمتألق، والاجتهاد الفقهى المرتبط بالواقع والمقترن بحياة الناس اليومية، وتطورات الأحداث والمكتشفات العلمية.. كان لا بد له أن يرتبط بالجماهير.. ليس فقط للتحرر من الاستعمار.. وإنما للتحرر من الاستغلال "أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما يسد الرمق، ويقوم بأود العيال، فلماذا لا تشق بها قلب ظالمك، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك" وأيضا.. "الاشتراكية وإن قل نصراؤها اليوم فلا بد أن تسود العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح، ويعرف الانسان أنه وأخاه من طين واحد ونسمة واحدة، وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من السعى لصالح المجموع. وليس بتاج أو نتاج أو مال يدخره أو كثرة خدم يستعبدها أو جيوش يحشدها أو غير ذلك من عمل باطل أو مجد زائل وسيرة تبقى معرة لأخر الزمان" (١٨)

. وهكذا نقف فى القمة لنطالع اجتهادات مفكر إسلامى مستنير.. لكننا نضطر كى نتابع دراستنا أن نهبط خطوة خطوة..

فعندما طرد الأفغانى من مصر وهلع أنصاره من افتقاد الزعيم قال لهم فى حسم "حسبكم محمد عبده، حسبكم محمد عبده من وصى أمين"

وهكذا قدم الأفغانى هديته لمصر.. محمد عبده الذى ارتقى فى سلم الجهاد حتى أصبح مفتى الديار المصرية "فى زمن كانت تقف فيه مصر فى مفترق طرق حقيقى فالمدينة الحديثة ورياح الغرب تهب سريعا بل ومتعجلة والمصريون فى حيرة يسألون أنفسهم مع كل جديد قادم.. أحلال أم حرام.

البنوك، التأمين، التصوير الفوتوغرافى، الاستماع للراديو، استخدام مستحدثات العلم ومخترعاته؟.. وبذهن متفتح يدرك أن الدين يسر ولا عسر أفتى محمد عبده بما أراح الناس وبما دفع مصر قدما باتجاه التطور..

ولقد كان بإمكان محمد عبده وهو "مفتى الديار" وهو "الأستاذ الإمام" أن يدعى لنفسه منزلة خاصة لكنه لم يفعل ما يفعله شبان صغار فى أيامنا هذه يدعون "الإمارة" و "الخلافة" ويلقب كل منهم نفسه بأمير المؤمنين، وينصبون أنفسهم كهانا ويمنحون أنفسهم سلطانا على الناس..

لكن الأستاذ الإمام يأبى، بل هو يسد الطريق ويحسم "ليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير، والتنفير من الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها أدناهم"

وهو إذ يزور أوربا وينبهر بما فيها من منجزات بل وسلوكيات وأخلاقيات يقول قولا مختصرا لكنه يحمل معنى كبيرا "الكفره يتصرفون كمسلمين بينما يتصرف المسلمون وكأنهم كفرة."

ويتمسك الأستاذ الإمام بالعقل والعلم "فالمسلم الحق هو الذى يعتمد على العقل فى شئون الدنيا والدين"(١٩) وأيضا "لا يجوز أن يقام الدين حاجزا بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات.. بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان، مطالبا لها باحترام البرهان، فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من جهد فى معرفة ما بين يديها

من العوالم"(٢٠)

لكن الشيخ لم يكن كأستاذه فى ربط العقل والعلم والتجديد بمعارك الناس اليومية، ولعله استلم القياد فى أيام صعبة، تتطلب حسما ثوريا لم يستطع الشيخ أن يفعله..

ولعله فزع من "تطرف" العرابيين وحماسهم سواء ضد الخديوى أو تطرفهم وحماسهم لصالح الجماهير.. فهو يعلن بصراحة أنه انتقد حكومة رياض ومسلك الخديوى توفيق "لكننى كنت ضد الثورة، كنت أعتقد أنه يكفى جدا أن نحصل على دستور خلال خمس سنوات، وكنت أعارض أسلوب طرد رياض باشا ومظاهرة عرابى فى عابدين، وكان سليمان باشا أباظة والشريعى باشا يؤيدانى ضد الثورة، لكننا كنا نطالب بالدستور" (٢١)

لكن الثورة تندلع وتنحاز للجماهير ويتمسك محمد عبده بموقفه، بل ويلقى خطابا أمام قادة الثورة يقول فيه "إنه لم يعهد فى أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس، وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم فى ذلك.. فهل بلغت بكم الفضيلة حدا لم يبلغ إليه أحد من العالمين، حتى رضيتم واخترتم عن رؤية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم فى جاهكم ومجدكم وتتساووا بالصعاليك حبا بالعدالة والإنسانية؟ أم أنكم تسيرون إلى حيث لا تدرون وتعلمون ما لا تعملون"(٢٢).

.. ولعل الأمر يتضح بمراجعة ملاحظاتنا السابقة، لقد أفلت الزمام من الشيخ. والجماهير التى كانت بلا وعى اجتماعى اكتسبت وعيا وطنيا واجتماعيا واضحا.. ولم يعد للشيخ ذات المكان السابق، فشعر بالعزلة عن الواقع، واصطدم به.. وارتد خطوة إلى الوراء..

ويكتب الشيخ إلى أستاذه معبرا عن عزلة قاتلة عما يجرى "كنت أظن أن

قدرتى غير محدودة، ومكنتى لا متبوتة ولا مقدودة، فإذا أنا من الأيام كل يوم فى شأن جديد، تناولت القلم لأقدم إليك من روحى ما أنت به أعلم، فلم أجد من نفسى سوى الأفكل (المرتعش)، والقلب الأشل، واليد المرتعشة، والفرائص المرتعدة والفكر الذاهب، والعقل الغائب"(٢٣).

ويرد الأفغانى على تلميذه معنفا وقائلا "إنما أنت مثبط"

* * *

ويرحل الأستاذ الإمام.. ويأتى من بعده خليفته محمد رشيد رضا، ونكتشف أننا نهبط الدرج خطوة أخرى.

فرشيد رضا كان من تلاميذ الإمام الذين اعتقدوا "أنه قد قدم تنازلات غير ضرورية لصالح المدينة والتطور الحديث"(٢٤)

ومع ذلك يبقى عبق الإمام وتعاليمه فى مواقف وكتابات رشيد رضا..

فهو يكتب فى مقدمة العدد الأول من المنار "أيها الشرقى المستغرق فى منامه، المبتهج بلذيذ أحلامه حسبك حسبك فقد تجاوزت بنومك حد الراحة، وكاد يكون إغماء أو موتا زؤاما، تنبه من رقادك وامسح النوم عن عينيك، وانظر إلى العالم الجديد، فقد بدلت الأرض غير الأرض.. إعلم أن هذا العصر عصر العلم والعمل فمن علم وعمل ساد، ومن جهل وكسل باد"

والعلم يمثل مسألة مهمة للغاية فى فكر رشيد رضا.. كذلك الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين.. ويروى رشيد رضا عن زياراته لبيروت فيقول إنه أسهم مع فضلائها "فى إنشاء مدارس لتعليم جميع الطوائف وتربيتهم على الوحدة الوطنية أو نحو ذلك. ولا بد أن يكون فضلاء النصارى متفقين معهم على ذلك.. وإنما جعلت مشاركة النصارى لهم من قبيل الاستنباط العقلى"(٢٦)

وهو يمتدح أهل بيروت "رأيت مسلمى بيروت مستعدين لقبول كل إصلاح

ديني ومدني، ورأيت فيهم نفرا من أهل الغيرة الملية والميل للأعمال التى تنهض بالأمة، وترقى شأن البلاد"

.. والعلم عند رشيد رضا هو العلم الحديث وليس غيره، فهو يتحدث عن زياراته لطرابلس قائلا "ذلك بأن مسلمي طرابلس أكثر من أهل بيروت اشتغالا بدرس كتب الفنون العربية والعلوم الإسلامية التى وضعت منذ القرون الوسطى بعد انحطاط مدنية المسلمين وضعفهم فى العلوم وهى مما يضعف الاستعداد، لأنه يشغل الفطرة، ولا يكملها فيكون عائقا لها عما سواه"

.. "ومن الأسباب فى ذلك قلة احتكاك أهل طرابلس بمن هم أرقى منهم فى العلوم والأعمال من الأجانب والعثمانيين فإن طرابلس أصبحت كأنها بمعزل عن العالم المدنى، لا يهاجر إليها المرتقون فى العلوم"(٢٧) ولكن رشيد رضا لم يأخذ بكل ما قاله إمامه، فإذا كان الأستاذ الإمام قد خاض معركة "التجديد" ضد دعاة "التقليد" فإن رشيد رضا يأخذ من دعوة التجديد أضيق جوانبها، ويشن هجماته ضد من أسماهم "دعاة التفرنج" متراجعا حتى عن بعض ما دعا إليه فى أيامه الأولى، فهو يعلن "أنه من الجنون أن نسعى إلى انتزاع مقومات الأمة الإسلامية الدينية والتاريخية، واستبدال مقومات أمة أخرى ومشخصاتها بها "وانتهى به المطاف إلى الدعوة للخلافة الإسلامية "فهى الحكومة المثلى التى بدونها لا يمكن أن تتحسن حال البشرية والدولة الإسلامية الأصيلة هى خير الدول فهى وسط بين الجمود وبين حضارة الإفرنج، تلك الحضارة المادية التى تفتك بها ميكروبات الفساد، وأوبئة الهلاك فهى عرضة للزوال"(٢٨).

ثم خطوة أخرى إلى الوراء.. فإذا كان الأفغانى يدعو لحرية المواطن ويشن هجوما عنيفا ضد الحكام الطغاة، وإذا كان محمد عبده قد سكت عن هذه القضية أو اتخذ إزاءها موقفا معتدلا فإن رشيد رضا يدعو للولاء المطلق

والسيادة المطلقة "لولى الأمر الذى أمر الله بطاعته"(٢٩)

لكننا لا بد لنا قبل أن نترك الشيخ رشيد رضا أن نشير إلى موقفه من قضية هامة.. وهى موقفه من مسألة الحجاب.. فهو يتحدث عن دور بعض العناصر المستنيرة فى بيروت فى محاولات تعليم المرأة والسير بها فى ركاب الحضارة "بل كانوا يرون أن نساء المسلمين لا بد وأن يتركن الحجاب، ويجارين غيرهن من نساء الملل فى الحضارة العصرية، وأن الخير لنا أن نبنى ذلك على أساس متين، أى جامع بين مصلحة الدنيا وصلاح الدين"(٣٠)

هكذا نجد المواقف غير متكاملة، فالنظرة الشاملة للاستنارة تفتقد، ونحل محلها بقع مضيئة هنا أو هناك لكنها بقع تكتسب تألقا مميزا وشجاعا..

وعلى أية حال لقد أجبرنا الشيخ رشيد رضا على أن نهبط معه خطوة أخرى.

* * *

"نحن سلفيون من أتباع الشيخ رشيد رضا"

هكذا أكد الشيخ حسن البنا.

نحن الآن مع كبرى جماعات الإسلام السياسى.. وأمام المؤسس الحقيقى لفكرة الإسلام السياسى فى العصر الحديث.

عام ١٩٢٨ هو عام الأزمة الاقتصادية العالمية، عام إشهار إفلاس أولى للنموذج الرأسمالى، بينما كان النموذج الاشتراكى الوحيد يتعثر، ويكون ملائما أن يوجه حسن البنا الأفكار نحو "الحل الإسلامى"

"نحن سلفيون من أتباع الشيخ رشيد رضا "هكذا قال البنا، ويتباهى البنا بأن رشيد رضا كان على وشك الانضمام للأخوان المسلمين قبيل وفاته.

لكن البنا كان امتدادا أشد "سلفية" "من التلميذ السلفى" للشيخ محمد عبده..

وهكذا نكتشف دائما أن هناك خطوة إلى الوراء.

وإذا كان رشيد رضا يدعو للانفتاح على العلم الحديث وحتى على حضارة الغرب فإن البنا كان يرفض كل الحضارة الغربية باعتبارها حضارة "نصرانية" و"كافرة"، بل ويرفض التعليم الحديث والمدارس الحديثة (التى عمل هو نفسه مدرسا فيها) قائلا إنها مدارس "مبتدعة" وأن الأبناء "يخرجون منها وقد تسممت عقولهم بالأراء الإلحادية وشبوا على التقليد والإباحية"

وهو يهاجم المدنية الغربية قائلا "وأعتقد أن قومي- بحكم الأدوار السياسية التى اجتازوها، والمؤثرات الاجتماعية التى مرت بهم، وبتأثير المدنية الغربية، والشبه الأوربية، والفلسفة المادية، والتقليد الأفرنجي بعدوا عن مقاصد دينهم، ومرامى كتابهم، ونسوا مجد ابائهم، وآثار أسلافهم، والتبس عليهم هذا الدين الصحيح بما نسب إليه ظلما وجهلا"(٣١)

وقد بنى حسن البنا جماعته على أساس من فكرة "البيعة" وقد فهم البيعة على أساس أنها تنازل عن الإرادة الذاتية للعضو، يقدمه طائعا مختارا "للمرشد"، مقابل أن يتحمل عنه المرشد المسئولية أمام ربه.. فأول بيعة فى جماعة الأخوان المسلمين تمت بين المؤسسين الستة.. الذين خاطبوا حسن البنا قائلين "إننا لا نستطيع أن ندرك الطريق إلى العمل كما تدرك، أو نتعرف السبيل إلى خدمة الوطن والدين والأمة كما تعرف وكل الذى نريده الآن أن نقدم لك ما نملك لنبرأ من التبعة أمام الله، وتكون أنت المسئول بين يديه عنا وعما يجب أن نعمل"(٣٢) (الخطوط لنا)

وهكذا كتب أحد قادة الأخوان إلى المرشد قائلا "إن من حقك علينا الطاعة، على هذا بايعنا وعاهدنا، ولنا فيك الثقة الكاملة وعندك الطمأنينة الشاملة"(٣٣)

.. ونقترب أكثر من فهم أساليب الدعوة فالشيخ يتعمد إن يعمق الانتماء

السلفى لعضويته.. ويروى كيف أن أحدهم قد نصحه قائلا "يا أخى سَم، فأقول وما اسمى.. فيقول سم اخوانك وأصحابك ومنشآتك قل لهذا أنك تشبه أبا بكر ولهذا أنك تشبه عمر فإن هذا يبعث فيهم الحمية وسم منشآتك معهد حراء للبنين مدرسة أمهات المؤمنين، نادى الخندق"(٣٤)

ولقد تعمد الشيخ البنا أن يميز بين عضويته وبين بقية الناس، وكان أول من أشار إلى تميز أتباع الإسلام السياسى بأسماء وأزياء متميزة، فعندما أنشأ أول مدرسة.. "أطلقنا عليها اسما إسلاميا هو معهد حراء الإسلامى، واشترطنا للتلاميذ زيا خاصا: هو جلباب ومعطف من نسيج وطنى، وطربوش أبيض.. وصندل، وكانت مواعيد الدراسة مخالفة لمثلها فى المدارس"(٣٥) (الخطوط لنا)

كثيرة هىَ الكتب والمعلومات التى كتبت عن جماعة الأخوان المسلمين، لكننى تلمست هذه التفاصيل عن.. البيعة التامة والخضوع المطلق للمرشد، التسمية بأسماء سلفية إثارة للحمية، الزىَ الخاص والتميز عن المجتمع كلما أمكن حتى فى مواعيد الدراسة..

... هذه العلامات الثلاث نسجها البنا فى بداية دعوته عندما كانت جماعتهَ لم تزل ضعيفة وكان يريد أن يبث فى نفوس أتباعه روح "الاستقواء" بالنزعة السلفية، و"الاستعلاء" بالتميز عن غيرهم وعندما قويت الجماعة لم يعد البنا بحاجة إلى هذا الاستقواء السلفى أو الاستعلاء المظهرى..

ولكن.. تبقى الفكرة لتكررها جماعات الإسلام السياسى الجديدة.. ذات الفكرة بأبعادها الثلاثة.. هل فى الأمر مصادفة؟ أم أنه منهج واحد.

ونعود بعد هذه الملاحظة إلى الشيخ والجماعة. ولنتحدث الآن عن موقفهما من الحكم..

* الإسلام دين ودولة، عبادة وقيادة، مصحف وسيف لا ينفك أحدهما عن

الآخر"

* الدين شيء والسياسة غيره.. دعوى نحاربها بكل سلاح."

* الإسلام الذى يؤمن به الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركنا من أركانه، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد،.. والحكم معدود فى كتبنا الفقهية من العقائد والأصول لا من الفقهيات والفروع."

* "أتحسب أن المسلم الذى يرضى بحياتنا اليوم ويتفرغ للعبادة ويترك الدنيا والسياسة للعجزة والآثمين والدخلاء والمستعمرين يسمى مسلما؟ كلا إنه ليس بمسلم فحقيقة الإسلام جهاد وعمل ودين ودولة"(٣٦) (الخطوط لنا)

وليأذن لى القارىء أن أتوقف عند عبارة كلا إنه ليس بمسلم.. حتى هذا الذى يتفرغ للعبادة دون أن يخوض معركة الإسلام السياسى ليس بمسلم.. أليست هى بذرة التكفير التى أطلت بشكل سافر فى جماعات الإسلام السياسى الحديثة..

.. إلى هنا ونحن نجد أن جماعة الأخوان "تسير خطوات إلى الوراء، ونجد أنها أيضا المصدر والمنبع للفكر المتطرف الموجود فى ساحة العمل السياسى اليوم.

لكن الشيخ لم يكن فى بساطة دعاة الإسلام السياسى اليوم، كان يتلاعب بالمواقف والألفاظ ليحاول أن يمر بجماعته وأن يستقوى بجهازه السرى إلى أن يحين الحين..

والبنا لم يكن يغلق الباب أبدا على نفسه أو على دعوته، وكان دوما يترك لنفسه مخرجا.. خاصة عندما يتحدث عن الجماعة وأهدافها..

.."هل نحن طريقة صوفية، جمعية خيرية، مؤسسة اجتماعية، حزب سياسى، نحن دعوة القرآن الحق الشاملة الجامعة.. نحن نجمع بين كل خير"(٣٧)

لكنه لا يلبث أن يقول "إن الأخوان دعوة سلفية، طريقة صوفية، هيئة سياسية، جماعة رياضية، رابطة عملية، جمعية ثقافية، شركة اقتصادية، فكرة اجتماعية"(٣٨)

ولكن متى يمكنك أن تمسك بالزئبق، فإن الشيخ لا يلبث يسير بالكلمات ذات الكلمات فى اتجاه عكسى "يا أيها الأخوان، لستم جمعية خيرية، ولا حزبا سياسيا، ولا هيئة موضوعية الأغراض محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد، ونور جديد، وصوت داو"(٣٩)

هل يمكنك أن تمسك بكلمات من نوع روح جديد.. نور جديد.. صوت داو.

هنا يختلف أمير "جماعة الأخوان" عن أمراء الجماعات الجديدة فهو أكثر مراوغة، وهو يؤمل فى البقاء لأطول فترة، حتى "يستقوى" بالمزيد من الأعضاء والعتاد.. والجهاز السرى..

وقد اتخذت المراوغة السياسية لحسن البنا شكلين أساسيين.. إقناع أحزاب الأقلية بأنه القوة القادرة على مواجهة الوفد، والتقرب إلى الملك ومحاولة إلباسه ثوب خليفة المسلمين..

.." أن ٣٠٠ مليون مسلم فى العالم تهفوا أرواحهم إلى الملك الفاضل الذى يبايعهم على أن يكون حاميا للمصحف، فيبايعونه على أن يموتوا بين يديه جنودا للمصحف. وأكبر الظن أن الله قد اختار لهذه الهداية العامة الفاروق، فعلى بركة الله يا جلالة الملك ومن ورائك أخلص جنودك"(٤٠)

.."وإن لنا فى جلالة الملك أيده الله أملا محققا"(٤١) بل لقد اسمت جريدتهم ديوان الملك بالديوان الملكى الإسلامى"(٤٢)

وفى يوم اعتلاء فاروق العرش تتوجه مواكب جوالة الأخوان إلى قصر عابدين "لتبايع الفاروق على كتاب الله وسنة رسوله".. الأمر "الذى منحها

هى والجماعة مساندة السراى"(٤٣)

وكان طبيعيا بعد ذلك أن تصدر وزارة محمد محمود باشا فى عام ١٩٣٨ قانونا بإلغاء التشكيلات شبه العسكرية (القمصان الخضراء- مصر الفتاة، القمصان الزرقاء- الوفد) ويستثنى من قرار الحل جوالة الأخوان المسلمين.(٤٤)

وقد كان الأخوان المسلمون سنداً لأحزاب الأقلية ضد حزب الأغلبية البرلمانية (الوفد).. ولم يجدوا غضاضة فى مساندة أردأ الحكام أمثال إسماعيل صدقى مستندين إلى الآية القرآنية "واذكر فى الكتاب اسماعيلا أنه كان صادق الوعد وكان صديقا نبيا" بل وساندوا معاهدة صدقى- بيفن وشبهوها بصلح الحديبية. .

وكان طبيعيا بعد ذلك كله أن تنعم الجماعة ولفترة طويلة بمساندة السلطة ودعمها..

ففى ٢٤ مايو ١٩٣٧ يقرر مجلس مديرية الدقهلية منح شعبه الأخوان المسلمين بالمنصورة إعانة سنوية (٤٥) ثم تتوالى المعونات ويكون أكثرها فى عهد حكومة الطاغية صدقى مثل "ترخيص بإصدار صحيفة يومية فى مايو ١٩٤٦، وامتيازات فى شراء ورق الطباعة بالأسعار الرسمية، وتسهيلات خاصة بالجوالة تتمثل فى تخفيض سعر زيها الرسمى، وحرية استخدام المعسكرات، ومنح قطع من الأرض لإقامة المعسكرات.. كما ضمت الحكومة محمد حسن العشماوى كوزير للمعارف وهو معروف بميوله الدينية، كذلك تمتعت الجماعة ببعض المساعدات غير المباشرة من وزارتى التعليم والشئون الاجتماعية"(٤٦)

لكن كل ذلك لا يجدى..

فالشيخ ما أن يستشعر قدرا من القوة حتى يكشف الستار عن دعوة

"الجهاد" ويبدأ السلاح والمفرقعات والاغتيالات كأدوات لتعبير الجماعة عن مواقفها.

.. وتحل الجماعة، ويحاصر الشيخ فيتراجع تراجعا غير معقول ويصدر بيانا يتهم فيه أخلص رجاله الذين وصفهم يوما بأنهم "رهبان الليل وفرسان النهار" يتهمهم بأنهم "ليسوا أخوانا وليسوا مسلمين"..

ويقتل البنا.. يقتله أتباع للقصر الملكى الذى أنهك البنا نفسه وفكره وجماعته تملقا له.

ولكن هل تثمر المراوغة.. ففى عام ١٩٥١ يتوجه قادة جماعة الأخوان ومنهم أقرب المقربين من حسن البنا إلى قصر عابدين ليعربوا لقاتل إمامهم.. عن كامل ولائهم..

وقبل أن نستطرد نود فقط أن نسجل، أنه إذا كانت ثمار الجماعة الأولى "البيعة- المسميات السلفية، التميز الظاهرى عن المجتمع، قد تركت انعكاسها بشكل أكثر وضوحا على جماعات الإسلام السياسى الحديثة بسبب عزلتها أكثر فأكثر عن المعطيات الواقعية للمجتمع الحديث، وبسبب عدم قدرتها على التعايش (الظاهرى) مع المجتمع كما فعل البنا، فإن درس المراوغة قد أثمر أيضا.. كما سنرى فيما بعد من تشدد الجماعات ومن رفضها لأية مساومة للسلطة.. فقد رأوا كيف انتهت المراوغة بصاحبها..

لكن الدرس لم يكن مباشرا.. فقد احتاجت جماعات الإسلام السياسى إلى تجربة أكثر مرارة من تجربة البنا هى تجربة شكرى مصطفى..

وشكرى مصطفى هو عضو بجماعة الأخوان، تتلمذ على تعاليم سيد قطب الذى سئم سياسة المداهنة التى اتبعتها جماعة الأخوان، سعيا وراء "الاستقواء" أى تجميع مصادر القوة ثم "التبوء" أى الاستيلاء على السلطة السياسية..

سيد قطب سئم هذه المداهنة وقرر أنه لا مساومة مع المجتمع الجاهلى بحكامه ومحكوميه.

وسيد قطب هو مفكر فترة الارتداد الأخوانى، بعد المحنة الثانية (١٩٥٤) حيث استطالت فترة السجن لأمد طويل. (فالمحنة الأولى) لم تستمر طويلا من نهاية ١٩٤٨ وحتى ١٩٥٠ بالنسبة للمعتقلين ثم حتى ١٩٥٢ بالنسبة للمسجونين)..

أما مسجونى ومعتقلى عهد عبد الناصر فإن السنوات تراكمت أمامهم بلا أمل حقيقى، ثم جاء عبد الناصر ليصعد بأسهمه مستجمعا نفوذا جماهيريا (مصريا وعربيا وإسلاميا) لم يسبق له مثيل بحيث تضاءل أمامه نفوذ أية قوة سياسية أخرى منافسة كانت أم مناوئة أم صديقة..

أمام هذا النفوذ الجماهيرى الطاغى تحتم أن يكون الانزواء (ولو مؤقتا) هو مصير القوى السياسية التى عارضت حكم عبد الناصر.. وهى تحديدا الشيوعيون والأخوان..

ولقد اختار الشيوعيون طريق الانحناء أمام الجماهير، وقرروا (أوفى تحليل آخر تصوروا) أنهم بتأييدهم (وأحيانا تضاف كلمة المطلق وغير المشروط) لعبد الناصر فإنما يخضعون لاختيار وإرادة الجماهير.

أما سيد قطب فقد اختار طريقا يرفض كل ما هو قائم، فهو جاهلى، معاد للاستعمار كان أم عميلا له هو جاهلى، مع الاشتراكية أم ضدها هو جاهلى، مع الديمقراطية أو الديكتاتورية.. هو جاهلى.. فرفض النظام من جذوره أيا كانت الأفرع والأوراق والثمار.

واستتبع ذلك موقفان: الأول تكفير الحاكم والثانى: الاستعلاء بالإيمان..

وتكفير الحاكم ينبع من كون نظامه جاهلى ولا يحكم بما أنزل الله، وإذ كانت الجماهير (وهى عموم المسلمين) تؤيد الحاكم الكافر وتساند حكمه

فنحن رغم قلة عددنا أفضل وأكثر أهمية بل وأقوى لأننا أقرب إلى الله.

"وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بأمر الله".

.. ويلخص ذلك كله في كلمة الاستعلاء بالإيمان..

ويذهب سيد قطب ضحية لكتابه "معالم على الطريق" وتكون المحنة الثالثة (١٩٦٥)..

ومن داخل سجن طره يظهر بين سجناء الأخوان هناك تلميذ بارز لسيد قطب هو شكرى مصطفى. ولم يكن شكرى مصطفى سوى تكرار لذات الظاهرة..

لقد هبط سيد قطب السلم.. انخفض مرحلة أو مراحل في طريق التطرف.. ومد شكرى مصطفى الخط على استقامته إلى أسفل..

.. وسأل شكرى مصطفى نفسه.. هل لنا ولاية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ هل نحن "أهل الحل والعقد" "هل مرشدنا هو ولى الأمر بحيث يكون له السمع والطاعة".

وكانت الإجابات ببساطة.. لا

لماذا لأن جماعة الأخوان أعلنت نفسها "جماعة من المسلمين" هم أكثر تقوى، وأكثر إيمانا، ويدعون لدولة مسلمة وحاكم مسلم وتطبيق الشريعة لكنهم مجرد مجموعة من المسلمين.. وليسوا "جماعة المسلمين" "أهل الحل والعقد".. "ولاة الأمر في الإسلام"

والخلاف حول إضافة "من" أو حذفها ليس خلافا بسيطا، أنه يمثل الجوهر في الفكرة كلها. فإذ أعلن شكرى مصطفى تكوين "الجماعة المسلمة" ونصب نفسه (أو بايعه اتباعه أميرا لها).. هو إذا أمير جماعة المسلمين.. ومن ثم سهل عليه أن يطلق على نفسه "طه المصطفى شكرى"، أمير المؤمنين، أمير آخر الزمان ووارث الأرض ومن عليها"

.. الخط يبدو أنه مستقيم إلى أسفل.. هبوطاً بل ومزيداً من الهبوط..

ونسأل ما هو الفارق الذى أضافته عملية حذف "من".. وإضافة تصور شكرى مصطفى أنه أمير جماعة المسلمين؟ "ما يميز جماعة المسلمين عن الجماعات الإسلامية الأخرى هو أن الجماعة المسلمة ترى:

× أن كل المجتمعات القائمة مجتمعات جاهلية وكافرة قطعا.

× إننا نرفض ما يأخذون من أقوال الأئمة والإجماع وسائر ما تسميه الأصنام الأخرى كالقياس.

× أن الالتزام بجماعة المسلمين ركن أساسى كى يكون المسلم مسلما ونرفض ما ابتدعوه من تقاليد، وما رخصوا لأنفسهم فيه، وقد أسلموا أنفسهم إلى الطاغوت وهو الحكم بغير ما أنزل الله واعتبروا كل من ينطق بالشهادتين مسلما.

× أن الإسلام ليس بالتلفظ بالشهادتين، ولكنه إقرار وعمل، ومن هنا كان المسلم الذى يفارق جماعة المسلمين كافرا.

× الإسلام الحق هو الذى تتبناه "جماعة المسلمين" وهو ما كان عليه الرسول "صلعم" وصحابته وعهد الخلافة الراشدة فقط، وبعد هذا لم يكن ثمة إسلام صحيح على وجه الأرض حتى الآن. (٤٦) (الخطوط لنا).

وفى ذلك الحين كانت تتواجد جماعة أخرى هى امتداد لحزب التحرير الإسلامى.. أسميت جماعة "صالح سرية" وقد تركز الخلاف بين الجماعتين حول مسألتين.

يقول صالح سرية "لا جهاد إلا بوجود خليفة للمسلمين" ويقول "بعدم شرعية بناء المساجد وإصلاحها لأنها تكون عتادا للدولة الكافرة".

وانتهت جماعة صالح سرية سريعا بعد أحداث الفنية العسكرية التى انتهت بإعدامه وعدد من أتباعه وتفكيك منظمته وبقى شكرى مصطفى

ليواصل المزيد من التطرف، لسبب بسيط وهو أنه قد رفض المجتمع حكاما ومحكومين، حكم بكفرهم حكاما ومحكومين، وأفتى بعدم إسلامهم وأن نطقوا الشهادتين.. ومن ثم إزداد عزلة.. وازداد لجوءا إلى النص والتمسك به في مواجهة كل واقع مهما كان ساطعا..

ولكن لم نتكلم نحن.. وللرجل كلماته ومواقفه..

والوثيقة التى سنقتبس منها الآن هى واحد من أهم كتب شكرى مصطفى وهو المخصص كى يدرسه "أمراء المجموعات" أى الكوادر الأساسية للجماعة.. واسمه "التوسمات"

والكتاب مخطوط لسبب بسيط وهو أن شكرى فى حمى تكفيره للمجتمع اعتبر كل منجزات المدنية الحديثة "متاعاً كافراً" فالمطبعة متاع كافر لا يجوز استخدامه..

.. على أية حال المخطوط تحت أيدينا، فلنحاول الإشارة إلى بعض قليل مما يحتويه.. (٤٨) سنستعرض الآن بعض فقرات الكتاب دون تعليق.

وبعد بسم الله الرحمن الرحيم تكون البداية كما يلى: "أن كل شىء خلقناه بقدر. تساوى ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون. والخلاصة العملية لإقامة دولة الإسلام تبنى وتقوم على أمرين:

١) تدمير الكافرين. ٢) توريث المؤمنين الأرض من بعدهم.

.. "أن توريث المؤمنين الأرض حق ثابت لا يتغير وسنة ثابتة لا تتحول ولذلك جعلها الله وعدا منه"

.. "كما بدأنا أول الخلق نعيده"

وهنا يتوقف شكرى مصطفى ليمسك بكلمة "كما".. وكما تعنى "مثل" "كما استخلف الذين من قبلهم" وفى الحديث "سيعود الإسلام غريبا كما

بدأ"

والمثلية عند شكرى كاملة ومطلقة، فكما هلك الكفار القدامى سيهلك الكفار الجدد وسيعود الإسلام كما كان أيام الرسول، مثله، مثله بشكل مطلق، "كما بدأنا أول الخلق نعيده"

وهكذا سيعود الإسلام كما كان تماما أو كما قال شكرى "شبرا بشبر وذراعا بذراع".

ويواصل شكرى مصطفى..

"لكن الرسول لم يقم للإسلام دولة إلا بعد الهجرة.. فهل علينا نحن جماعة آخر الزمان أن نهاجر تأسيا بالرسول حتى نقيم للإسلام دولة، والإجابة نعم.. لا بد من الهجرة.. لا إسلام ودولة تقام له إلا بعد الهجرة"

ثم يضيف حجة أخرى "وما من رسول إلا وهاجر" (لاحظ هنا كلمة رسول فهل كان شكرى يقارن نفسه بالرسل) وثمة حجج أخرى "أن غاية الوجود الإنسانى هى عبادة الله ومن ثم الحصول على رضوانه وعبادة الله لو قسمناها تقسيما للإيضاح والبيان تتمثل فى:

١- أن ينجو الإنسان بنفسه أولا من الفتنة، فتنة السقوط فى الشرك، وفتنة التعرض للرجم والتعذيب من قبل الكفرة.

٢- إحداث البلاغ الكامل الشامل على مستوى الأرض.

٣- الجهاد فى سبيل الله لتقام دولة الإسلام.

وهذه العبادة بأقسامها الثلاثة لا يستطيع الإنسان أن يؤديها إلا فى المجتمع المسلم الذى عن طريقه سيتحاكم إلى شرع الله فى كل أموره، ولكن هذا المجتمع لا يوجد، فأصبح وجوده ضرورة لعبادة الله، لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وحجج أخرى "الجهاد فى سبيل الله لم يفرض على المسلمين إلا بعد الهجرة" و"الإذن بالقتال لم يأت إلا فى المدينة بعد الهجرة".

كذلك "فإن هلاك الكفار وتدمير دولتهم لا يأتى وهناك مؤمنين فى وسطهم، السنة أن يخرج المسلمون من أرض الكفر ولا يبقى إلا الكافرون.. حين ذلك ينزل العذاب عليهم"

.. تكفير الناس جميعا إذا لم ينضموا إلى جماعته، وضرورة الهجرة.. من هنا أطلق على اسم الجماعة "التكفير والهجرة" لكن اسمها الحقيقى هو "الجماعة المسلمة".

وبعد الهجرة الجهاد.. ويستند فى تحديد شكل الجهاد إلى الآية الكريمة "بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق" ويعلق شكرى "أن الله لم يضع الحق على الباطل.. بل يقذفه.. أى بقوة وبشدة"

ثم "فإذا هو زاهق" أى أن تكافؤ القوة ليس ضروريا، ذلك أنه يكفى أن يقذف الحق بنفسه على الباطل مهما كان الباطل أقوى وأعتى وأكثر تسليحا.. "فإذا هو زاهق".

ويحدد شكرى أسلوب الجهاد وأسلحته مستندا إلى النص الحرفى وإلى التفسير الحرفى للنص "الضابط فى ذلك هو أن ما جاء بنص عام يبين أن هذا الأمر من دين الله، وأنه من أعمال المسلمين وأنه لا يكون إيمان بغيره، إذا جاءت النصوص بهذه الصورة فحينئذ يلزمنا الاتباع.. فمثلا عندما يقول الله سبحانه وتعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم فهذا خطاب موجه للمؤمنين فى أول الزمان وفى آخر الزمان، والقوة هى الرمى، والخيل هى الخيل فإذا جاء من يقول أن الخيل لا تصلح الآن فنقول.. عندما نقاتل سيكون قتالنا بالسيف والرمى وبالخيل"

فكيف تواجه الخيل الدبابات والطائرات والصواريخ والقنابل الذرية يجيب ببساطة "وكان حقا علينا نصر المؤمنين".

ويمضى شكرى مصطفى ليكمل تضييق الحلقة "لا إجماع ولا قياس ولا

مصالح مرسلة، ولا رأى صحابى ولا.. ولا، قال الله وقال الرسول وحسب.. هكذا كانت جماعة محمد (صلعم) تنهل نهلا مباشرا من كلام الله وكلام الرسول (صلعم) وجماعة آخر الزمان لا بد وأن تسلك نفس الطريق"

الكتاب والسنة فقط وكل ما بعدهما مرفوض وليس من الإسلام، حتى العلم، والتعلم مرفوض لأن "جماعة محمد (صلعم) كانت لا تتعلم لمجرد العلم ولا تتعلمه للدنيا ولكن للعبادة".. "العلم وسيلة لعبادة الله، وكل علم تعلمه الإنسان لغير العبادة فقد تعلمه لنفسه، وتعلمه لغير الله وهذا شرك وكان الرسول يتعوذ من علم لا ينفع "اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع أى علم لا أعبدك به". "النبى (صلعم) لا يقرأ ولا يحسب وكان فى قدرته أن يقرأ ويحسب، بل أمته كلها أمة أمية لا تكتب ولا تحسب.. خير أمة أخرجت للناس أمة أمية. ويقصد بالأمة الأمية عموم هذه الأمة وغالبيتها ولا يمنع من ذلك أن يكون هناك بعض الكاتبين الحاسبين ولكن جماعة الحق فى آخر الزمان.. سمتها وعمومها أنها أمة أمية"

هكذا يكون التفسير الحرفى للنص قفصا لا مهرب منه..

ومرة أخرى يعود شكرى مصطفى ليقدم تصورا لقيام دولته.. "فيمهد الله لجماعة الحق بقتال بين قوتين عظيمتين بينهما خلاف فكرى كبير وكل منهما تحاول الغلبة والسيطرة على الأرض ونقصد بذلك روسيا وأمريكا.. وبعد أن يدمر كل منهما الآخر فى الحرب العالمية الثالثة يبدأ المسلمون فى القتال.

ونعود مرة أخرى إلى "كما" فكما قاتل الروم الفرس تمهيدا لقيام دولة الإسلام الأولى.. يحدث ذلك أيضا الآن.

.. مرة آخرى كيف يحارب المسلمون "أسلوب القتال عند المسلمين هو مواجهة رجل لرجل لأنها نفوس باعت الدنيا واشترت الآخرة، أما أصول الكافرين فى القتال فهى نتاج طبيعى لمعصية الله وقد أعدت بأموال كافرة

وأصول كافرة."

والأمر يسيط عند شكرى "فالله سيمكن لنا فى الأرض بقدرته وهو أمر لا يمكننا نحن أن نتدخل فيه فقد وعدنا سبحانه وتعالى بأننا إن عبدناه نصرنا."

.. وقبل أن نترك شكرى مصطفى فى أسفل السفح لا بد لنا أن نلاحظ أنه اسمى نفسه "أمير آخر الزمان" لماذا؟ لأنه يعتبر أننا نعيش فعلا فى آخر الزمان "تقوم الساعة والروم أكثر الناس" ويفسر شكرى الحديث قائلا "الروم هم اليهود" وعلو اليهود فى الأرض هو إحدى علامات الساعة..

ويورد علامات عديدة للساعة منها عمران بيت القدس.. جفاف بحيرة طبريا، نخل بيسان لا يثمر ويقول أن هذه العلامات تتحقق فلا يبقى سوى أن تنهض الجماعة المسلمة لترث الله وتقيم العدل..

ولكن مرة أخرى كيف؟ وبأى سلاح.. شكرى يرى أن رجاله ليسوا بحاجة إلى سلاح كثير "فهؤلاء هم الذين سوف ينطق لهم الحجر يا عبد الله تعال فإن وراءى يهودى فاقتله، وهؤلاء هم الذين ستفتح لهم القسطنطينية بغير قتال ولكن بقوله لا إله إلا الله".

.. ومعروف مصير شكرى وجماعته..

ولكن قبل أن ننتقل لا بد وأن نسجل أن كل هذا التشدد المبالغ فيه كان تشددا لفظيا، فصاحب أكثر الكلمات صخبا وتطرفا كان مستعدا أيضا للتهادن مع "الطاغوت" ومع الحكومة الكافرة.. أليس هو السليل المباشر لجماعة الأخوان؟

يروى أحد أقطاب الجماعة المسلمة وهو عبد الرحمن أبو الخير حوارا غريبا ومثيرا للدهشة.. لعله من الضرورى أن نشير إليه. فبعد أحداث الفنية العسكرية عقد إجتماع لقادة "الجماعة المسلمة".. ويدور الحوار التالى كما سجله عبد الرحمن أبو الخير. "أبو عبد الله (ماهر بكرى): لقد عرضت

الحكومة رغبتها فى التعاون معنا على أساس أن جماعتنا تصرف الشباب عن المناهج الانقلابية وتدعو إلى الهجرة. أن الحكومة فى حاجة إلى جماعة إسلامية تستوعب الخاصة من الشباب، ثم إلى جماعة تستوعب العامة من الشباب.. ونحن إن شاء الله جماعة الخاصة وقد قبلنا ذلك، وقد يقولون علينا عملاء، فليقولوا، المهم أن نحقق تقدم الجماعة وسنصبح أن شاء الله الجماعة الوحيدة فى مصر.

– أبو الخير: والإخوان المسلمين.

– أبو عبد الله: قد تكون هذه جماعة العامة المنتظرة.

– أبو الخير: وفى مقابل أى شىء يطلق الطاغوت إيدينا فى العمل للإسلام بحرية..

– أبو عبد الله: فى مقابل صرف الشباب عن الإنقلابات، فالحكومة قدمت هذا العرض وتعلم تماما أن منهجنا لايتصادم مع خطتهم حاليا فهو منهج هجرة، ويصرف الشباب عن التجمعات ذات المناهج الإنقلابية شأن تنظيم الفنية العسكرية.

(أبو الخير يبدى تشككه ويقول أن الطاغوت يستدرجنا)

– أبو عبد الله: لا إن الحكومة جادة فى عرضها. وقد عرضت علينا أيضا تعويضا عما لحق بنا من أضرار فى الماضى، كدعاية سيئة أو اعتقال وطلبت منا رفع قضية ضد دور الصحف والأجهزة الأخرى للحصول على التعويض المناسب واتفقنا مع المحامى.. والجماعة فى حاجة إلى المال.

– أبو الخير: إن الطاغوت سوف يجرنا إلى الاحتكام إليه، وهذا محرم شرعا.

– أبو مصعب (أنور مأمون صقر): وما وجه الحرمة في ذلك، إن رسول الله (صلعم) قد دخل فى جوار كافر، لقد دخل فى جوار مطعم بن عدى

ليحميه من الكفار فى الطائف.

- أبو الخير: إننا بذلك سوف يستثمرنا الطاغوت لمصلحته.

- أبو الغوث (محمد الأمين عبد الفتاح): قبلنا أن نستثمر، قبلنا أن نستثمر(٤٩).

ويواصل شكرى مصطفى مبررا إمكانية تهادنه مع الطاغوت.

"قال أبو سعد (شكرى مصطفى) إننى أقول للطاغوت أنا لا أشكل عقبة فى طريقك، فحجبى للنساء عن الجامعات والمدارس يعنى أننى أقول للطاغوت ها أنذا أريحك من مشاكل تعليمهم وانتقالاتهم، وهجرتى لا تشكل خطرا انقلابيا عليك، وأساهم بذلك فى تخفيف مشاكل الإسكان، وأترك الوظائف فأريحك من المرتبات التى تدفع لنا" (٥٠)

ويعود أبو عبد الله (ماهر بكرى) ليوضح الأمر فيقول: "هناك حسابات دقيقة للمصالح المشتركة بين الجماعة المسلمة وبين الجاهلية فإذا كانت هناك عملية ما يمكن أن تقوم بها الجماعة بالاشتراك مع العدو بحيث تكسب الجماعة ٥٤٪ ويكسب العدو ٤٦٪ منها نؤديها لأن ذلك فيه تقدم الجماعة.. إن العالم كله مصالح مشتركة بين المسلمين والجاهلية والله سبحانه معنا وليس معهم وبالتالى نمتلك المحافظة على تحقيق نسبة من المصلحة أكبر مما يحققه العدو"(٥١)

.. ولا تعليق فالخاتمة لكل ذلك معروفة.. ومعروف مصير الجماعة ومصير قادتها.

* * *

.. والآن وبعد كل ذلك هل ثمة مجال لمزيد من التطرف؟

والإجابة التى قد تبدو غريبة هى نعم..

ففى أوائل ١٩٧٩ يصدر محمد عبد السلام فرج كتابه "الفريضة الغائبة،

ليعلن فيه "أن طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بقوة السيف (لعله قد تلقن الدرس وكف عن التهادن- المؤلف)

وان حكام هذا العصر تعددت أبواب الكفر التى خرجوا بها عن ملة الإسلام، بحيث أصبح الأمر لا يشتبه فيه على كل من تابع سيرتهم، وأن حكام هذا العصر فى رده عن الإسلام تربوا على موائد الاستعمار (سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهيونية)، فهم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء وإن صلوا وصاموا وادعوا أنهم مسلمين"(٥٢) (الخطوط لنا)

وتبدأ موجة جديدة أشد تطرفا لأنها أكثر عزلة، وأكثر عزوفا عن المجتمع وأكثر نكرانا له ولمعطياته وتكون مسميات عديدة لعل أشهرها "الجماعة الإسلامية" التى اشتهرت باسم "جماعة الجهاد"

وتعلن الجماعةَ أهدافها.. تحت عنوان "ميثاق العمل الإسلامى" وهو مطبوع سرى.. تقول فيه.

"غايتنا: رضا المولى تبارك وتعالى، بتجريد الإخلاص له سبحانه، وتحقيق المتابعة لنبيه.

عقيدتنا: عقيدة السلف الصالح جملة وتفصيلا.

هدفنا: ١- تعبيد الناس لربهم.

٢- إقامة خلافة إسلامية رشيدة.

طريقنا: الدعوة إلى الله، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الجهاد فى سبيل الله من خلال جماعة منضبطة حركتها بالشرع الحنيف تأبى المداهنة أو الركون وتستوعب ما سبقها من تجارب.

زادنا: علم وتقوى، يقين وتوكل، صبر وشكر، زهد الدنيا وإيثار للآخرة

ولاؤنا: لله ورسوله.

عداؤنا: للظالمين.

اجتماعنا: لغاية واحدة، بعقيدة واحدة، تحت راية فكرية واحدة" (٥٣) (الخطوط لنا)

ها نحن أمام فكر الشيخ عمر عبد الرحمن الذى تعترف ذات الوثيقة علنا بأنه أمير عام للجماعة"(٥٤) ونتوقف قبل أن نستطرد لنلاحظ:

- تعبيد الناس لربهم.. أى إكراه الناس على العبادة.

- تأبى المداهنه والركون وتستوعب ما سبقها من تجارب، وهى تشير إلى مداهنات الأخوان وشكرى مصطفى وترفضها.

- ترفض الجماعة انقسام جماعات الإسلام السياسى وتسعى لوحدتها فى جماعة منضبطة.. وتحت راية فكرية واحدة.

- عبارة زهد فى الدنيا تشير إلى رفض الجماعة لمن أسموهم "أصحاب الإسلام الثروى" إشارة إلى الثروة ويقصدون بهم أساسا الأخوان المسلمون وتمضى الوثيقة لتعلن "موقف الجماعة من النظام:

"الحاكم: إن الجماعة الإسلامية تعتقد أن الحاكم الذى لا يحكم بما أنزل الله كافر خارج عن الإسلام.

مجلس الشعب: عارضت الجماعة الإسلامية دخول مجلس الشعب لما ينطوى عليه من إصدار تشريعات مخالفة لشرع الله، والتى غلظ الله عقوبتها حتى أوصلها إلى الشرك، وجعل المشرع من دون الله ندا لله."(٥٤)

وتتباهى الجماعة باستخدامها العنف..

"فجاءت الجماعة بأعز أبناءها فى التصدى لنظام السادات وفى مقدمتهم خالد الإسلامبولى وإخوانه الأربعة شهداء المنصة عام ١٩٨١" (٥٥)

وهى تقرر صراحة أنها ستواصل "القيام بمحاولة تخليص المجتمع والشارع المصرى من المنكرات الصارخة كمصانع الخمور، وأندية الفيديو التى تتاجر فى الجنس والقضاء على البغاء فى عين شمس، على أن يكون تغيير هذه

المنكرات وفق الضوابط الشرعية وألا يترتب عليه منكرا أكبر منه".(٥٧)

أما موقف الجماعة من حرية الفكر.. "إلا أن يكون المراد بحرية الفكر هو حرية الكفر، أو حرية أى فكر يطعن فى الإسلام أو لا ينطلق من مقاييسه ومعاييره"(٥٨)

... والجماعة فى بيانها هذا وهو آخر ما أصدرته، بعد أحداث عين شمس تتوعد النظام صراحة برغم أنها أوردت وصراحة أيضا فى ذات البيان أسماء قادتها الذين أكدت أنها لا تقبل أى حوار إلا إذا جرى معهم وهم من أسمتهم "قيادات الجماعة الإسلامية ومنظريها الذين يدين لهم أفراد الجماعة بالسمع والطاعة وهم: د. عمر عبد الرحمن، الشيخ كرم زهدى، الشيخ ناجى إبراهيم، الشيخ أسامة حافظ، الشيخ عبد الآخر حماد"(٥٩)

أقول إن الجماعة تتوعد الحكم قائلة "ويبقى السؤال الأهم هل أجدت ردود الأفعال السابقة شيئا، وهل أفلحت فى كفكفة الأمن عن ظلمه وطغيانه؟

الجواب المؤكد لا.

ويبقى فى حكم المؤكد أن الأوضاع لا تخرج عن أحد احتمالين.

الاحتمال الأول: أن الجماعة الإسلامية تحاول أن تلملم أوراقها وتعتزل العمل الإسلامى نهائيا كى تتحاشى التصفية الجسدية وحرب العصابات التى شنتها الدولة على أعضائها.

الاحتمال الثانى: أن تمارس الجماعة ألوانا من ردود الأفعال أشد شراسة وعنفا بقصد الحد من غلواء النظام وطغيانه كرد فعل طبيعى ممن اثخنتهم الجراح.

والتاريخ والواقع يشهدان باستبعاد الاحتمال الأول"(٦٠) (الخطوط لنا)

* * *

والآن.. لا بد أن سؤالا يثور فى ذهن القارىء.. أما من نهاية لهذا التطرف، وإلى متى ستظل جماعات الإسلام السياسى مؤهلة لأن تزداد تطرفا..

والجواب.. وفق معطيات هذه الدراسة سيظل التطرف فى ازدياد.. طالما ظلت هذه الجماعات عاجزة عن تقبل الواقع، رافضة له، وطالما أن الواقع يظل عاجزا عن مواجهتها والتصدى لها فكريا وإعلاميا وسياسيا واجتماعيا..

ملاحظات ختامية:

أن جماعات الإسلام السياسى، لا تعرف حدودا لتطرفها وانغلاق فكرها على النص وحده، وهى قادرة على مخاصمة الواقع، ورفضه بل وتحديه حتى لو أدركت أنها تعاند الحقيقة والواقع.

فالنص عند هذه الجماعات وتفسير قياداتها للنص هو الملزم الوحيد والحقيقة الوحيدة. ومن ثم ففى ظل المعطيات الحالية والتى تتمثل فى ممالأة السلطة للتطرف الدينى سواء على الصعيد الإعلامى أو الفكرى أو السياسى أو حتى الأمنى، والاكتفاء بتوجيه ضربات عنيفة كلما وقع تهديد على النظام نفسه، وليس تهديدا على المواطنين أو تحد للفكر والحرية أو حتى صحيح الدين.

"إن السلطة كانت هى الراعى الأول لفكرة التطرف الدينى والإسلام السياسى، ساندتها فى البداية وحاولت استخدامها أكثر من مرة، بل وأغمضت العين عن نشاطها.. أغمضتها عن عمد.. الأمر الذى تقرره حيثيات حكم محكمة أمن الدولة العليا فى قضية تنظيم الجهاد.. إذ تقول "ظلت سلطات الأمن غافلة عن نشاط التنظيم والذى يبدأ فى صيف عام ١٩٨٠ بدعوة الشباب للانضمام إليه، ووضع الخطط وجمع المعلومات

وارتكاب حوادث النهب والسرقة وشراء الأسلحة وتخزينها وتدريب أعضائه على استعمال الأسلحة ورغم أن التنظيم قد كشف نشاطه بعد ٢ سبتمبر ١٩٨١ متمثلا فى عقد اجتماعات بين قيادته، وانتقالهم بين محافظات الوجه القبلى والقاهرة والجيزة وتكثيف نشاطهم فى التدريب على السلاح، فإن سلطات الأمن بما لها من سلطة الضبطية الإدارية، وهى اتخاذ الاجراءات المانعة من ارتكاب الجريمة قبل وقوعها باتخاذ تدابير الوقاية واحتياطات الأمن العام لم تتخذ أى إجراء جدى أدى إلى كشف هذا التنظيم وتحركاته قبل أن يبدأ فى تحقيق أهدافه."(٦١)

.. وهل ثمة دليل أكثر من ذلك على تغافل النظام وجهاز الأمن عن هذه الجماعات، ذلك أن حسابات النظام تقوم دوما على أساس الموازنة بين جماعات الإسلام السياسى وبين اليسار، وتحاول أن تخيف هذا بذاك غير مدركة خطورة استمراء جماعات الإسلام السياسى لغض الطرف عنها..

وقد يرد البعض بأن الأمن يوجه ضربات عنيفة لهذه الجماعات، ونوافق على ذلك ولكننا نقرر أنها لا تأتى مطلقا إلا عندما يبدأ شباب هذه الجماعات فى توجيه ضربات مباشرة لسلطة الدولة ذاتها أو إلى أحد رجالها.. أما ترويع المواطنين، تهديد وحدة الوطن، فرض سطوة هذه الجماعات بالقوة على المواطنين العزل فذلك كله تغض الدولة الطرف عنه.

كذلك فإن الدولة تدخل فى مباراة بلهاء تحاول أن تسبق بها هذه الجماعات فى زيادة الجرعات الدينية والمتطرفة فكريا فى أحيان كثيرة فى أجهزة الإعلام الحكومية ناسية أنها تخصب التربة أمام هذه الجماعات وتشجع نموها.

* إن التطرف إذ يصل إلى مداه المذهل لا يمنع كما رأينا فى حالتى الأخوان وشكرى مصطفى من مداهنه الحكم وممالأته بل والتواطؤ معه..

انتظارا لفترة الاستقواء والتفيؤ. وإن كانت التجارب المريرة لمحاولات الأخوان وشكرى مصطفى قد أثرت على الجماعات التالية التى أكدت كما رأينا رفضها للمداهنة ودخلت ميدان العمل المباشر.

* إن البعض يتصور أن تجنب خوض هذا الموضوع الشائك هو بذاته مكسب كبير؛ بينما نرى أن القوى والتيارات العقلانية والليبراليه والعلمانية والحريصة على وحدة الوطن ووحدة ترابه ومواطنيه يتعين عليها أن توحد صفوفها للتصدى فكريا وسياسيا وجماهيريا لهذه الجماعات حماية للوطن من مخاطر تطرفها، خاصة وأن الموجة الجديدة منها وخاصة الجماعة الإسلامية (الجهاد) قد بدأت مخططا لعمل جماهيرى نشط وبدأت فى استخدام موارد مالية غير محدودة وغير مرئية المصدر فى إقامة مشروعات خدمية (تعليمية- وصحية- واجتماعية) لا بد لها وأن تنعكس على البعد الجماهيرى لهذه الجماعات.

.. وأخيرا وبرغم هذه الإطالة، فإن الموضوع يظل بحاجة للمزيد من الدراسة.. وهو ما نلح عليه ونعد به.

ب- الاسلام السياسي
من التطرف الى المزيد من التطرف

١- ماركس وإنجلز- المؤلفات الكاملة- المجلد ٢٠- ص ٣٢٨.

٢- ماركس- نقد فلسفة القانون عند هيجل.

٣- انجلز مقال- برونوباور والمسيحية الأولى نقلا عن: ماركس، انجلز- حول الدين- المنشورات الاجتماعية- باريس بالفرنسية- ص ١٨٢.

٤- ماركس، انجلز- الأيديولوجية الألمانية- الترجمة الإنجليزية- ص ٤٠٥.

٥- ماركس وإنجلز عن الدين- المرجع السابق. ص ١٨٥.

٦- لينين- المؤلفات الكاملة- المجلد ٤ ص ٢٢٨.

٧- ماركس وإنجلز- المؤلفات الكاملة- المجلد ٧- ص ٣٥٩.

٨- لينين- المؤلفات الكاملة- المجلد ٢٣- ص ٤٧.

٩- حسن البنا- رسالة المؤتمر الخامس. أعيد نشرها ضمن: حسن البنا- مجموعة الرسائل، مؤسسة الرسالة (بيروت) ص ٢٧٢.

١٠- حسن البنا- المرجع السابق- ص ٢٠.

١١- شكرى مصطفى- التوسمات- مخطوط.

١٢- ماركس، إنجلز- المؤلفات الكاملة- المجلد ٨-، ص ١١٩.

١٣- ملف القضية رقم ٦ حصر أمن الدولة- عسكرية عليا- لسنة ١٩٧٧.

١٤- فتحي عثمان- الفكر الإسلامي والتطور- ص ٢٤٦.

١٥- خاطرات جمال الدين- (أملاه على محمود باشا المخزومي)- ص ١٦١.

١٧- المرجع السابق.

١٨- المرجع السابق.

١٩- محمد رشيد رضا- تاريخ الأستاذ الإمام- جـ١- ص ١١.

٢٠- محمد عبده- رسالة التوحيد- ص ١٤١.
٢١- د. على الحديدى- عبد الله النديم- ص ١٧٧.
٢٢- المرجع السابق.
٢٣- عباس العقاد- محمد عبده- ص ١٣٣.
٢٤- مجيد خضورى- التيارات السياسية فى العالم العربى- بالإنجليزية- ص ٥٦.
٢٥- المنار- مقدمة العدد الأول.
٢٦- المنار- جـ١١ (١٩٠٨- ١٩٠٩)- ص ٧٠٦.
٢٧- رحلات الإمام محمد رشيد رضا- جمعها وحققها د. يوسف أيبش- المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)- (١٩٧١)- ص ١٢.
٢٨- رشيد رضا- الخلافة أو الإمامة العظمى- (١٣٤١ هـ)- ص ١١٦.
٢٩- رشيد رضا- كتاب الوحى- ص ٢٣٩.
٣٠- المنار- جـ ٢٢ (١٩٢١)- ص ٣٩٠.
٣١- حسن البنا- مذكرات الدعوة والداعية- دار الشهاب- ص ١٠.
٣٢- المرجع السابق. ص ٧٦.
٣٣- أنور الجندى- الإخوان المسلمون فى ميزان الحق- ص ٦٩.
٣٤- حسن البنا- مذكرات الدعوة والداعية- المرجع السابق- ص ٩٨.
٣٥- المرجع السابق- ص ٩٦.
٣٦- الإخوان المسلمون (الأسبوعية)، ٤- ٣- ١٩٤٥- مقال بين الدين والسياسة.
٣٧- أنور الجندى- المرجع السابق- ص ١١.
٣٨- المرجع السابق- ص ١٥.
٣٩- الإخوان المسلمون، ٩- ٣- ١٩٣٧- مقال لحسن البنا بعنوان: حامى

المصحف.

٤٠- النذير، ١- ٦- ١٩٣٨- مقال لحسن البنا بعنوان: أيها الإخوان تجهزوا.

٤١- الإخوان المسلمون، ٩- ٩- ١٩٣٨.

٤٢- د. زكريا سليمان البيومي- الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية- مكتب وهبة (١٩٧٩) ص ١٢٦.

٤٣- القانون ١٧ لسنة ١٩٣٨ بتاريخ ٨ مارس ١٩٣٨.

٤٤- حسن البنا.- مذكرات الدعوة والداعية- المرجع السابق- ص ٢٣٣.

٤٥- د. زكريا سليمان البيومي- المرجع السابق- ص ١٠٦.

٤٦- أقوال شكري مصطفى أمام هيئة محكمة أمن الدولة العسكرية العليا في رقم ٦ لسنة ١٩٧٧.

٤٧- شكري مصطفى- التوسمات (مخطوط على ورق كراس مسطر متوسط الحجم من ٨٥ صفحة.. مدون بالحبر الأسود والعناوين وبعض الفقرات الهامة بالحبر الأحمر).

٤٨- عبد الرحمن أبو الخير- ذكرياتي مع جماعة المسلمين (التكفير والهجرة)- دار البحوث العلمية الكويت- (١٩٨٠)- ص ٥٧.

٤٩- المرجع السابق- ص ٨٤.

٥٠- المرجع السابق- ص ٨٧.

٥١- محمد عبد السلام فرج- الفريضة الغائبة.

٥٢- تقرير خطير، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد- حول الموقف الراهن بين الجماعة الإسلامية والنظام المصري جمادى الأولى سنة ١٤٠٩ ص ١ (والوثيقة مكتوبة بخط اليد ومصورة).

٥٣- المرجع السابق- ص ١.

٥٤- المرجع السابق- ص ٤.

٥٥- المرجع السابق- ص ١.

٥٦- المرجع السابق- ص ٥.

٥٧- المرجع السابق- ص ٢٥.

٥٨- المرجع السابق- ص ٢٧.

٥٩- المرجع السابق- ص ٣٠.

٦٠- حيثيات حكم محكمة أمن الدولة العليا (طوارىء) الدائرة الرابعة- في القضية ٤٦٢ لسنة ١٩٨١ حصر أمن الدولة العليا.

الإخوان المسلمون والعمال
(مصر) ١٩٢٨ - ١٩٥٢

الجماعة - الأيديولوجية - الممارسة

الجماعة..

يأتى عام ١٩٢٨ ليجد مصر فى مأزق سياسى ودستورى حقيقى، حيث القصر- مدعوما بالاحتلال- يمتلك السلطة الفعلية، وحزب الوفد يحتكر وبشكل حاسم الأغلبية الانتخابية فى أية انتخابات برلمانية حرة.

وإذا كان أصحاب القرار الفعلى القصر- الاحتلال، قد ضاقوا ذرعا بالممارسات الوفدية سواء للحد من سلطة القصر أو من سلطة الاحتلال فقد سارت مصر ومنذ منتصف العشرينيات فى طريق أزمة دستورية مستمرة تستهدف وبممارسات عديدة استبعاد الوفد من الحكم.

الأمر الذى وضع مجمل النموذج الدستورى المصرى موضع الإحباط "وساد

إحساس عارم بالرفض وعدم الرضاء إزاء النظام القائم الأمر الذى أتاح الفرصة أمام الإخوان المسلمين لكى يجذبوا إلي صفوفهم مئات الآلاف من الأتباع"(١)

ولقد تمكن القصر وبعد معركة قصيرة المدى من إحكام قبضته على المؤسسة الإسلامية الكبرى "الأزهر" وتمكن من تطويعها فى خدمته واحتل الشيخ المراغى (أحد قادة المؤسسة الدينية الرسمية) مركزا مرموقا فى القصر الملكى مما وضع "الدين التقليدى" بأكمله فى تناقض مع الجماهير الشعبية الرافضة للقصر ولسياسته" الأمر الذى وضع المسلم المتدين فى تناقض حاد مع المجتمع الحديث والدولة الحديثة"(٢).

كذلك فإن موجة الليبرالية والعقلانية التى تواجدت فى مصر منذ مطلع القرن العشرين ظلت تتسم بنزعتين أساسيتين:-

أ- نزوعها نحو الغرب وخاصة فرنسا.

ب- انحسارها وسط مثقفى الفئات العليا والوسطى.. الأمر الذى عزلها وبشكل واضح عن الجماهر الشعبية..

فإذا أضفنا إلى ذلك كله الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٨) والتى أبرزت النظام الرأسمالى فى ضورة من يعجز عن حل مشكلات الجماهير، وإذ كان النظام الاشتراكى (الاتحاد السوفيتى) لم يزل ضعيفا ومحاصرا فإن بروز محاولة لايجاد طريق ثالث (النظام الإسلامى) كان أمرا منطقيا، خاصة وأن "الاسلام" يعتبر لدى الكثيرين نظاما كاملا شاملا لكل مناحى الحياة.

كذلك فإن التطورات السياسية المتلاحقة منذ الإستقلال الناقص الذى حصلت عليه مصر عقب ثورة ١٩١٩ قد قلصت وإلى حد كبير من حماس أبناء الطبقات والفئات الوسطى فى المجتمع المصرى (البرجوازية الصغيرة والوسطى) للعمل السياسى وللتكوينات السياسية القائمة الأمر الذى خلق

مساحة خالية من النفوذ والانتماء السياسى داخل المجتمع المصرى.. هذه المساحةتمركزت فيها جماعة الإخوان المسلمين، وفى هذا الإطار نشأت جماعةالإخوان المسلمين، ولم يكن مصادفة أن تنشأ عام ١٩٢٨. عام احتدام الأزمة الاقتصادية العالمية وعام احتدام الأزمة الدستورية بمصر.

وكسبت جماعة الإخوان تأييدا لا بأس به "لأنها قدمت تصورا يستهدف تغيير النظام السياسى التقليدى فى مصر تغييرا شاملا(٣).

صحيح أن الحرب الشيوعى المصرى قد قدم تصورا شاملا ونقيضا للمجتمع القائم إلا أن هذا الحزب قد طورد مطاردة عنيفة وصدر قرار بحله وألقى القبض على قادته مما أضعف من تأثيره على المجتمع بشكل عام.(٤) بينما استندت جماعةالإخوان إلى المهابة الشاملة التى يكتسبها الدين في المجتمع المصرى وهى مهابة لم تتوفر لأية قوة سيساية أخرى، كذلك فقد استندت إلى حماية جهاز الدولة القائم آنئذ والذى أدرك أهمية الاستناد إلى جماعة ذات منطلق دينى فى مواجهة النفوذ الجماهيرى لحزب الوفد.. كذلك فقد أدرك رئيس الوزراء المصرى "إسماعيل صدقى" ومنذ وقت مبكر (١٩٣٠) أهمية استخدام الدين "كمانعة صواعق اجتماعية" ومن ثم استخدم الجماعة استخداما ذكيا فى هذا الاتجاه.

وهكذا وبالاستناد إلى مهابة الدين وإلى سلطة الحكم وفى تحالف وثيق مع القصر (بايع الإخوان الملك فاروق كملك مسلم مؤمن وهاجموا خصومه الوفديين هجوما عنيفا) بدأت جماعة الإخوان المسلمين فى لعب دور سياسى واجتماعى هام فى المجتمع المصرى.

الأيديولوجية:

نحن إذن بصدد جماعة تتخذ من "الإسلام" منهجا متكاملا وتعلن أن

"الإسلام دين ودولة، عبادة وقيادة مصحف وسيف "(٥) وهى أيضا جماعة ترتكز فى الأساس إلى عضوية من البرجوازية الصغيرة والوسطى،وإلى ممارسة سياسية تستند إلى حكومات أحزاب الأقليةوإلى موالاة القصر الملكى.. وقد انعكس ذلك فى التصور الأيديولوجى لجماعة الإخوان المسلمين إزاء قضية الطبقة العاملة فى مصر.

والحقيقة أن الدين الإسلامى شأنه شأن أى معتقد آخر يمكن اللجوء إليه من أكثر من مدخل،فإذا كان مفكرون إسلاميون مثل رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى قد تحدثوا عن "اشتراكية الإسلام"وقال الآفغانى "أن أول من عمل بالاشتراكية هم الصحابة" وأن "الاشتراكية هى التى تعطى حقا مسلوبا للشعب العامل"(٦)وأكد رشيد رضا (تلميذ الشيخ محمد عبده) "أن الشيخ محمد عبده كان يرى أن تراكم الثروة لدى البعض يخلق مشاكل اجتماعية وأن الإضرابات العمالية والمشكلات فى علاقات العمل هى مجرد ثمرة لهذا الوضع"(٧).

فإن آخرين اختاروا مدخل اتخاذ الدين كسلاح فى يد الرجعية وكبار الملاك والرأسماليين.

أما حسن البنا فقد وجد نفسه فى مأزق حقيقى.

فهو يريد أن يكسب لجماعته جماهيرية وسط جموع العمال. لكنه لايريد أن يفقد مساندة القصر وكبار الملاك فاتخذ موقفا يمكن القول بأنه "وسط "وبأنه" مرن". وبأنه يفصل بين القول والممارسة الفعلية.

واكتسب هذا الموقف مزيدا من المرونة أو بالدقة الغموض إذ رفض فى الواقع إعلان أى برنامج سياسى أو أقتصادى محدد وواضح واكتفى بالعموميات مثل "القرآن دستورنا".

لكن واقع الحياة كان يفرض على الجماعة أن تحدد موقفا من مجمل البنيه

الاجتماعية والاقتصادية.. فاضطرت إلى ذلك واتخذت من الوسطية والمرونة سبيلا لتلافى أى اختيار واضح وصريح بين العمال وبين مستغليهم.

وسنحاول وبايجاز شديد تلمس الأسلوب الذى حددت به الجماعة ومفكروها "الموقف الفكرى"من القضية الاجتماعية ومن الطبقة العاملة.

يقول أحد مفكرى الجماعة الشيخ محمد الغزالى أن الإسلام يطرح نظاما اقتصاديا يمكن تسميته بالنظام الوسيط وهو لايتردد فى القول بأن مثل هذا النظام "قد طبق بأشكال مختلفة فى ألمانيا وإيطاليا على عهود النازى والفاشست،ويطبق الأن فى إنجلترا بإشراف الدولة على مصالح الشركات الكبرى اشرافا مباشرا.. وهو ماأعتبره وسطا بين تعطيل مبدأ الملكية وبين إطلاقه"(٨).

بينما يقول مفكر آخر من مفكرى الجماعة هو سيد قطب "أن النظام الإسلامى ليس هو الرق..وليس هو الإقطاع وليس هوالشيوعية،إن النظام الإسلامى هو فقط النظام الإسلامى"(٩).

إن عبارة سيد قطب هذه نموذج دقيق لأسلوب عرض جماعة الإخوان لأفكارها خاصة فى المجال الإجتماعى فهى تكتفى بنفى صفات محددة دون أن توضح تحديدا ماذا تريد.. لكننا نلاحظ أن قطب لم ينف صفة "الرأسمالية" عن النظام الإسلامى، ربما لأنهم كعادتهم لم يريدوا تصادما مع الرأسمالية.. فالعبارة قيلت عام ١٩٥٣ حيث حكام يوليو ضد الإقطاع وضد الشيوعية لكنهم لم يتخذوا أى موقف ضد الرأسمالية.

وتحاول مجلة الدعوة أن تضفى ظلالا غيبة على موضوع الملكية ذاته "فالإسلام لايعرف الملكية وإن كان يعرف الحيازة. إذ قررت المذهبية الإسلامية أن هذا الكون مرده إلي خالق واحد، وأنه وحده مالك الملك بما فيه من مادة وروح. فالإنسان ليس مالكا أصيلا لأى شيء لا لذاته وجسده ولا لزرع أو

ضرع ولا لأرض أو ماء أو هواء.. وإنما هو خليفة الله سبحانه فى ملكه"(١٠).

وإذا كانت "الملكية" لله وحده والانسان مستخلف فيها:فإن الاستغلال ليس ملازما للملكية.

فالشيخ البهى الخولي الذى كلف بإعداد البرنامج التثقيفى للجماعة يقول "إن مقاومة الاستغلال الدنيىء لاتكون بالغاء الملكية بل بإقامة السلطة العادلة، أما الملكية ذاتها فليس من طبيعتها أن تبيح هذا العدوان، فقد يملك الإنسان ولا يظلم، وقد يملك ويكون محسنا كريما.. ومن ثم فالملكية ليست بحاجة إلي معالجة أو مقاومة، وإنما إلى تهذيب"(١١).

وفوق هذه المرتكزات الفكرية تقدم الجماعة أفكارها ومواقفها.

ويقول حسن البنا فى رسالته المعنونة "مشكلاتنا الداخلية فى ضوء النظام الإسلامى".

. "أن التفاوت عظيم والبون شاسع والفرق كبير بين الطبقات المختلفة فى هذا الشعب، فثراء فاحش وفقر مدقع".

وقد يتصور القارىءأن الجملة التالية ستكون دفاعا عن العمال أو فقراء الفلاحين لكنها تأتى دفاعا عن الطبقة الوسطى "فالطبقة المتوسطة تكاد أن تكون معدومة. والذى نسميه نحن الطبقة المتوسطة ليس إلا مجموعة من الفقراء المعوزين وإن كنا نسميهم متوسطين على قاعدة بعض الضر أهون من بعض"(١٢).

ويحدد البنا قواعد للنظام الاقتصادى فى الإسلام من بينها:

- اعتبار المال الصالح قوام الحياة ووجوب الحرص عليه.

- تقرير حرمة المال واحترام الملكية الخاصة مالم تتعارض مع المصلحة العامة. ويستند البنا فى تأكيد تحريم مصادرة المال إلى الحديث النبوى "كل

المسلم علي المسلم حرام، دمه وعرضه وماله".

ويمضى البنا قائلا: "لقد امتدح الإسلام المال الصالح وأوجب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره وأشاد بمنزلة الغنى الشاكر الذى يستخدم ماله فى نفع الناس ورضاء الله"(١٣).

ويشير أحد مؤرخى الجماعة إلى تعمدها الحديث الغامض عن مشاكل العمال وعن حلول هذه المشاكل فيقول: "التزمت الجماعة بالفكروالمصطلحات الشمولية ولم تلجأ إلى التحليل الطبقى، لذلك فقد اقتصر اهتمامها بالقضايا العمالية على اظهار شعور الاستياء مما يعانيه العمال من الفقر والمرض وما يلاقونه من اضطهاد من جانب أصحاب الأعمال واكتفت بالمطالبة بتحسين أحوالهم وتشغيل العاطلين منهم"(١٤).

وبعد أسبوع واحد من ثورة يوليو نشرت الجماعة ما يمكن اعتباره "برنامجا"سياسيا واقتصاديا، ولعلها فعلت ذلك بهدف احتواء القيادة الجديدة أو تحت ضغطها، وكذلك لمحاولة كسب جماهيرية وسط الشارع المصرى الذي كان ثوار يوليو ومؤيديهم من الشيوعيين يكسبون مواقع هامة فيه.. وقد جاء فى هذا البرنامج:

"العمل فرض على القادر عليه، ولايجوز له أن يتخلي عنه ولايجوز إعانة رجل لايعمل وهو قادر بل يحمل علي العمل حملا، ويجب على ولى الأمر أن يساعده على إيجاد عمل له.

فإذا لم يجد عملا أصلا، أو كان عمله لايكفيه أو كان غير قادر عليه، وجب على ولى الأمر أن يتدخل ليحقق له ضرورات الحياة بالزكاة، فإن لم تكف الزكاة لتوفير الحاجات الضرورية وجب على من عنده فضل مال أن يرده على الفقراء حتى يستوفوا حاجاتهم، فإن لم يفعلوا أجبرتهم الحكومة على ذلك واتخذت من التشريعات ما يكفل إصلاح حال المجتمع بقدر ظهور

الحاجات وبروز الضروريات. كذلك يجب استكمال التشريعات العمالية بإعادة النظر فى التشريعات العمالية الحالية لتشمل جميع فئات العمال بما فيهم العمال الزراعيون ولتكفل للعامل وأسرته التأمينات الكافية ضد البطالة والإصابات والعجز.. مع مراعاة جعل الانتساب للنقابات إجباريا أو إباحة تكوين الاتحادات النقابية وتحديد أجور العمال وفق المبادىء الإسلامية"(١٥).

إنه تطور مفاجىء فى موقف الجماعة تحاول به التقرب من العمال والفقراء عموما والمزايدة على شعارات ثوار يوليو..

ويواصل الإخوان عملية المزايدة ففى احتفالهم بالمولد النبوى عام ١٩٥٢ وفى حضور محمد نجيب وجمال عبد الناصر ألقى المرشد العام للجماعة الهضيبى كلمة قال فيها: "كل انسان عليه واجب الحصول على عيشه عن طريق العمل الحلال بحسب ما تؤهله له مواهبه، ويجبر على العمل إذا هو قعد عنه، وإذا كان عمل العامل لايكفيه، أو لم يجد عمل أصلا أو كان غير قادر على العمل فهو فى كفالة المسلمين جميعا أى فى كفالة الدولة تمده بما يحتاج إليه من حاجاته الضرورية"(١٦).

لكن ذلك كله يبقى فى العموميات فالإخوان لم يخرجوا أبدا عن إطار العموميات فى حديثهم السياسى والاجتماعى وإن كان لابد من تخصيص فهو ليس فى صف العمال ولا فى صالحهم.

فحسن البنا يعد محاضرة لقسم العمال بالجماعة يؤكد فيها "إن على العمال أن يتذكروا دوما واجبهم نحو الله ونحو أنفسهم ونحو صاحب العمل"(١٧).

أما "الإضراب" فهو عند الجماعة وبشكل حاسم" أمر مخل بروابط الإخاء بين المسلمين ومثير للجفاء بين فرقهم"(١٨).

وإذا كان البعض يرى فى الإضراب سلاحا عماليا فإن الإخوان يقدمون أسلحة أخرى "لابد للعامل من سلاحين هما قوة الايمان وحسن الخلق، فتقوم الصلة بين العامل وصاحب العمل على الاحترام والعطف المتبادلين وهذه هى أنجح الوسائل"(١٩).

وعندما تزايدت حدة أزمة البطالة شكل "قسم العمال" بالجماعة لجنة لشئون العاطلين درست المشكلة ثم تقدمت باقتراح غريب هو "إعادة العمال الذين نزحوا من قراهم إبان الحرب للعمل فى المدن.. إلى قراهم الأصلية"(٢٠).

ولابد هنا من الإشارة إلى مسألةهامة تشكل محور الموقف الفكرى للجماعة من القضية العمالية. فقد هاجم الإخوان وبحماس شديد الرأسماليين الأجانب (وكان كثير منهم من اليهود) ووصفوهم "بالاستعمار الاقتصادى" وطالبوا بتوجيه ضربات شديدة لهم، بل لقد تطور الأمر عام ١٩٤٩ إلى نسف مصانعهم وشركاتهم لكنهم فى نفس الوقت لم يهاجموا على الإطلاق الرأسماليين المصريين.

إن وثيقة بريطانية تلمح إلى هذه المفارقة بذكاء.. فبعد مقتل حسين البنا أعدت السفارة البريطانية تقريرا لوزارة الخارجية البريطانية جاء فيه:

"كان حسن البنا يستهدف مساندة العمال المصريين ضد أصحاب الأعمال الأجانب، لكنه لم يكن ضد أصحاب الأعمال المسلمين"(٢١).

ولعل لهذا الموقف مدخله الدينى والاجتماعى والانتهازى فى آن واحد.

الممارسة:

ونأتى إلى ساحة الممارسة. ولقد تعودنا من جماعة الإخوان أن تختلف الأقوال عن الأفعال.. وفى البداية يحدد محمد شريف مسئول مكتب العمال

بالجماعة الهدف الأساسى للجماعة من العمل وسط جماهيرالعمال.. "أكد محمد شريف أن معاداة الشيوعية كانت أحد هدفين أساسيين استهدفتهما الجماعة من عملها المنظم فى صفوف الطبقة العاملة أما الهدف الآخر فهو السعى لنشر دعوة الإسلام فى الأوساط العمالية"(٢٢).

ولاشك أن نشاطا من هذا القبيل قد لقى ترحيبا شديداً من جانب الحكومات والرأسماليين على السواء..

والحقيقة أن تركيز الإخوان فى نشاطهم على مقاومة الشيوعية قد أوقعهم فى محاذير شديدة الخطر، فدفعوا عضويتهم إلى التجسس على العمال النشطين وعلي الشيوعيين عموما وإبلاغ السلطات عنه..

وأمام محكمة الشعب (التى شكلتها سلطة يوليو لمحاكمة الإخوان عندما تصادمت معهم) وقف أحدقاده الجماعة وهو صلاح الدين أبو الخير ليعترف صراحه "أن قسم الأخبار فى الجماعة كان يقوم بجمع الأخبار المهمة التى تهم الجماعة وأيضا نشرف حاجة.. خلية شيوعية مثلا.. وأنا أعرف أن الإخوان ضبطوا عدة خلايا وأبلغوا عنها"(٢٣).

ولكن أغلب النشاط الإخوانى التجسسى ضد اليسار عموما تركز أساسا فى المجال العمالى "حيث كانت أعين واهتمامات أجهزة الأمن والقصر والرأسماليين مركزة أيضا"(٢٤).

ويعتقد ريتشارد ميتشل وهو باحث متخصص فى تاريخ الجماعة.. أن هذا الموقف قد أضر ضررا شديدا بالنشاط الإخوانى وسط العمال بحيث وصل به قرابة عام ١٩٤٨ إلى ما يشبه التصفية"(٢٥).

ولعل هذا الموقف هوالذى دفع بالعديد من الأبحاث الأكاديمية إلى دراسة ممارسات جماعة الإخوان فى صفوف العمال من خلال أو بالتوازى مع دراستهم لصراعهم مع الشيوعيين.. ففى كتاب Workers on the Nile نقرأ:

"وقد انعكس ذلك فى صفوف العمال فى شكل تصادم حاد مع الشيوعيين حيثما وجد لهم نفوذ فلقد بدأ الإخوان المسلمون فى معارضة كل محاولة للشيوعيين لاستقلال النقابات والعمل النقابى عن رؤساء العمال فى المصانع ولتصعيد النضال العمالى الذى اعتبره الإخوان دعوة لاثارة الخلاف بين المسلمين. وفى نفس الوقت دأبت الجماعة على مقاومة كل أشكال النفوذ الشيوعى سواء بالدعاية أو حتى بالتدخل العملى. ومن ثم فإن منطقة شبرا الخيمة وصناعة النسيج بشكل عام أصبحتا أحد أهم مجالات الصراع المحتدم بين الإخوان والشيوعيين فى صفوف الحركة العمالية"(٢٦).

.. ويمكن القول أن الظروف كانت مواتية كى يمارس الإخوان دورا أزيد بكثير مما فعلوا.

فهناك أولا المشاعر الدينية المسيطرة على جماهير العمال والتى يمكن استغلالها فى حشد جماهير العمال باتجاه الجماعة.

وهناك أيضا الفراغ السياسى فى صفوف الطبقة فى مطلع الثلاثينيات عند نشأة الجماعة. فالحزب الشيوعى المصرى وجهت له ضربات عنيفة، والاتحاد العام لنقابات العمال الذى أسسه الحزب عام ١٩٢١ ثم حله أيضا وصودرت ممتلكاته وسجن قادته، وحلت محله اتحادات عمالية شكلية تابعة بشكل مباشر للأحزاب البرجوازية أو للقصر الملكى، وتولى رئاستها بكوات وباشوات بل وأحد نبلاء الأسرة المالكة. وكانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية تدفع بالعمال إلى العمل المباشر.. لكننا نعتقد أن المناورة السياسية والمراهنة على القصر الملكى وعلى عدم اغضاب كبار الملاك والرأسماليين بالإضافة إلى المنطلق المعتقدى كل ذلك أدى بالجماعة إلى العجز عن الاستفادة من كل هذه الممكنات.

وبرغم ذلك فلابد لنا أن نلاحظ وباهتمام أن أول من انضم إلى حسن البنا

فى عملية تأسيس الجماعة كان ستة من العمال(٢٧) لكن الإسهام المكثف فى عملية التأسيس لم يتواصل معه تواجد جدى للجماعة فى صفوف العمال.

وعلى أية حال فقد تطور موقف الإخوان إزاء الطبقة العاملة من الاتصالات الفردية.. إلى العمل المباشر والمنظم وشهد عام ١٩٣٨ بداية هذا التوجه ففى ٢٢ أغسطس ١٩٣٨ "ألتقى بالمركز العام للجماعة مجموعة من العمال "المتعلمين" وتداولوا فى الأوضاع السيئة التى تعيشها الحركة العمالية وحول إمكانية تأسيس حزب عمالى"(٢٨) ويعلق أحد الباحثين على هذه المحاولة قائلا: "ويبدو أن هذا الحزب قد تكون من عدد محدود ولفترة وجيزة، واتخذ له مقرا المركز العام للجماعة،ويبدو أنه كان مجرد واحدة من المناورات التى حاكها القصر ضد الوفد"(١٩).

وبعد عدة أشهرمن هذه المحاولة الفاشلة أى فى عام ١٩٣٩ أضرب ثمانية من قادة العمال بمدينة المحلة الكبرى عن الطعام احتجاجا على سوء أحوال الطبقة العاملة ومطالبين الحكومة بإصدار تشريع يسمح بحق التنظيم النقابى وقد اهتمت مجلة النذير (لسان حال الجماعة فى ذلك الوقت) بهذا الإضراب بالرغم من أن المضربين كانوا يساريين أو قريبين من اليسار، وهاجمت الحكومات المصريةالمتعاقبة لأنها لم تف بوعوذها للعمال وطالبت الوزارة بإصدار تشريعات منصفة لهم. لكنها فى الوقت نفسه هاجمت الإضراب كوسيلة وكأسلوب وأكدت أنه يتنافى مع تعاليم الاسلام"(٣٠).

وتأتى الأربعينيات لتشهد انطلاقة يسارية واسعة، ونشاطا شيوعيا فى صفوف العمال، ولعل هذا هوالذى دفع الجماعة لبذل اهتمام مضاعف بالقضايا العمالية. وفى ٢٩ أغسطس ١٩٤٢ صدر العدد الأول من جريدة "الإخوان المسلمون" ليعلن تأسيس"قسم الشئون الاجتماعية "بالجماعة.. بما يعنى بداية اهتمام منظم ومنتظم بهذه المسألة.

ويلاحظ مؤلفا كتاب "العمال على ضفاف النيل".

"أن المقالات التى نشرت عن الإصلاح الاجتماعى منذ ذلك التاريخ وحتي لحظة التوقف المؤقت للجريدة فى يناير ١٩٤٤ كانت مقالات عامة، ومجردةتعكس فقط الرؤية الإسلامية للمسألة الاجتماعية. ولم نجد بينها مقالا واحدا يمتلك رؤية محددة حول مسألة عمالية محدده(٣١).

لكن الجريدة إذ عاودت الصدور فى ديسمبر ١٩٤٤، عادت بتوجة جديد ومباشر نحو الطبقة العاملة- واتسمت مقالاتها عموما بالبساطة والشعبيتوالنبرة السياسية والاجتماعية الأكثر حدة. وتوافق ذلك مع توجه الجماعة لعمل نشط وسط العمال.

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة أسست الجماعة "قسم العمال" بالمركز العام، لكنها حرصت على التأكيد بأن "الغرض من إنشاء هذا القسم ليس التدخل فى شئون العمال النقابية، ولا التنافس مع الهيئات العمالية أو التعرض للعمال فى مصانعهم أو شركاتهم، ولكنه أنشىء بغرض توصيل الدعوة إلى نفوسهم وحتى يكون دافعا لتمسكهم بتعاليم الدين"(٣٢).

كذلك بدأت الجريدة فى نشر صفحة عمالية أصبحت ثابتة ابتداء من ١٩٤٧.

ومرة أخرى- فإن أغلب مؤرخى هذه الفترة يربطون بن توجه الإخوان للعمال وبين تصاعد النفوذ الشيوعى فى صفوفهم ويؤكدون أن واجب "العداء للشيوعية" كان أحد دوافع الإخوان للنشاط وسط العمال..(٣٣).

وقد حاول الإخوان أيضا "إقامة نقابات عمالية تستوحى أفكارهم وقد حققوا فى ذلك نجاحا محدودا ونشرت صحيفتهم أن عمال النقل قد قرروا تأسيس نقابة تعمل على هدى رسالة الإخوان. كذلك أصبح لهم نفوذ فعال فى عمال البترول بالسويس، مع بعض مجموعات من عمال النسيج فى المحلة

وشبرا الخيمة"(٣٤).

لكن بعض الباحثين والخصوم السياسيين للإخوان يؤكدون أن الجماعة وجريدتها كانت تبالغ إلى حد الاختلاق فى نشر معلومات عن النشاط الإخوانى وسط العمال..

وكمثال على ذلك نروى الواقعةالتالية.

ففى أعقاب تأسيس "اللجنة الوطنية للعمال والطلبة" (وهى تجمع يسارى جماهيرى ضم ممثلين للشيوعين ويسار الوفد فى صفوف الطلاب والعمال، وقاد تحركا وطنيا واسعا ضد قوات الإحتلال، وقاد مظاهرات صاخبة فى ٢١ فبراير، ٤ مارس ١٩٤٦) وفى محاولة لتكريس الانشقاق عن هذ اللجنة ذات الطبيعة الجبهوية الواسعة، ولاثبات أن الإخوان (الذين انشقوا عن هذه اللجنة وأعلنوا تأسيس ماأسموه الجبهة القومية) يمتلكون تأييدا ما وسط العمال، نشرت جريده الإخوان فى ١٩ مارس ١٩٤٦ أنه قد تأسست لجان تابعة للجماعة فى مختلف مصانع منطقة شبرا الخيمة (كبرى المناطق الصناعية بالقاهرة) وتأسيس لجنة عليا لمندوبى هذه المصانع..

وعلى الأثر أصدرقادة اللجنة الوطنية العامة لعمال شبرا الخيمة (أحد القوى الأساسية المكونة للجنة الوطنية للعمال والطلبة) بيانا جاء فيه: (نشرت جريدة الإخوان المسلمين أنه قد تألفت لجنة فى كل مصنع من مصانع شبرا الخيمة، وتألفت لجنة عليا من هذه اللجان،والحقيقة أنه لم تتألف لجان برغم المساعى الشديدة لهذه الجماعة، ولقد ذهبنا نحن ممثلى العمال بشبرا الخيمة إلي دار الإخوان المسلمين لنعرف السبب فى هذه المحاولات التى تتم فى مواجهه نقابات العمال فلم نظفر بجواب مقنع بل وجدناهم يتكلمون بلغة المستعمر وأصحاب الأعمال. وأمام هذا أعلنا لهم عدم موافقتنا على تشكيل أى لجنة.. وهذه حقيقة نعلنها للرأى العام"(٣٥).

كذلك أصدر التشكيل النقابى الأساسى فى مصر فى ذلك الحين "مؤتمر نقابات عمال الشركات الأهلية" بيانا جاء فيه:

"دأبت جماعة الإخوان المسلمين منذ فجر البعث الوطنى الحالى على بث الدسائس وتدبير المؤامرات التى ترمى فى مجموعها إلى القضاء على الحركة الوطنية أو تحويلها عن أهدافها مما لايخدم غير الاستعمار. ولما كانت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة هي اللجنة الشرعية الممثلةللطلبة والعمال والموظفين،والمنتخبة انتخابا حرا ديمقراطيا، والمنظمة لكفاح طوائف الشعب حتي يقضى على الاستعمار.. فقد دبر الإخوان مؤامراتهم خاصة ضد اللجنتوبدأوا فى إعلان تكوين لجان خاصة بهم وسط العمال.. ويعلن المؤتمر أنه والهيئات العمالية الأخري وهم يضمون العمال فى أنحاء القطر لا يؤيدون غير اللجنة الوطنية للعمال والطلبة،ويحذرون الزملاء العمال من الانضمام إلى أية لجنة تؤلفها جماعة الإخوان المسلمين وكل عامل ينضم إلى أى لجنة من لجانها لا يمثل إلا نفسه.

- لتحيا اللجنة الوطنية للعمال والطلبة.
- لتسقط الفاشية.
- ليسقط الاستعمار"(٣٦).

وقد أثبتت الأحداث اللاحقة أنه لاصحة لما أعلنته جريدة الجماعة من تأسيس لجان فى المصانع بشبرا الخيمة تابعة للجماعة إذ لم يبرز أى نشاط لهذه اللجان،وإن كانت الجماعة قد ظلت تمتلك تواجدا محدودا فى مصانع هذه المنطقة.

ويؤكد مؤلفا "العمال على ضفاف النيل".

"أن قادة عمال النسيج فى شبرا الخيمة الذين تمسكوا بالخط السياسى للجنة الوطنية للعمال والطلبة لم يخفوا عداءهم لمحاولات التسلل الإخوانية

فى صفوفهم(٣٧).

إن موجة العداء التى تصاعدت ضد الإخوان لم تكن فقط بسبب الممارسات السياسية المعادية للمشاعر الوطنية، والتى وقفت بالإخوان فى صف رئيس الوزراء الطاغية إسماعيل صدقى وضد حركة الجماهير الشعبية المعادية للاستعمار بقيادة اللجنة الوطنية للعمال والطلبة، وإنما كانت بسبب ممارسات محددة ضد مصالح العمال المباشرة..

وكنموذج لهذه الممارسات يذكر الباحثون فى تاريخ هذه الفترة.. إضراب شبرا الخيمة الشهير. ففى سبتمبر ١٩٤٥ قاد الشيوعيون إضرابا شاملا وناجحا فى منطقة شبرا الخيمة حيث توقفت كل مصانع المنطقة عن العمل، وتشكلت قيادة سرية للإضراب عجز البوليس عن الوصول اليها.. وفى البداية أيدت الجماعة الإضراب لكنها مالبث أن انسحبت منه وبدأت حملتها ضده بل لقد أرسلت وفودا من دعاتها إلي المنطقة لاقناع العمال بالعدول عن الإضراب بحجة "أن الدين يحرم الإضراب لأن فيه خسارة لأصحاب المصانع من المسلمين"(٣٨).

وعاد عمال شبرا الخيمة إلى الإضراب من جديد، فى إضراب أكثر شمولا وأكثر تنظيما استمر طوال شهري مايو- يوليو ١٩٤٦.. ومنذ البداية وقف الإخوان ضد الإضراب..

واتهم قادة الإضراب- وأيدتهم فى ذلك صحف حزب الوفد- أعضاء جماعة الإخوان" بأنهم قد سلموا البوليس قوائم بأسماء وعناوين القادة السريين للإضراب. ونتيجة لهذه المعلومات ألقى القبض على أكثر من مائة من القادة العماليين" (٣٩) .

لكن الإضراب استمر رغم ذلك.

وصمم أصحاب المصانع على عدم السماح للعمال بالعودة للعمل إلا إذا

تعهدوا كتابة بعدم العودة للإضراب.

وأيدت جريدة الإخوان ذلك ودعت العمال "إلى إنهاء الإضراب والتوقيع على التعهد الذى طلبه منهم أصحاب المصانع ومكتب العمل بعدم اللجوء إلى سلاح الإضراب فى المستقبل" وقالت الجريدة أنها" تؤمل بعد عودة العمال للعمل وتوقيعهم على التعهد المطلوب أن تعمل الحكومة على حل مشاكل العمال"(٤٠).

بل إن جريدة الجماعة تواطأت مع السلطات فى محاولة تخريب الإضراب فنشرت خبرا غير صحيح يستهدف تصفية الإضراب فقالت "أن وفدا من عمال شبرا الخيمة أعلن اعتزام العمال إنهاء الإضراب(٤١).

وردت عليها أحد صحف حزب الوفد ببيان لقيادة الإضراب نفت فيه هذه الواقعة،وأكدت أن الإخوان يتجسسون فى صفوف العمال لحساب البوليس(٤٢).

وواصلت صحيفة الجماعة الدفاع عن موقف معلن وصريح يستهدف تصفية الإضراب وأكدت أن منظمى الإضراب "مهيجون محترفون"(٤٣).

وعندما انتهى الإضراب وبدأت الحكومة وأصحاب العمال هجومهم العام على العمال وصدر قرار بحل نقابة العمال بالمنطقة، قرر العمال الامتناع عن تشكيل نقابة جديدة واللجوء إلى القضاء لطلب إلغاء قرار الحل. وكان معلوما بوضوح أن تشكيل نقابة جديدة يعنى شطب القضية، ولكن الإخوان أعلنوا تشكيل نقابة جديدة لعمال شبرا الخيمة ووجهوا بذلك ضربة شديدة للتقاليد النقابية..(٤٤).

وقد أكد العمال رفضهم لهذه الخطوة بمقاطعتهم لهذه النقابة التى لم يزد عدد أعضاؤها عن ٢٠٠ عضو فقط(٤٥).

ولعل هذه الممارسات كانت كافية تماما لعزلة الخط الإسلامى عن جماهير

العمال برغم جاذبية الدين وتغلغله الشديد فى صفوفهم. وفى هذا الصدد يقول مؤلفا "العمال على ضفاف النيل":

"إن الظروف الموضوعية للطبقة العاملة وأسلوب وتصرفات جماعة الإخوان المسلمين فى صفوف هذه الطبقة قد لعبت دورا حاسما فى فرض محدودية واضحة لدور الإسلام السياسى فى حركة العمال المصرين"(٤٦).

ويؤكد Mitchell ذلك أيضا قائلا أن عام ١٩٤٨ قد شهد تصفية شاملة لنفوذ الجماعةوسط العمال(٤٧)

لكن الإخوان وبرغم ذلك كانوا يمتلكون مقومات أخرى لتحقيق تواجد ما فى صفوف العمال، فالإخوان جماعة غنية حسنة التمويل ومن ثم بدأت فى تأسيس العديد من المصانع التي حرصت ألا يعمل فيها إلا أعضاء فى الجماعة.. وفى سبتمبر ١٩٤٨ أسست الجماعة "مصنع الإخوان المسلمين للغزل والنسيج بشبرا الخيمة" ونظرا للأهمية البالغة لمنطقة شبرا الخيمة فقد تولى إدراة المصنع محمد شريف رئيس قسم العمال بالجماعة وكان المصنع يضم ٤٠ آلة و٦٠ عاملا(٤٨).

ولم يكن هذا المصنع وحده، ففى ديسمبر ١٩٤٨ كانت الجماعة تمتلك الشركات التالية:

- شركة الإخوان للصحافة.
- شركة الإخوان للطباعة.
- شركة الاعلانات العربية.
- شركة المعاملات الإسلامية.
- الشركة العربية للمناجم والمحاجر.
- شركة التجارة والأشغال الهندسية.
- شركتالتوكيلات التجارية بالسويس.

- شركة مزرعة العركى (٨٠٠ فدان) (٤٩).

وكان العاملون بهذه الشركات جميعا يشكلون قاعدة مضمونة للجماعة، كما أن ثراء الجماعة (هناك تأكيدات عديدة بتمويل أجنبى) قد مكنها من إعطاء مزايا للعمال الأعضاء فيها، وتؤكد جريدة الإخوان أن "فرع شبرا الخيمة فى قسم العمال بالجماعة كان يصرف للعمال المتعطلين من أعضاء الجماعة كامل مرتباتهم".(٥٠).

ولعل مما يثير الدهشة أن يؤكد نقابى يسارى وهو محمد متولى الشعراوى أحد قاده النشاط النقابى فى شركة مصر للغزل الرفيع بكفر الدوار "أنه فى عام ١٩٤٨ وعندما بدأ نشاطه النقابى يتسبب فى تصادمه مع الشركة انضم للجماعة الإخوان وسدد اشتراك شهرين كى يحصل على ضمانة مالية لمستقبله"(٥١).

كذلك فقد استخدمت الجماعة مختلف أشكال الضغط لضم العمال لصفوفها،وتنشر أحد الصحف الوفدية "أن أحد رؤساء العمال فى شركة النيل بشبرا الخيمة وكان من الإخوان المسلمين حاول أن يضم أحد قادة العمال للجماعة فلما رفض فصله من العمل، وهنا قام العمال بالاعتصام فى المصنع مطالبين بعودة زميلهم للعمل"(٥٢).

ويقرر القادة النقابيون فى شبرا الخيمة أنه فى أعقاب إسهام الإخوان فى افشال الإضراب الكبير (١٩٤٦) بدأ أصحاب المصانع فى تعيين العديد من الإخوان كرؤساء للعمال ليضمنوا خصومتهم لأى توجه يسارى وسط العمال..

وقد مكن ذلك الجماعة من استقطاب عدد محدود من العمال وإن كان قد أكسبها كراهية ونفورا وسط الجموع العمالية.

ولعل أحد الأدلة الهامة على ضعف النشاط العمالى للجماعة أن المذكرة

التفسيرية للأمر العسكرى الصادر بحل الجماعة فى ١٩٤٨ تتحدث عن نشاط الجماعة تفصيلا فتشير إلى نشاطها وسط الطلبة والموظفين والفلاحين ولا إشارة واحدة للنشاط وسط العمال.. إن ثلاثة عشر بندا تتضمنها المذكرة تذكر تفصيلا أنشطة الجماعة فى مختلف مناحى الحياة.. ولاإشارة واحدة للعمال(٥٣).

ويفسر البعض ذلك بأن نشاط الجماعة وسط العمال كان دوما فى خدمة أجهزة الأمن وبالتنسيق معها.

وعندما عادت الجماعة للنشاط فى نهاية ١٩٥٠ حاولت أن تتخطى أخطاء الفترة السابقة، وأن تواكب المد الثورى الملتهب والذى اتخذ منحى ثوريا.. وأن تتكلم بلغته كى تكسب موقعا ما وسط صفوف العمال..

فكتب سيد قطب كثيرا عن اشتراكية الإسلام.. وتنشر مجلة "الدعوة" مقالات ملتهبة تهاجم الرأسماليين (لأول مرة) وتدافع عن حق العمال فى الإضراب (بعد أن أكدوا من قبل أنه ضد تعاليم الإسلام).. وثمة مقال لمحمد الفولى بعنوان "أيها الرأسماليون لاتحاربوا النقابات"يهاجم فيها قانون ١٩٤٠ لأنه يحرم تكوين اتحادات عمالية كما أنه يحرم العمال من حق الإضراب الذى هو سلاحهم الوحيد فى مواجهةبطش الرأسماليين بهم وبحقوقهم"(٥٤).

لكن هذا التطور الجديد لم يستمر سوى فترة قصيرة جدا ولم يثمر نفوذا ماوسط العمال.. وبدت الجماعة وكأنها تفقد أملها في هذه الطبقة وفى وجود نفوذ حقيقى لها فى صفوفها.. ومن ثم راهنت ومن جديد على القوى الأخرى.

وعندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، كانت تتنازعها مواقف متعددة إزاء قضية الطبقة العاملة، واختار الإخوان الإنحياز إلى أكثر العناصر محافظة وعداء لحقوق العمال..

وفي الأيام الأولى للثورة تولى د. محمد فؤاد جلال وزارة الشئون الاجتماعية وهو معروف بأنه من رجال "جمعية الفلاح" ذات التوجه اليمينى الواضح، وكان يشرف على أعمال الوزارة من قبل مجلس الثورة الضابط المعروف بتوجيه اليمينى وعلاقاته الوثيقة بالسفارة الأمريكية عبد المنعم أمين (وكان أيضا رئيس المحكمة العسكرية التى حاكمت العاملين خميس والبقرى بتهمة تنظيم إضراب فى كفر الدوار وحكمت عليهما بالإعدام) ومع هذين الاثنين بالتحديد عمل كمساعد ومستشار للشئون العمالية سيد قطب أحد قادة الإخوان المسلمين..

ويروى فتحى كامل وهو قائد نقابى مخضرم كيف أنه ذهب إلى وزارة الشئون الاجتماعية ليتفاوض بشأن تكوين اتحاد عام للعمال.. وحضر الاجتماع الوزير محمد فؤاد جلال، والضابط عبد المنعم أمين عضو مجلس قيادة الثورة وشخص لم يعرفه أول الأمر ثم عرف فيما بعد أنه سيد قطب.. ويقول فتحى كامل أن سيد قطب كان أكثر الحاضرين رفضا لفكرة الاتحاد العام وأكد أن النقابات بحاجة أولا إلى أن تطهر صفوفها من الشيوعيين"(٥٥) ولعله من الضرورى الإشارة إلى أن الجماعة بينما كانت تتخذ من خلف الستار مواقف معادية للعمال، كانت وفى هذه الفترة بالذات- وكما رأينا من قبل- تتخذ موقف المزايدة على الجميع مدعية الدفاع عن العمال.

وكأن من الضرورى أن يتواجه اليسار والإخوان فى كل موقع عمالى.. فعلى أثر التداخل الصريح لممثل الجماعة لدى وزير الشئون الاجتماعية فى فرض توجهات معادية للعمال ومنها الإصرار على بقاء المادة ٣٩ من قانون عقد العمل الفردى التى كانت تجيز الفصل التعسفى للعمال.. قدم خالد محى الدين أحد القادة اليساريين البارزين بحركة الضباط وعضو مجلس قيادة

الثورة استقالته من المجلس احتجاجا.. وجاء فى خطاب استقالته "إننى قد فقدت القوة الدافعة على العمل نتيجة أننى أرى أن أقل ما كانت تصبو اليه نفسى من أفكار ومبادىء لا أستطيع تنفيذها.." ويعلن فى الاستقالة رفضه لهذه المادة" التى أعتبرها ظلما فادحا على فئة العمال التى تعتبر العمود الفقرى لأى أمة تريد أن تبنى مكانها اللائق بين الأمم"(٥٦).

ومرة أخرى يهزم التوجه الإخوانى إزاء العمال فقد استطاعت استقالة خالد محى الدين أن تستقطب إلى جانبه جمال عبد الناصر الذى كان متغيبا عن الجلسة التى وقع فيها الصدام.. وعقدت جلسة جديدة وتم اتخاذ موقف جديد ويدأ نفوذ سيد قطب يتقلص فى مجال وزارة الشئون الاجتماعية وما لبث أن أبعد عن موقعه..

ولعل مواقف كهذه قد انعكست بالسلب أيضا على علاقة الإخوان بالعمال..

ويمكن القول أن هذه العلاقة ظلت وحتى الآن محدودة، فبرغم تصاعد المد الإسلامى وتزايد نفوذ الجماعات الإسلامية ومنها الإخوان المسلمين وسط فئات المجتمع المختلفة، وبرغم تزايد نفوذ الإخوان المسلمين فى عدد من النقابات المهنية (المهندسين- الأطباء) فإن المرشحين الإسلاميين قد فشلوا فشلا ذريعا فى انتخابات النقابات العمالية الأخيرة.

ولعل ذلك كله ليس منفصلا عن مجمل مواقف الجماعة سواء الايديولوجية منها أو العملية.

جـ - الإخوان المسلمون والعمال (مصر) ١٩٢٨- ١٩٥٢

1- Vatikiotis - The Modern History of Egypt - P. 323.

2- Grunbaum, Gustave von - Modern islam, The Search for Cultural identity P. 188.

30 Wheellook, Kwith - Nasser's New Egypt - (1960) - P. 3.

٤- لمزيد من التفاصيل راجع- د. رفعت السعيد- تاريخ الحركة الشيوعية المصرية- الجلد الاول.

٥- لمزيد من التفاصيل راجع- حسن البنا- مذكرات الدعوة والداعية.

٦- خاطرات جمال الدين الأفغاني- (أملاه على محمد باشا المخزومي) ص ١٦١.

٧- رشيد رضا- تفسير القرآن الكريم- (١٣٦٧ هـ المجلد ٣- ص ١٠٧.

٨- الشيخ محمد الغزالي- الإسلام والأوضاع الاقتصادية- (١٩٥٢)- ص٦٢.

٩- سيدقطب- مقال- مجلة المسلمون- مارس- ١٩٥٣.

١٠- الدعوة- العدد الاول- (١٩٥١).

١١- البرنامج التثقيفي لجماعة الإخوان المسلمين- محاضرة التثقيف الاقتصادي إعداد البهي الخولي.

١٢- حسن البنا- مجموعة الرسائل- ص ٤٢٠.

١٣- المرجع السابق- ص ٤٢٥.

١٤- د. زكريا البيومي- الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية- (١٩٧٩)- ص ٣٠٤.

١٥- صحف ١٩٥٢/٨/٢ نقلا عن: محمود عبد الحليم- الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ- جـ٣- ص ١٢١.

١٦- المرجع السابق- ص ٩٠.

١٧- الإخوان المسلمون- ١٩٤٦/٨/٢٤.

١٨- المرجع السابق.

19- Boehm, Jacob. les freres Musulmans - Monde non - chretien, XXVI June (1953) 211.

٢٠- الإخوان المسلمون- ١٩٤٦/٨/١٨.

21- F.O. 371- 73474 - J3567. (1949).

22- Beinin and Loekman - workers on the Nile - (1987) - interview with M. Sharif. P. 368.

٢٣- محكمة الشعب- الجزء الثاني- ص ٢٩.

24- for more detailes see- Badaoui, Zaki, les problemes du travail et les organisations ouvriers.

25- Mitchell. Richard- The society of the Muslim brothers- (1969) p 282.

26- see Beinin ibid. p. 365.

٢٧- حسن البنا- مذكرات الدعوة والداعية- ص٥٣.

٢٨- شبرا- ١٩٣٨/٨/٢٥.

٢٩- د. زكريا البيومي- المرجع السابق- ص ٣٠٥.

٣٠- النذير- ١٩ /٦ /١٩٣٩.

31- Beinin- ibid. p. 366.

٣٢- الإخوان المسلمون- ٢٨ /٦ /١٩٤٥.

٣٣- راجع: زكريا البيومي- المرجع السابق. - Mitchell - ibid Beinin ibid

٣٤- زكريا البيومي- المرجع السابق- ص ٣٠٦.

٣٥- محمد حسن أحمد (اسم سرى)- الإخوان المسلمون فى الميزان (١٩٤٦)- ص ٩٨.

٣٦- المرجع السابق- ص ١٠١.

37- Binin - ibid- p. 371.

٣٨- محمد حسن أحمد - المرجع السابق- ص-٩١.

٣٩- الوفد المصرى- ٣١ /٥/ ١٩٤٦.

٤٠- الإخوان المسلمون ٢ /٦/ ١٩٤٦.

٤١- الإخوان المسلمون ٢ /٦/ ١٩٤٦.

٤٢- الوفد المصرى ٣/٦/١٩٤٦.

٤٣- الإخوان المسلمون ٣ / ٦ / ١٩٤٦.

٤٤- الإخوان المسلمون ٥ / ٧ / ١٩٤٦.

٤٥- الجماهير ٥ / ٥ / ١٩٤٧.

46- Beinin - ibid P. 365.

47- Mitchell - ibid - P. 282.

٤٨- المصور ١١ / ١١ / ١٩٥٥.

٤٩- الإخوان المسلمون ١٣/ ٥ / ١٩٤٦.

٥٠- الوفد المصرى ٢١/ ٥ / ١٩٤٦.

51- Beinin - ibid P. 379.

٥٢- الأمر العسكرى رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ بحل جماعة الإخوان المسلمين ٨ ديسمبر ١٩٤٨- المذكرة التفسيرية المقدمة من عبد الرحمن بك عمار وكيل وزارة الداخلية.

٥٣- المرجع السابق.

٥٤- الدعوة ٢٨ / ٨ / ١٩٥١.

٥٥- أمين عزالدين- تاريخ الطبقة العاملة منذ نشوءها في سنة ١٩٧٠ ص ٨٠٩.

٥٦- رسالة خطية موجهة من خالد محيي الدين عضو مجلس الثورة إلى حضرة المحترم جمال عبد الناصر وكيل مجلس الثورة- مؤرخة ١/ ٣ / ١٩٥٣ (مسودة خطية).

مراجع الكتاب

أ- كتب عربية ومترجمة:

- الإخوات المسلمات، الرسالة الأولى.
- الإخوان والإرهاب.
- إبراهيم العدوى- رشيد رضا.
- أبو الأعلي المودودى- نظرية الإسلام السياسية.
- أبو الأعلى المودودى- المصطلحات الأربعة فى القرآن.
- أبو الأعلى المودودى- الحجاب.
- أبو الحسن الندوى- كيف دخل العرب التاريخ؟
- أبو الحسن الندوى- مذكرات سائح فى الشرق العربى.
- أحمد أنس الحجاجى- الإمام.
- أحمد أنس الحجاجى- روح وريحان.
- أحمد أنس الحجاجى- رسالة من المريخ.
- أحمد حمروش- قصة ثورة٢٣ يوليو.
- أحمد نار- القتال فى الإسلام.
- إسماعيل أحمد شافعى- الإخوان المسلمون، دعوة البعث والإنقاذ.
- أمين عزالدين- تاريخ الطبقة العاملة المصرية.
- أنور السادات- صفحات مجهولة.
- أنور السادات- أسرار السياسة المصرية.
- أنور عبدالملك- مصر: مجتمع جديد يبنيه العسكريون.

- أنور الجندى- قائد الدعوة،حياة رجل وتاريخ مدرسة.
- أنيس صايغ- الفكرة العربية فى مصر.
- تفسير الخطيب الشربينى.
- جرائم عصابة الإخوان (كتب قومية).
- جمال الدين الأفغانى- الرد على الدهريين.
- جمال سليم- البوليس السياسى يحكم مصر.
- جمال الشرقاوى- حريق القاهرة.
- جورج كيرك- موجز تاريخ الشرق الأوسط.
- حسن البنا- الرسائل الثلاث.
- حسن البنا- حتى يعلم الناس.
- حسن البنا- رسالة المؤتمر الخامس.
- حسن البنا- رسالة التعاليم.
- حسن البنا- بين الأمس واليوم.
- حسن البنا- تذكرة الداعى.
- خسن البنا- نظام الأسر، نشأته وأهدافه.
- حسن البنا- الإخوان المسلمون تحت راية القرآن.
- حسن البنا- مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى.
- حسن البنا- نحو النور.
- حسن البنا- دعوتنا فى طور جديد.
- حسن البنا- رسالة الجهاد.
- حسن البنا- المأثورات.
- حسن البنا- القول الفصل.
- حسين فوزى النجار- الإسلام والسياسة.

- رشيد رضا- كتاب الوحى.
- رشيد رضا- الخلافة أو الإمامة العظمى.
- رضوان محمد رضوان- المأثورات.
- رفاعة الطهطاوى- مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية.
- د. رفعت السعيد- مصطفى النحاس- السياسى، الزعيم، المناضل.
- د. رفعت السعيد- اليسار المصرى والقضية الفلسطينية.
- سامى الدهان- قدامى ومعاصرون.
- سيد قطب- السلام العالمى والإسلام.
- سيد قطب- من هنا نعلم.
- سيد قطب- العدالة الاجتماعية فى الإسلام.
- د. شبلى شميل- فلسفة النشوء والارتقاء.
- د. شبلى شميل- مجموعة كتاباته، الجزء الثانى.
- صلاح الشاهد- ذكرياتى فى عهدين.
- طارق البشرى- الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥- ١٩٥٢.
- عبد الباسط البنا- تاج الإسلام وملحمة الإمام.
- عبد الحكيم عابدين- البواكير (مجموعة شعرية).
- عبد الخبير الخولى- قائد الدعوة الإسلامية، حسن البنا.
- عبد الرحمن الرافعى- فى أعقاب الثورة المصرية.
- عبد الرحمن الكواكبى- طبائع الاستبداد فى مصارع الاستعباد.
- عبد الرحمن الكواكبى- أم القرى.
- د. عبد العظيم رمضان- تطور الحركة الوطنية فى مصر من ١٩٣٧ إلي ١٩٤٨.
- عبدالقادر عودة- الإسلام وأوضاعنا الاجتماعية.

- عبدالقادر عودة- الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه.
- عبد المجيد الباجورى- حسن البنا.
- د. على الحديدى- عبد الله النديم.
- على عبد الرازق- الإسلام وأصول الحكم.
- على فهمى كامل- سيرة مصطفى كامل.
- فتحى العسال- حسن البنا كما أعرفه.
- فتحى غانم- الرجل الذى فقد ظله (رواية).
- كامل إسماعيل شريف- الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين.
- كمال كيرة- محكمة الشعب.
- لطفى عثمان- قضية مقتل النقراشى باشا.
- د. لويس عوض- تاريخ الفكر المصرى المعاصر.
- ليوناردو مايندر- الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط.
- مارسيل كولومب- تطور مصر ١٩٢٤- ١٩٥٠.
- محمد التابعى- هؤلاء هم الإخوان.
- محمد جلال- مصريون لا طوائف.
- محمد حبيب أحمد- نهضة الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث.
- محمد حسن أحمد (اسم مستعار)- الإخوان المسلمون فى الميزان.
- محمد شوقى زكى- الإخوان المسلمون والمجتمع المصرى.
- محمد صبيح- مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية.
- محمد عودة- سبعة باشوات وصور أخرى.
- محمد عبدالغنى حسن- عبد الله فكرى.
- محمد الغزالى- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام.
- محمد الغزالى- الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين.

- محمد الغزالى- الإسلام والاستبداد السياسى.
- محمد فهمى الطماوى- المجاهدون.
- محمد لبيب البوهى- الإيمان والرجل.
- محمد لبيب البوهى- مع شهداء الإسلام.
- مصطفى مؤمن- صوت مصر.
- مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين.
- موسى اسحق الحسينى- الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة.
- ولى الدين يكن- المعلوم والمجهول.
- ولى الدين يكن- التجاريب.
- د. يونان لبيب رزق- الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢.

ب- وثائق ومذكرات وأوراق قانونية ورسائل عملية غير منشورة.

- الإخوان المسلمون- قضية سيارة الجيب- الحيثيات ونص الحكم.
- القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٣٨ (الخاص بقيام المنظمات شبه العسكرية).
- السيد محمد عشماوى- تاريخ الفكر السياسى المصرى ١٩٤٥- ١٩٥٢ (رسالة دكتوراة- غير منشورة).
- آمال محمد كامل بيومى- التيارات السياسية فى مصر ١٩٤٥- ٩٥٢ (رسالة ماجستير- غير منشورة).
- جمال الدين الأفغانى- خاطرات جمال الدين- أملاه على محمود باشا المخزومى.

- حسن البنا- مذكرات الدعوة والداعية.
- دستور ١٩٢٣.
- عبد الغنى عابدين- تقرير عن النشاط الكشفى بجماعة الإخوان المسلمين.
- قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين العامة.
- قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين وشعبها طبقا للتعديل الذى أقرته الجمعية العمومية باجتماعها غيرالعادى (٣٠ يناير ١٩٤٨).
- من مذكرات شيخ الإسلام الظواهرى- السياسة والأزهر- بقلم الدكتور فخر الدين الأحمدى الظواهرى.
- محكمة الشعب، المضبطة الرسمية لمحاضر محاكمات الإخوان المسلمين (١٩٥٤) ستة أجزاء.
- محاكمات الثورة- المضبطة الرسمية- الكتاب الأول- محاكمة إبراهيم عبد الهادى.
- محاضر جلسات المحكمة العسكرية العليا فى القضية رقم ٢٧٣ لسنة ١٩٤٥ والخاصة باغتيال أحمد ماهر باشا.
- محضر تحقيق قضية الاغتيالات السياسية الخاصة بالخازندار بك.
- ملف قضية الاغتيالات السياسية الخاصة باغتيال أمين عثمان باشا.
- محضر تحقيق النيابة فى القضية ٥١ لسنة ١٩٤٩ والخاصة بمقتل محمود فهمى النقراشى باشا.
- محضر تحقيق النيابة فى قضية الجناية ١٠٧١ لسنة ١٩٥٢ الخاصة باغتيال حسن البنا.
- مرافعة أحمد حسين المحامى فى قضية اغتيال محمود فهمى النقراشى باشا.
- د. محمد حسنين هيكل- مذكرات في السياسة المصرية.

جـ - دوريات عربية:

- الأخبار ١٩٠٩.
- الأخبار ١٩٢٤.
- الأخبار ١٩٧٣.
- الإخوان المسلمون (الأسبوعية) (١٩٤٤- ١٩٤٥).
- الإخوان المسلمون (اليومية) (١٩٤٦- ١٩٤٨).
- الأهرام .١٩٣- ١٩٣٧- ١٩٤٦- ١٩٦٧- .١٩٧.
- الإذاعةوالتليفزيون- ١٩٧١.
- الاعتصام- ١٩٧٦.
- آخر ساعة- (١٩٤٦- ١٩٤٨).
- اسرائيل- ١٩٣١.
- البصير- ١٨٩٨.
- الجمهورية- ١٩٥٤.
- الدعوة- (١٩٥١- ١٩٥٥)- (١٩٧٧).
- الدستور- ١٩٣٩.
- الرسالة- ١٩٥٢.
- السياسة الدولية- ١٩٧١.
- الشباب- ١٩٤٧.
- الشهاب- ١٩٤٧.
- الكاتب- ١٩٧٤.
- المباحث- (١٩٥٠. ١٩٥١).
- المصرى- (١٩٣٧- ١٩٤٨).

- المصور- (١٩٥٠- ١٩٥٤).
- المقتطف- ١٨٦٧.
- النذير- ١٩٣٨.
- الهلال- ١٩٦٨- ١٩٧٧.
- روز اليوسف- ١٩٥١- ١٩٧٧.
- صباح الخير- ١٩٧٧.
- صوت الأمة- ١٩٤٦.
- مصرالفتاة- ١٩٣٩- ١٩٤٦.
- مصر- ١٩٤٧.

د- مراجع أجنبية:

- Adams- Islam and Modernism in Egypt.
- Ahmed, J.- The intellectual origins of Egyptian Nationalism.
- Badaoui, Zaki- Les problèmes du Travial et les organisations ouvrieres en Egypte.
- Berger, M.- The Arab World today.
- Gibb, H.A.R. - Modren trends of Islam.
- Florence Elliot and Michael Summerskill- A Dictionary of Politics.
- Blunt, W. - Secret History of English occupation of Egypt.
- Boehm- Les Frères Musulmans.
- Harris, Christina- Nationalism and Revolution in Egypt, The role of

Muslim Brotherhood.

- Heyworth- Dunne, J.- Religious and Political trends in Egypt.
- Hourani, Albert- Arabic thought in the liberal age 1798- 1939.
- Kamel, M. Egyptians et Anglais.
- Khadduri, M. - Political trends in Arab World.
- Mitchelll R.- The Society of Muslim Brothers.
- Resner, Lawrence- Eternal Stranger: The plight of Modren Jew from Baghdad to Casablanca.
- Safran, Nadav- Egypt in search of political community.
- Smith, Wilfred Cantwell- Islam in the modren history.
- Vatikiotis, O.J. - Egyptian Army in Politics.
- Vatikiotis, P.J. - The Modren History of Egypt.
- Von Grunebaum- Modren Islam: The search of Cultural Identity.
- Weelock, Keith- Nasser's New Egypt.

هـ - دوريات أجنبية

- Cahiers de l'orient contemporain- 1949.
- Middle East Journal- 1949.
- Reporter- 1953.
- National and English Review- 1952.
- New Middle East- 1973.
- Twentieth century - 1952.

صـــدر مـــن
كتاب الأهـــالـــى

١- خالد محيى الدين: مستقبل الديمقراطية فى مصر

- إطلالة على التاريخ وتحليل للواقع واستشراف للمستقبل، لا يروى من تاريخ الديمقراطية المصرية إلا تلك الخطوط العريضة التى تمكن قارئه من الإمساك بمفاتيح مشكلة الديمقراطية فى مصر قبل ثورة يوليو وأثنائها.

(١٢٣ صفحة - صدر فى مارس ١٩٨٤ - نفد)

٢ -د.محمد أحمد خلف الله: الأسس القرآنية للتقدم

- دراسة تنطلق من رؤية تقول إن القرآن الكريم هو الكتاب الذى أنزله الله على نبيه ليبلغه للناس، بلاغاً مضمونه هو مطالبة المجتمع أولا - وقبل كل شيئ - بإحداث تغييرات جذرية، فى الآراء والمعتقدات وفى التقاليد والعادات والقيم.

(١٤٤ صفحة - صدر فى يونيو ١٩٨٤ - الثمن ٥٠ قرشا)

٣-د.إبراهيم العيسوى:
فى إصلاح ما أفسده الانفتاح

- استعاض لما أفسدته سياسة الانفتاح الاتصادى فى مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة وتناول لعدد مختار من المشكلات ذات الطابع الاقتصادى بمنظور مجتمعى متكامل وشامل ويعنى بتقديم بعض الحلول التى يمكن تنفيذها دون تغير جذري، لكنه لا يهمل قضية التغيير الاجتماعى المطلوب على المدى الأبعد.

٤ - د. سعيد إسماعيل على:
"محنة التعليم فى مصر"

- استعراض للمشكلات التى يعانى منها التعليم المصرى، مما يعوقه عن أن يكون أداة فعالة فى تطوير المجتمع وتقدمه ويدق ناقوس الخطر ليستحث همم الجميع سعياً وراء تجاوز المحنة التى يمر بها التعليم المصرى.

(٢٦٤ صفحة - صدر فى نوفمبر ١٩٨٤ - الثمن جنيه واحد)

٥ - فريق من خبراء الاقتصاد بالتجمع: دعم الأغنياء ودعم الفقراء

- النص الكامل للتقرير الذى رفعه التجمع للرئيس مبارك حول رأى الحزب فى مشكلة الدعم، وهو معالجة موضوعية رصينة اشترك فى إعدادها كوكبة من ألمع العقول الاقتصادية فى مصر، هم الدكاترة "إبراهيم سعدالدين" و"ابراهيم العيسوى" و"إسماعيل صبرى عبدالله" و"جودة عبدالخالق" و"فؤاد مرسى" و"محمود عبدالفضيل".

(١٦٨ صفحة- صدر فى إبريل ١٩٨٥- الثمن ٥٠ قرشا)

٦ - فيليب جلاب: هل نهدم السد العالى؟

- مواجهة صريحة للحملة التى استهدفت اتهام السد العالى، بأنه سبب كل كوارث مصر، وتحليل لأهداف تلك الحملة، التى اكتشف أصحابها فيما بعد، وبخجل قليل أن السد العالى هو الذى حمى مصر من الجفاف والتصحر.

(١٤٤ صفحة - صدر فى يونيو ١٩٨٥ - الثمن ٥٠ قرشل)

٧-ديفيد لاندز/ترجمة وتقديم د. عبدالعظيم أنيس: بنوك وباشوات

- واحد من أخطر الكتب الأمريكية، التى تعتمد على وثائق عثر عليها مؤلفه فى أرشيف سرى، تكشف جانبا خطيرا من قصة النهب الأوروبى لثروة مصر فى عهد أسرة محمد على، والوصول بها إلى مرحلة الخراب ثم الاحتلال، قدم له المترجم، بدراسة بعنوان "الخراب الحديث لمصر المحروسة".

(٣١٦ صفحة - صدر فى أغسطس ١٩٨٥ - الثمن ١٢٥ قرشا)

٨ - فريق من المتخصصين فى السياسة الدولية: محاكمة ريجان

- مختارات من الأبحاث التى قدمها فريق من المتخصصين فى الشئون الدولية ينتمون لجنسيات شتى، إلى محاكمة أدارتها منظمة التقدم العالمى، حول جرائم عهد ريجان، ترجمها وقدّم لها "بيومى قنديل" وراجعها وعلق عليها "محمد سيد أحمد".

(٢٢٤ صفحة - صدر فى أكتوبر ١٩٨٥ - الثمن جنيه واحد).

٩ - د. سعيد إسماعيل على: إنهم يخربون التعليم

- يستكمل المؤلف فى هذا الكتاب دراسة عدد آخر من مشكلات التعليم فى مصر التى ناقض بعضها فى كتابه "محنة التعليم فى مصر من خلال نظرة مجتمعية تربط التعليم عضويا بالبنية الأساسية للمجتمع.

(٢٦٨ صفحة - صدر فى يناير ١٩٨٦ - الثمن جنيه واحد)

١٠ - ثلاثة مؤلفين إسرائيليين: حدث فى كامب ديفيد

- يروى هذا الكتاب القصة السرية لمبادرة السلام الساداتية على لسان ثلاثة من الصحفيين الإسرائيليين الذين أتيح لهم أن يطلعوا على كثير من أ«رار ما جرى بين السادات ومعاونيه، وبين الطفين الأمريكى والإسرائيلى فى مفاوضات كامب ديفيد.

- والمؤلفين الثلاثة هم: "ايتان هابر" - المراسل العسكرى لصحيفة "يديعوت احرونوت" و"زيف شيف" - المحلل العسكرى لصحيفة "هاآرتس" و"ايهود يعارى" - رئيس الشئون العربية فى التليفزيون الإسرائيلى، وقد وثق مترجم الكتاب "إبراهيم منصور" الرواية الإسرائيلية فقارنها بما كتبه اثنان من وزراء خارجية مصر، هما "إسماعيل فهمى" و"محمد إبراهيم كامل" . . .٣, مسئولين أمريكيين هم: "جيمى كارتر" و"وليام كوانت" و"بريزنسكى" ومسئولان إسرائيليان هما: "موشى ديان"، "ايرزفايتسمان".

(٧٥٢ صفحة - صدر فى يوليو ١٩٨٦ - نفد)

١١ - لطفى الخولى: مدرسة السادات السياسية واليسار المصرى

- توصيف وتحليل للخلاف الجذرى بين رؤية السادات السياسية رؤية فصائل اليسار المصرى، للقضايا الرئيسية التى تتعلق بمستقبل الشعب والوطن والأمة، يستند الكتاب إلى مجموعة لقاءات جمعت بين المؤلف والسادات خلال العام ١٩٧٤ وما قبله، وهو يعتبر نبوءة مبكرة لما آل إليه حال السادات وإنتهى بفاجعة المنصة.

(٣٢٠ صفحة - صدر فى نوفمبر ١٩٨٦ - نفد)

١٢ - محمد إبراهيم كامل : السلام الضائع فى كامب ديفيد

- أخطر المذكرات السياسية التى صدرت فى التاريخ العربى المعاصر وتكشف جانبا من أسرار المفاوضات التى انتهت بتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد، وأدت إلى خروج مصر من المواجهة مع العدو الصهيونى.

- وتكمن قيمة هذه المذكرات فى أن صاحبها استقال من منصبه كوزير للخارجية المصرية بعد تسعة شهور فقط. قدم للطبعة المصرية فتحى رضوان.

(٦٦٤ صفحة - صدر فى يناير ١٩٨٧ - الثمن خمسة جنيهات).

١٣ - بهجت: حكومة وأهالى وخلافه

- مختارات من رسوم الكاريكاتير التى ينشرا على صفحات الأهالى فنان الكاريكاتير اللامع "بهجت عثمان" وعالجت ثنائية "حكومة وأهالى" الشهيرة. قدم لها "صلاح عيسى" بدراسة عن نشء وتطور فن الكاريكاتير فى مصر ..

(١٦٠ صفحة - طباعة فاخرة - لونان - صدر فى مارس ١٩٨٧ - الثمن ٣٥٠ قرشا).

١٤ - خليل عبد الكريم: لتطبيق الشريعة لا للحكم

- يناقش المؤلف - وهو أحد كتاب اليسار الإسلامى اللامعين - فى هذا الكتاب التفسير الشائع على ألسنة المطالبين بتطبيق الشريعة للآيات التى يستندون إليها فى هذه المطالبة، كما يناقش مطلبهم بتطبيق الحدود الإسلامية فورا، وفى ظل الظروف الاجتماعية التى تسود المجتمعات الإسلامية الآن ..

(١٢٨ صفحة - صدر فى مايو ١٩٨٧ - الثمن ٥٠ قرشا).

١٥ - د. غالى شكرى: الثورة المضادة فى مصر

- تحليل علمى، ومتابعة دقيقة للجذور الاقتصادية والاجتماعية التى بذرت ببذور الثورة المضادة فى مصر، وأدت إلى نضوج ثمارها من خلال رؤية تقول إن انقلاب السادات فى مايو ١٩٧١ كان نتاجا طبيعيا لأخطاء وتشوهات فى الرؤية والممارسة وقعت فيها الحقبة الناصرية، التى زحفت الثورة المضادة على إنجازاتها وسلطتها.

(٥٣٦ صفحة - صدر فى سبتمبر ١٩٨٧ - الثمن خمسة جنيهات)

١٦- من كتّاب وفنانى "الأهالى" : لهذا نعارض مبارك

- يتضمن هذا الكتاب ٩٤ مقالا وعشرات الرسوم الكاريكاتورية التى نشرت على صفحات جريدة الأهالى بين مايو ١٩٨٢ وأكتوبر ١٩٨٧، وتناولت حوارا أو إختلافا أو معارضة لممارسات وأقوال، كان طرفها الثانى هو الرئيس مبارك، وهو تسجيل أمين لتطور موقف حزب التجمع من إدارة الرئيس مبارك.

(٥١٢ صفحة - صدر فى أكتوبر ١٩٨٧ - الثمن ثلاثة جنيهات).

١٧ - كامل زهيرى: النيل فى خطر

- صرخة وطنية تحذر من مخطط إسرائيلى يريد تحويل مياه النيل عبر سيناء صحراء النقب، وتنبه إلى الحلم الصهيونى القديم (١٩٠٣) الذى أصبح مشروعا جديدا (١٩٨٠) يقدم تفاصيل المشروعين عبر حقائق ووثائق وقد أضاف إليها كبرى المعارك بين عامى ١٨٧٩ و ١٩٨٠ دفاعا عن النيل ضد الأطماع الصهيونية (٢٨٠ صفحة - صدر فى يناير ١٩٨٩ - الثمن ٣ جنيهات).

١٨ - محمد عبد السلام الزيات : السادات . . القناع والحقيقة

- كان محمد عبدالسلام الزيات فى بؤرة الأحداث إلى جانب السادات. لكن عندما اكتشف الناس الخديعة، كان "الزيات" أول المخدوعين. فانبرى يعارض السادات، حتى أصدر كتابه: "مصر إلى أين؟". فأمر السادات بمصادرة الكتاب.

وملاحقة الكاتب، حتى أودعه السجن ضمن حملة سبتمبر ١٩٨١. وخرج "الزيات" من السجن وقد عقد العزم على أن يزيح القناع عن وجه السادات نفسه. ولولا ذلك ما كان هذا الكتاب، فجاء شيئا متميزا.

(٣٦٣ صفحة - صدر فى فبراير ١٩٨٩ - الثمن ٣,٥ جنيه).

١٩ - د. إبراهيم سعد الدين: أزمة النظام الاشتراكى

يطرح الكتاب بعض الملاحظات ول بعض القضايا الأساسية للإدارة السياسية

للمجتمعات الاشتراكية وينتهى بخاتمة تتضمن تلخيصا لأهم الدروس التى يمكن أن تخرج بها الحركة التقدمية العربية من الوعى والمعرفة والإلمام بتجارب من سبقوها بما فيها من إيجابيات وسلبيات ويدعو إلى مناقشة وحوار ما جاء من آراء لتصويبها وتصحيحها.

(٢٠٤ صفحة - صدر فى مارس ١٩٨٩ - الثمن ٢,٥ جنيه).

٢٠ - د. فؤاد مرسى:
نظرة ثانية إلى القومية العربية

يقدم الكتاب العالم العربى فى أزمته المستحكمة. وهى أزمة بمعنى معين هو أن أغلبها جرى ويجرى فى هذا العالم منذ هزيمة ١٩٦٧ يعارض حركة التاريخ. فالقومية العربية حركة تاريخية تعبر فى الواقع عن حتمية تاريخية موضوعية هى حتمية انتصار حركة التحرر الوطنى العربية، لكن هذه الحتمية التاريخية لا تصنع نفسها بنفسها، وإنما تحتاج لنضال البشر الواعى كى تتحقق.

(١١٨ صفحة - صدر فى إبريل ١٩٨٩ - الثمن جنيه ونصف).

٢١ - د. إبراهيم العيسوى (تحرير) خطة التنمية الحكومية - الأحلام والواقع والبديل الجاد

انتهت فى ٣٠ يونيو ١٩٨٧ الخطة الخمسية الأولى، وبدأت خطة خمسية جديدة تنتهى فى ١٩٩٢ - وتقوم خطة التنمية الحكومية على استراتيجية غير مكتوبة، هى استراتيجية استمرار التبعية الاقتصادية والمالية وليست استراتيجية التغيير، مع التمويه بأهداف لا تقدر الخطة على إنجازها بالاعتماد على الذات وزيادة التمويل المحلى.

ولما كانت الخطط تحدد اتجاهات العمل الوطنى فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية فإنه يصبح من أوجب الواجبات الوقوف عند هذه الخطط لتقييم نتائجها والتعرف على محتواها. وتفرض مسئولية العمل الوطنى عدم الاكتفاء بتعدد الخطط والسياسات، وإنما تتطلب التقدم باقتراحات إيجابية تكفل للمجتمع والاقتصاد بحركة أسرع وبأسلوب أكثر كفاءة وعدالة نحو حل المشكلات الحالية

ومواجهة التحديات المستقبلية.

وإذا كانت الخطة السابقة - استمراراً لنفس السياسة - قد وضعت أساس التحول الكامل إلى السيطرة الرأسمالية، فإن الخطط الحالية تسلم قيادة الاقتصاد المصرى لهذه الرأسمالية التى يغلب عليها الطابع الطفيلي.

من هنا كان التقرير الذى أعده أثنا عشر خبيراً من خبراء التجمع (وهو محور هذا الكتاب) عن الخطتين الخمسيتين، يقدم بديلاً يساعد على اجتياز الأزمة الاقتصادية الراهنة، ووضع أسس لانطلاقة اقتصادية واجتماعية، تحقق التطلعات المشروعة للجماهير، وينتهى بتقدير لخطط الحكومة وسياساتها.

٢٢ - د.لطيفة الزيات:
نجيب محفوظ: الصورة والمثال

تقدم هذا الكتاب عن روائى عظيم هو نجيب محفوظ، ناقدة من أبرز وأهم نقاده، وهى الدكتور لطيفة الزيات أستاذ النقد الأدبى بكلية البنات جامعة عين شمس.

ويضم الكتاب مجموعة المقالات التى اندرجت فى التراث النقدى كأعمال لا يستغنى عنها أى دارس أو قارئ متعمق لنجيب محفوظ، وهى اللص والكلاب، الطريق، الشحاذ، والشكل الروائى عند نجيب محفوظ من اللص والكلاب إلى ميرامار . وفى كل من هذه المقالات تركز الناقدة على نص من النصوص بهدف إلقاء الضوء على عالم نجيب محفوظ فى مكتمله، وتبدأ من الجانب التقنى لتنتهى بتحديد العالم الفكرى والفلسفى الذى يصدر عنه النص.

وفى عدة مقالات نقدية تنشر لأول مرة فى هذا الكتاب تحاول الناقدة استكمال ما بدأت تعريف طبيعة المنظور المقالى الذى يصدر عنه نجيب محفوظ، وبالتوصل إلى تحديد أدق لمصادره فى الفلسفة المقالية. وتقترح الناقدة الفيلسوف الألمانى هيجيل كمصدر رئيسى فى رؤية نجيب محفوظ لوحده الوجود، ومنظور الشخصية الروائية وطبيعة فعل هذه الشخصية، ملتزمة كعادتها بالنصوص القصصية كنقطة انطلاق.

والكتاب سجل للفن القصص والنقد القصصى فى أرقى صورها.

٢٣- يوميات دبلوماسى فى بلاد العرب

يضم هذا الكتاب بين غلافه كتابين، وتضطرم بين دفتيه عشرات الحوادث، وعشرات الأبطال..

ومعظم أبطاله أسماء لامعة، لعبت أدواراً مؤثرة، فى تاريخ مصر، وفى التاريخ العربى، وفى تاريخ العالم..

ومن النوع الأول هناك : «مصطفى النحاس» و «الملك فاروق» و«مكرم عبيد» و «طه حسين» و «محمود فهمى النقراشى» و «اللورد كيلرن» و «أنور السادات» و «جمال عبد الناصر» و «شعراوى جمعة» و«الفريق محمد فوزى» و «سامى شرف» و «اسماعيل فهمى» و ..

ومن النوع الثانى هناك : «رياض الصلح» و بشارة الخورى» و«شكرى القوتلى» و «فيليب تقلا» و «نورى السعيد»..

ومن النوع الثالث هناك : «ستالين» و «مولوتوف» و « كوسيجين» و«نيكسون» و «كيسنجر» و «روزفلت» و «تشرشل».

وهناك عشرات غير هؤلاء .. وهؤلاء.

وكل واحد من هذين الكتابين ألفه سفير للاتحاد السوفيتي فى مصر، وضمنه مذكراته وذكرياته عن فترة عمل بها، وكانت بالمصادفة فترة حرب..

كان الأول سفيراً لموسكو فى القاهرة، خلال الفترة الفاصلة فى تاريخ الحرب العالمية الثانية .. وكان الثانى سفيراً لها خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣..

وخلال الأعوام الثلاثين التى فصلت بين الحربين .. تغيرت مصر، وتغير الوطن العربى، وتغير العالم :انهار النظام الملكى ليحل محله النظام الناصرى .. وكانت خطى الانقلاب على توجهات ثورة ٢٣ يوليو قد بدأت.

ولأنه كتاب يتعلق بنا نحن المصريين والعرب، أكثر مما يتعلق بالاتحاد السوفيتى .. فقد نشرناه.

٢٤- مقامرة التاريخ الكبرى

ير مؤلف هذا الكتاب - المفكر العربى المعروف د.فؤاد زكريا - أن الزعيم

السوفيتى «ميخائيل جورباتشوف» قد أسهم في تغيير عالمنا بأكثر مما أسهم به أى فرد آخر في التاريخ المعاصر.

وهو يقول أن جورباتشوف يقوم بمقامرة من أكبر مقامرات التاريخ، وهى مقامرة محسوبة، قد تبدو خاسرة فى البداية، ولكنها ستنتهى فى رأيه بتراكم المكاسب.

ويراهن جورباتشوف فى رأى المؤلف على الطبيعة البشرية التى تثور الآن على القمع والاضطهاد، وسوف تثور غدا على الظلم الاجتماعى والتفاوت الحاد بين الطبقات والتسلح الذى يهدد استمرار الحياة. ويحاول هذا الكتاب، تحليل عناصر هذه المغامرة الكبرى واحتمالاتها الممكنة، من خلال تفسير ما حدث وبحث تأثيراته على مستقبل العالم وخاصة الوطن العربى ثم المغامرة باستخلاص توقعات عن شكل العالم فى عقد التسعينات!

والكتاب مغامرة فكرية من كاتبه تحتاج الى قارئ يملك عقلا حيا يريد أن يغامر بفهم ما يدور فى عالم اليوم.

٢٥- البيريسترويكا ومستقبل الاشتراكية

الحوار الذى أدارته الأهالى بين الوفديين والأخوان المسلمين والحزب الوطنى والناصريين والشيوعيين والتجمعيين حول التطورات الأخيرة فى البلاد الاشتراكية .

لأننا نعيش فى عالم واحد، فإن التطورات المثيرة التى وقعت فى الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية خلال السنوات القليلة الماضية، وخاصة فى عام ١٩٨٩، سوف تؤثر بالقطع فى أوضاع أمتنا العربية، ووطننا المصرى.

وهذه الندوة التى عقدتها «الأهالى» ونشرتها - واحدة من محاولات الفهم الأرشد والأعمق لدلالة أحداث أوروبا الشرقية، ومدى تأثيرها على مصالحنا القومية والوطنية .. وهى تتميز بأنها أخذت شكل الحوار بين ١٧ من الساسة والمفكرين ينتمون للتيارات السياسية والفكرية الرئيسية فى مصر أجابوا على امتداد ساعات عن ثلاثة أسئلة محورية :

الأول : هل يكشف ما حدث فى دول أوروبا الشرقية عن خطأ فى النظرية أم فى التطبيق؟

الثاني : هل يمكن بناء اشتراكية حقيقية دون ديمقراطية تقوم على تداول السلطة بين الأحزاب؟

الثالث : ما هو تأثير ما حدث في الأتحاد السوفيتي ودول المنظومة الاشتراكية علينا؟

٢٦- الإسلام والعرش

الدين والدولة في السعودية

يتتبع هذا الكتاب، مشكلة العلاقة بين الدين والدولة في الإسلام، من خلال تتبع مسار الحلف الذى نشأ بين «الوهابية» كدعوة اسلامية سلفية وبين الأسرة السعودية، ونشأ عنه النظام الذى يحكم الآن في المملكة العربية السعودية التى يعدها معظم المسلمين نموذجاً للدولة الأصولية الاسلامية، التى تتخذ من القرآن دستورا لها ومن الشريعة مصدرا لقوانينها ونظمها، ويذهب الكتاب الى القول بأن العلاقات كانت خلال القرن الثامن عشر، علاقة توافق وارتباط وثيق وبعد استقرار الدولة وسعيها للتحديث، بدأ التناقض الذى كشف عن أن الدولة، التى تحتكر السلطة والموارد، لايمكنها السماح بوجود دينى مستقل يستطيع منافستها ومزاحمتها على الانفراد بولاء الشعب وأنها لن تتردد آنذاك عن قمع المؤسسات الدينية إذا تحدت سلطتها.

وبسبب ذلك وقع الصدام - عام ١٩٢٩ بين الدولة السعودية والمؤسسات الدينية التى انتقل قسم منها الى مواقع المعارضة.

بل أن الشباب علمانى التعليم الذى أيد آل سعود في صراعهم مع علماء الدين، سرعان ما أنتهى الى جيل سعودى شاب يطالب بإلغاء الحكم الملكى وإقامة نظام اشتراكى.

وهكذا تتحدد الإشكالية التى تحلق في أفق النظام السعودى في سؤال يقول : كيف يمكن التوفيق بين الثراء المفاجئ والتحديث السريع، وبين الالتزام بالوهابية؟

مؤلف الكتاب فلسطينى الأصل، يعمل استاذا للعلوم السياسية بالجامعات الكندية، والكتاب هو رسالته للدكتوراه، لذلك اتسم بالموضوعية والحياد، وابتعد

عن التشهير الذى لا يضيف حقيقة أو يصنع وعيا.

ولهذا السبب اخترنا أن نترجمه وننشره.

٢٧- الخطاب الساداتى

على كثرة الكتب التى صدرت حتى الآن، عن ظاهرة «السادات» فإن هذا الكتاب يتميز بخاصية أساسية، هى أنه يرتاد مجالاً جديداً من مجالات البحث عما فعله «السادات» بالوطن ... هو مجال التحليل العلمى للخطاب السياسى الساداتى : أى تحليل منظومة المفاهيم والمقترحات النظرية والمقولات والأفكار الأساسية التى نادى بها ومهد لها..! إنه كتاب لا يغريك بأسرار لم تقرأها عن السادات. بل ينقلك من التنكيت عليه، إلى إدااك وفهم مصيبتنا به.

رقم الإيــداع ١٩٩٠/٧٦٥٦

طبعت بمطابع شركة الأمل للطباعة والنشر
«إخوان مورفيتلى سابقا»
تليفون : ٣٩٠٤٠٩٦

هـذا الكـتاب

لعلها ليست مجرد مصادفة .. أن تكون هذه هى الطبعة التاسعة .

تسع طبعات من كتاب شىء لايتكرر كثيرا ، ولا يتكرر كذلك أن يطبع الكتاب فى مصر ولبنان والكويت وتونس واليمن ، وان تنشر فصول كاملة منه فى صحف عراقية وتونسية وجزائرية وسودانية . وأن تترجم بعض فصوله الى الانجليزية والألمانية لتنشر فى دوريات علمية متخصصة .

لعله الموضوع .. الذى إكتسى أهمية خاصة فى أيامنا هذه مع تصاعد صيحات التطرف الدينى ، ودعوات الاسلام السياسى ..

ذلك الموضوع الذى أغرى الكثيرين بالخوض فيه .. البعض بالغلو فى المحاباة ، والبعض الآخر بالهجوم المتشدد .

ولعله المنهج الذى اكتسى به الكتاب متشبثاً بالموضوعية ، وبالتأنى الأكاديمى فى البحث والتدقيق ، وبالترفع عن أن يكون البحث التاريخى لتصفية حسابات سياسية ، أو سبيلا للتهجم على خصوم سياسيين .. ذلك المنهج الذى فرض الالتزام بالحقيقة التاريخية كأداه وكمادة للبحث .

وفى هذا الكتاب يقدم د. رفعت السعيد صورة أقرب ما تكون الى الحقيقة لهذه الشخصية الفذة .. حسن البنا مؤسس جماعة الاخوان المسلمين ..

ولعله ما من شخصية سياسية استمتعت بولاء أتباعها ومريديها كما إستمتعت ولم تزل شخصية الامام الشهيد ، وما من شخصية سياسية تعرضت لهجمات خصومها السياسيين بالحق وغيره .. كما تعرضت شخصية البنا .. ولقد حاول المؤلف جهده أن ينأى بنفسه عن كلا الموقفين ، والتزم بالموضوعية الصارمة وبأكاديمية البحث .. فلم يقل بلا دليل ، ولم يورد واقعه بلا سند ..

ولعل هذا هو مصدر الاهتمام بالكتاب